المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع البلاغة والنقد





الدعاء في القرآن الكريم
أساليبه ومقاصده وأسراره

بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعداد الطالبة

بهية بنت حامد اللحياني

إشراف الدكتور

يوسف عبد الله الأنصاري

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اسم الطالبة : بهية بنت حامد بن أحمد اللحياني

التخصص : البلاغة والنقد

الدرجة : ماجستير

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : (الدعاء في القرآن الكريم أساليبه ومقاصده وأسراره) .

اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وبابين ثم خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع .

وفي المقدمة أشارت الباحثة إلى حاجة البلاغة القرآنية إلى مزيدٍ من الدراسات الجادة لإظهار ما فيها من بلاغة النظم وروعة السبك . ثم جاء التمهيد عرضاً لدلالة مادة (دعا) في القرآن وكلام الناس . وكيف أنها كانت في معظمها مبنية على المجاز . ثم قدمت الدراسة عرضاً للدعاء في بيان العربية شعراً ونثراً .

والباب الأول في فصوله الثلاث تناولت فيه الباحثة أساليب الدعاء وأصناف الداعين ومقاصدهم . أمَّا الباب الثاني فقد كان تحليلاً لآيات الدعاء وقد خلص البحث إلى نتائج دونت في خاتمته من أهمها :

١ - غزارة مادة دعا وثراء دلالاتها .

٢ - أن السمة المميزة للدعاء القرآني إيجازه .

٣ - كثرة الدعاء الدنيوي الذي جاء في معظمه على ألسنة المؤمنين وقلة الدعاء الأخروي الذي صدر في معظمه على ألسنة المعذبين .

٤ - قلة صور البيان والبديع في آيات الدعاء .

٥ - كثرة الدعاء بأسلوب الأمر .

٦ - كثرة النداء بصفة الربوبية . وكل تلك النتائج كشفت الدراسة عن بعض أسرارها في مظانها من هذا البحث .

الطالبة	المشرف	عميد الكلية
بهية بنت حامد بن أحمد اللحياني	**د/ يوسف بن عبد الله الأنصاري**	**د/ صالح بدوي**

المقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين خير ولد عدنان نبينا محمد ﷺ الذي لم يجاره في علمه إنس ولا جان أفضل الخلق وأبلغهم ، وعلى آله وصحبه الأطهار إلى يوم الدين .

وبعد :

فبلاغة القرآن بحر زاخر بدرر لم تمسها أيدي الدارسين ، ولم تقلبها أذهان الباحثين . لذا فهي بحاجة إلى جهود المخلصين ، لجمع تلك الدرر ونظمها عقوداً تزدان بها عربيتنا ، وتكسوها جمالاً وفتنة ، فالقرآن ثريٌّ بأساليب من القول بديعة وأفانين من النظم فريدة ، جعلته بحق معجزة خالدة تزداد مع الأيام إبهاراً ، وتحتاج جهداً صادقاً لإظهارها من بين السطور ، لتكون دليلاً على بلوغ القرآن حد الإعجاز الذي تحطمت أمامه قوى المتحدين والمعاندين الذين يحاولون النيل منه والطعن فيه .

ومن فضل الله عليَّ ثم ببركة دعاء والديَّ أن يسر لي اختيار هذا الموضوع (الدعاء في القرآن الكريم " أساليبه ومقاصده وأسراره ") خدمة لكتاب الله عز وجل ، محتسبة الأجر ممن قال لعباده : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة/ ٧ - ٨] .

ومما لاشك فيه أن أكثر الموضوعات إمتاعاً أقربها للنفس ، وأمسها بالقلب . وما الدعاء إلاَّ فيض الشعور وضعف النفس وانكسارها ، يصارح فيه العبد ربَّه متجرداً من قوته ، كاشفاً عن حاجته في تذلل واستعطاف .

فكان حقيقاً بالدراسة والتحليل للكشف عمَّا فيه من روائع النظم ، وبدائع السبك . والدعاء القرآني هو الأساس والأنموذج المحتذى ، فيه من المعاني والأسرار ولطائف القول ما جعل الكفَّار عاجزين عن مماثلته ولو بآية واحدة . وقد حاولت أن أعرض - حسب علمي المتواضع - ما جاء في الدعاء القرآني من تلك المعاني والأسرار فكان هذا البحث الذي اشتمل بعد هذه المقدمة على تمهيد تناولت فيه :

أ - الدلالات اللغوية للدعاء في القرآن الكريم .

ب - الدعاء في بيان العربية .

ثم بابين :

١ - الباب الأول : الدعاء أساليبه ومقاصده في القرآن الكريم.

وقد اشتمل على ثلاثة فصول :

أ - **الفصل الأول** : أساليب الدعاء في محكم التنزيل .

ب - **الفصل الثاني** : أصناف الداعين .

جـ - **الفصل الثالث** : مقاصد الدعاء .

٢ - الباب الثاني : التحليل البلاغي لآيات الدعاء .

وقد اشتمل على ثلاثة فصول :

أ - **الفصل الأول : دراسة تركيب الجملة .**

ويحتوي على ستة مباحث :

١ – **المبحث الأول** : التقديم وأسراره .

٢ – **المبحث الثاني** : أسلوب التوكيد ودلالته البلاغية .

٣ – **المبحث الثالث** : التعريف والتنكير .

٤ – **المبحث الرابع** : المشتقات وصيغ الأفعال ودلالاتها البلاغية .

٥ – **المبحث الخامس** : دلالات إنما النفي والاستثناء .

٦ – **المبحث السادس** : أسرار الإفراد والجمع في آيات الدعاء .

ب – الفصل الثاني : دراسة تركيب الجمل .

ويحتوي على أربعة مباحث :

١ – **المبحث الأول** : علاقات الجمل .

٢ – **المبحث الثاني** : ترتيب الجمل وأسراره .

٣ – **المبحث الثالث** : مظاهر الإيجاز والاطناب .

٤ – **المبحث الرابع** : فواصل آيات الدعاء .

جـ – الفصل الثالث : صور البيان والبديع في آيات الدعاء .

ثم الخاتمة وثبت المصادر والمراجع .

وبعد :

فإني أتضرع للمولى سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويجنبه الزلل إنه على ذلك لقدير . فهذا جهد المقلّ وما توفيقي إلاّ بالله وفي الختام أتوجه بالشكر لجامعة أم القرى ممثلة في كلية اللغة العربية قسم الدراسات العليا العربية فرع البلاغة والنقد على كل ما قدمته لي ثم أتوجه بالشكر الجزيل الموشى بعظيم الامتنان لأستاذي الدكتور / يوسف عبد الله الأنصاري الذي نمت على يديه فكرة الرسالة حيث تعهدها - بالنصح والارشاد والتوجيه - كما يتعهد الوالد ولده حتى بلغت أشدها فلم يبخل عليها بوقت أو جهد . جزاه الله عني وعنها خير الجزاء وبارك له في علمه وعمله .

والشكر موصول لسعادة الدكتور / عبد الله اللحياني الذي ما توانى عن مساعدتي وتوجيهي رغم انشغاله فله دعائي الخالص بموفور الصحة والعافية وأن يبارك له في علمه وولده .

ثم إني أرجو من الله العلي العظيم لعائلتيَّ الصغيرة والكبيرة كل خير وأن يجعل ذلك في موازين حسنات كل فرد منهما . وكل من مدَّ لي يد المساعدة بفكرة أو خدمة أو توجيه .

وأخص بالشكر صغرى شقيقاتي (فتحية) لتفانيها في مساعدتي ، فقد كانت العين الثانية التي رعت البحث بعد عيني . بارك الله في عمرها وأمتعها بالصحة والعافية .

ولا يفوتني في الختام أن أقبِّل يدي من رعتني ورعتْ ابنتي وكان لسانها عذباً رطباً بذكر الله تدعوه أن يوفقني في بحثي ويجعل له حظاً من القبول أمي التي أبتهل إلى المولى أن يلبسها العافية حلة لا تبلى ويكسوها الصحة دوماً وأبداً ، ويرزقها أعلى الدرجات في الجنة .

أمَّا شكري لِوالدي - رحمه الله - فإنني أبثه دعاءً له بالرحمة والغفران وسُكنى فسيح الجنان .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التمهيد

التمهيد

أ - الدلالات اللغوية للدعاء في القرآن الكريم :

الدعاء بين الدلالتين اللغوية والقرآنية :

دارت مادة (دعا) في معاجم اللغة والقرآن حول عِدَّة معانٍ نرى اشتراك اللغة والقرآن في كثير منها ، في حين نجد إنفراد أحدهما ببعض الألفاظ دون الآخر .

والدعاء في الأصل واحد الأدعية وهو : « أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك . تقول : دعوتُ أدعو دعاءً »[(١)] . وهو أيضاً « الرغبة إلى الله عز وجل ، دعاه دُعاءً ودَعْوَى »[(٢)] .

أولاً : المعاني المشتركة لمادة (دعا) في القرآن وكلام الناس :

(١) النداء والطلب :

« دعوت فلاناً أي صحت به واستدعيته وناديته »[(٣)] . وجاء في القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ .. ﴾[(٤)] .

---

(١) مقاييس اللغة / لابن فارس / تحقيق : عبد السلام هارون / دار الفكر/ ٢ / ٢٧٩ (دعو).

(٢) لسان العرب / لابن منظور / دار إحياء التراث العربي بيروت / الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م / ٤ / ٣٦٠ (دعا) .

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية / للجوهري / تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار / دار العلم للملايين / ٦ / ٢٣٣٧ (دعا) ، واللسان ٤ / ٣٦٠ .

(٤) القصص / ٢٥ .

(٢) طلب الإحضار :

دعا بالشيء طلب إحضاره ، و(دعا بالكتاب استحضره)[١] ومنه قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾[٢] .

(٣) النداء إلى الطعام :

« الدَّعوة إلى الطعام (بالفتح) يقَال : كنا في دعوة فلان ومدعاة فلان وهو في الأصل مصدر ، يريدون الدعاء إلى الطعام »[٣] . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾[٤] .

ونلحظ التقارب الشديد بين المعاني الثلاثة السابقة .

(٤) النسب :

« الدِّعْوة (بالكسر) في النسب يقال : فلان دَعِيٌّ بيِّن الدِّعوة والدِّعْوَى في النسب والدَّعِيُّ أيضاً : من تبنيته »[٥] قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾[٦] .

---

(١) أساس البلاغة / للزمخشري / دار الكتب المصرية / ١٣١ .
(٢) الدخان / ٥٥ .
(٣) الصحاح ٦ / ٢٣٣٦ .
(٤) الأحزاب / ٥٣ .
(٥) الصحاح ٦ / ٢٣٣٦ - ٢٣٣٧ .
(٦) الأحزاب / ٥ .

ثانياً : المعاني التي لم ترد في القرآن :

انفردت مادة (دعا) في اللغة بمعانٍ منها :

١ - الإدعاء في الحرب « أي الاعتزاء وهو أن تقول : أنا ابن فلانٍ »[١] .

٢ - « الإدِّعاء أن تدَّعي حقاً لك أو لغيرك ، تقول ادَّعَى حقاً أو باطلاً »[٢] .

٣ - دواعي الدهر : صروفه[٣] وهذا من المجاز ، وكأنَّ الدهر يدعو صروفه التي سماها العرب (بنات الدهر) .

٤ - الأدعية " الأحجية "[٤] وهي من المجاز كذلك .

٥ - « تداعت عليهم القبائل من كل جانب : اجتمعت »[٥] وهذا من المجاز لأن اجتماعها مسبب عن دعائها بمعنى نداء بعضها على بعض .

٦ - تداعت عليهم الحيطان . أي تهدمت[٦] وهو من المجاز ، وكأنَّ الحيطان قد دعا بعضها بعضاً فاستجاب .

٧ - داعية الخيل : صريخهم[٧] وهو من المجاز أيضاً .

٨ - « النادبة تدعو الميت : تندبه تقول : وازيداه »[٨] وهذا من المجاز لأنه نداء مراد به التحسر .

---

(١) مقاييس اللغة / ٢٨٠ ، الصحاح ٦ / ٢٣٣٧ .
(٢) مقاييس اللغة / ٢٨٠ .
(٣) الصحاح ٦ / ٢٣٣٧ ، مقاييس اللغة / ٢٨٠ ، أساس البلاغة / ١٣١ .
(٤) الصحاح ٦ / ٢٣٣٧ .
(٥) أساس البلاغة / ١٣١ .
(٦) راجع أساس البلاغة / ١٣١ ، الصحاح ٦ / ٢٣٣٧ ، مقاييس اللغة / ٢٨٠ .
(٧) أساس البلاغة / ١٣١ .
(٨) المصدر السابق / ١٣١ .

٩ - « داعية اللبن: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده »[١] وهي من المجاز.

١٠ - ومن المجاز « دعاه الله بما يكره: أنزله به »[٢] وهي من المجاز كذلك.

١١ - ومن مجاز المجاز « تداعت إبل بني فلان : هُزِلَتْ أو هلكتْ »[٣] .

وذلك أن التداعي مجاز في الإبل إذ أنها خاصة بالحيطان أي سقطت وكأن بعضها دعا بعضاً وهي مجاز في الحيطان فهذا مجاز بني على مجاز آخر .

ثالثاً : المعاني التي انفرد بها القرآن :

(١) العبادة :

وهو من المجاز كذلك ، لأن الدعاء بمعنى النداء لله رب العالمين يلزمه الانقياد والطاعة إذ هو من لوازم الانقياد والطاعة .

وقد جاء الدعاء بمعنى العبادة في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[٤] . « أي اعبدوني بدليل ما بعده (عبادتي) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾[٥] . أي (اعبدوا)[٦] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾[٧] أي عبادتكم[٨] .

---

(١) المصدر السابق / ١٣١ ، الصحاح ٦ / ٢٣٣٧ ، مقاييس اللغة / ٢٨٠ .
(٢) أساس البلاغة / ١٣١ .
(٣) المصدر السابق / ١٣١ .
(٤) غافر / ٦٠ .
(٥) غافر / ١٤ .
(٦) معجم ألفاظ القرآن الكريم / الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م / الطبعة الثانية ، المجلد الأول / ٤١٣ .
(٧) الفرقان / ٧٧ .
(٨) معجم ألفاظ القرآن ١ / ٤١٤ .

(٢) الاستفهام والسؤال :

قد يراد بدعا السؤال والاستفهام على سبيل المجاز نحو قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ .. ﴾[١] أي اسأل واستفهم . ومثله قوله تعالى : ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[٢] أي سألوا[٣]. وقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[٤] أي سأله[٥] .

(٣) القول :

يراد كذلك (بدعا) القول وهو من المجاز كقوله تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٦] أي قولهم ومثله قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾[٧] أي قولهم[٨] .

---

(١) البقرة / ٦٩ .

(٢) يونس / ٢٢ .

(٣) معجم ألفاظ القرآن ١ / ٤٠٩ .

(٤) النمل / ٦٢ .

(٥) معجم ألفاظ القرآن ١ / ٤٠٩ .

(٦) يونس / ١٠ .

(٧) الأنبياء / ١٥ .

(٨) بصائر ذوي التمييز / للفيروزأبادي / تحقيق : محمد علي النجار / المكتبة العلمية – بيروت ٢ / ٦٠١ .

(٤) الحث على الشيء :

ومن معاني دعا الحث على الشيء كقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[١] . أي حثّ[٢] . ومثله قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾[٣] أي يحثونه على الهدى[٤] .

(٥) الطلب والاستعجال :

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾[٥] . أي تستعجلون .

(٦) نداء الهلاك :

وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾[٦] أي يقول : ياثبوراه .

ومما سبق يمكن القول إن :

١ - مادة (دعا) قد حفلت بمعانٍ عديدة دارت في ثنايا معاجم اللغة وفي آيات القرآن الكريم وكانت في معظمها معانٍ مجازية .



(١) النحل / ١٢٥ .

(٢) معجم ألفاظ القرآن ١ / ٤١٢ .

(٣) الأنعام / ٧١ .

(٤) معجم ألفاظ القرآن ١ / ٤١٢ .

(٥) الملك / ٢٧ .

(٦) الانشقاق / ١١ .

٢ - القرآن قد انفرد بمعانٍ مختلفة تماماً عن ما ورد في كلام الناس ، حيث يغلب عليها الطابع الديني (النفسي) الذي قلَّما نجده في ألفاظ اللغة - التي انفردت بها دون القرآن - والتي غلب عليها الطابع الحسي .

٣ - مادة (دعا) التي يراد بها كشف الضر أو جلب النفع نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾[1] وقوله : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾[2] أي لا يمل من دعاء الخير لنفسه وجلبه إليه . هي التي تراد في هذا البحث .

وقد فصَّل ابن منظور[3] في اللسان استعمال الدعاء كعبادة ، وجعله على ثلاثة أوجه هي :

الأول : توحيده والثناء عليه كقولك : يا الله لا إله إلاَّ أنت ن وربَّنا لك الحمد ، فقد دعوته بقولك : ربَّنا ، ثم أتيت بالثناء والتوحيد .

الثاني : مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه كقولك : اللهم اغفر لنا.

---

(١) الزمر / ٨ .

(٢) فصلت / ٤٩ .

(٣) محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب لسان العرب ، الإمام اللغوي الحجة ، ولد بمصر (وقيل : في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء في القاهرة ثم ولي القضاء في طرابلس ثم عاد إلى مصر وتوفي فيها ، كان مغرى باختصار كتب الأدب المطوّلة ، أشهر كتبه " مختار الأغاني ، مختصر مفردات ابن البيطار ، اختصار كتاب الحيوان للجاحظ " . انظر ترجمته في : الأعلام ٧ / ١٠٨ .

الثالث : مسألة الحظ من الدنيا كقولك : اللهم ارزقني مالاً وولداً .

وقد علل سبب تسمية ما سبق دعاءً فقال : لأن الإنسان يُصــدِّر في هـذه الأشياء بقوله : يا الله - يا رب - يا رحمن[1] .

(١) انظر لسان العرب ٤ / ٣٥٩ ، مادة (دعا) .

ب - الدعاء في بيان العربية :

كان لنزول القرآن بالعربية أثرٌ عظيمٌ في سمو مكانتها وبقائها حيَّة ، حيث نراها تتردد حتى على الألسنة الأعجمية ، فهم يقرأون القرآن بالعربية رغم جهلهم التام بها .

والإنسان حين تشتد فاقته أو تصيبه نازلة لا يستطيع ردها نجده يلجأ إلى خالقه – مصوراً ضعفه – ليكشف عنه الضر ويزيل عنه البأس ، وقد وردت في بيان العربية نماذج رائعة من الأدعية على ألسنة الشعراء والأدباء على نحو ما سنوضحه لك في الصفحات القادمة بإذن الله .

أولاً : النثر

كان الكلام المطلق الخالي من أعباء الوزن والقافية أكثر احتواءً لنماذج الدعاء من الشعر ، لأن الداعي لا يهتم أثناء دعائه بوزنٍ أو قافية ، بل يخرج الدعاء من بين شفتيه ليعبر عن حاجاته وتطلعاته ومكنونات نفسه، يرسلها مطلقة بلا قيود ، ونظراً لكثرة الدعاء في النثر فإننا نبدأ به .

ونبدأ أولاً : بكلام خير المرسلين الذي لا ينطق عن الهوى ، خير من دعا عليه الصلاة والسلام ، فقد جمع في دعائه عليه السلام مطالب الدنيا والآخرة، جمعها في دعاءٍ شاملٍ لحاجات الإنسان ومطالبه ، فهو كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها « يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك »[١]

---

(١) أبو داود في سننه في كتاب الدعاء ٢ / ٧٧ .

فقد دعا الله طالباً منه (الهداية - المغفرة - الرحمة - السداد - الغنى - العفاف - العفو - العافية - الرزق - صلاح الدين والدنيا - السلامة - الفوز بالجنة - النجاة من النار .. إلخ) واستعاذ ربه من عدة أمور كالعجز - الكسل - الهرم - الجبن - البخل - عذاب القبر - فتنة المحيا والممات - غلبة الدين - سوء القضاء - شماتة الأعداء - العلم الذي لا ينفع - القلب الذي لا يخشع - الجذام - البرص - الجنون - سائر الأسقام - الخيانة - الجوع - الدعوة التي لا يستجاب لها ... إلخ.

فكما نرى كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام دعاءً شاملاً يصلح أن يُدعى به في كل زمان ومكان .

وقد كان عليه السلام حريصاً على تعليم أمته من خلال الدعاء الذي يدعو به ، أو من خلال التعليم المباشر ، فهو رسول الأمة ومعلمها الأول ، نراه يعلم أصحابه كيفية الدعاء . من ذلك ما رواه طارق بن أشيم رضي الله عنه أن الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني »[١] . وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ علمني دعاءً أدعو به في صلاتي ، قال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلاّ أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم »[٢] .

---

(١) صحيح مسلم ٣ / ٢٠٧٣ في الذكر والدعاء .

(٢) البخاري ١ / ٢٨٦ ، صحيح مسلم ٤ / ٢٠٧٨ .

ومن دعائه عليه السلام الذي جمع فيه بين خيري الدنيا والآخرة ما رواه أنس رضي الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار »[١] .

لقد تمثل الرسول عليه السلام في دعائه هذا ما جاء في القرآن الكريم في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٢] . مع ما بين الدعائين من اختلاف يسير في صيغة الدعاء حيث كان دعاؤه عليه السلام بصيغة (اللهم) وفي القرآن بـ(ربنا) حيث يكثر النداء في القرآن بالربوبية ، وفي الحديث بالألوهية وقد أشار العلماء إلى سر كثرة النداء في القرآن بالربوبية وذلك في دراسات متعددة ، حيث أرجعوا ذلك إلى أمور منها :

(١ - أن صفة الربوبية بما فيها من معاني التربية والإنعام والتفضل ، هي آثار لا تنقطع دنيا وأخرى - أنسب - وفيها اعتراف بالربوبية ولجوء إلى مصدر الخير أملاً في الإجابة .

٢ - أحسب أن الذي ألهم الداعين الالتزام بهذا الاسم الأعظم في دعائهم قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٣] فكأنهم - وهم الحراص على تحري كل ما من شأنه جعل دعائهم أقرب إلى القبول - يؤثرون الالتزام بذات الاسم الأعظم الذي ذكره الله - تعالى - وهو يفتح أبوابه للعباد كي يتوجهوا إليه ويدعوه .

---

(١) البخاري في الدعوات ٧ / ١٦٣ ، صحيح مسلم في الذكر والدعاء الحديث ٣٦٩٠ .

(٢) البقرة / ٢٠١ .

(٣) غافر / ٦٠ .

٣ – النداء بالربوبية فيه تلطف واستعطاف بذكر هذه الصفة الدالة على التربية والإصلاح بحال الداعي .

ولعل السر في كثرة النداء بـ(اللهم) في الدعاء النبوي يرجع إلى ما في هذا الاسم (الله) من العموم ، لأنه – كما سبق – يشمل معاني الصفات الإلهية كلها ، ولذا كان الرسول ﷺ يستفتح به أكثر دعائه، مستحضراً عظمة المسمى ، متقرباً إلى الله بهذا الاسم المفرد الذي لا يطلق على غيره جل جلاله، ونظراً لما في هذا الاسم من العموم وردت الأحاديث عن النبي ﷺ تحث على الدعاء به في جميع الأمور كبيرها وصغيرها ...)[١] .

ونرجع إلى حديث الرسول ذاته فنجده لم يقصره على الدنيا فقط بل تناول الآخرة ، وطلب الوقاية من عذاب النار . والحسنة التي طلبها عليه السلام اختلف المفسرون في تحديد المراد بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة . والحسنة عامة « يُعبَّر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله ، والسيئة تضادها »[٢] . وقد ذكر الطبري[٣] في تفسيره لهذه

(١) بلاغة الدعاء في الحديث النبوي (رسالة دكتوراه) إعداد / سلامة جمعة علي داود / إشراف د. عبد الحميد العبيسي / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م / جامعة الأزهر / ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني / ١١٨ / مادة (حسن) تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة – لبنان .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ولد سنة ٢٢٤ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ ، المؤرخ المفسر الإمام ، ولد في طبرستان واستوطن بغداد وتوفي فيها . من مؤلفاته أخبار الرسل والملوك ، وجامع البيان في تفسير القرآن .
انظر ترجمته في : الأعلام ٦ / ٦٩ .

الآية المعاني التي دارت حول المراد بحسنة الدنيا والآخرة - أمَّا حسنة الدنيا فذكروا أن المراد بها (العلم - العبادة - الفهم في كتاب الله - الرزق الطيب - المال) وأجمعوا أن الحسنة في الآخرة « الجنة » . لكن ما ارتضاه الطبري هو أن يقال : « إن الله جل ثناؤه أخبر عن قوم من أهل الإيمان به وبرسوله ، ممن حجَّ بيته ، يسألون ربهم الحسنة في الدنيا ، والحسنة في الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار وقد تجمع الحسنة من الله عز وجل العافية في الجسم والمعاش والرزق وغير ذلك والعلم والعبادة ، وأما في الآخرة فلا شك أنها الجنة ، لأن من لم ينلها يومئذ ، فقد حرم جميع الحسنات ، وفارق جميع معاني العافية »[١] .

وبهذا الرأي نرى توافقاً بين ما قاله الطبري في معنى الحسنة وبين ما قاله الراغب[٢] .

أيضاً من دعائه عليه السلام الذي كان يكثر منه ما رواه شهر بن حوشب عن أم سلمة قالت : كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »[٣] .

---

(١) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري / دار الفكر / بدون طبعة / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / ٢ / ٣٠٠ .

(٢) الإمام أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد ، المعروف بالراغب ،كان أديباً من الحكماء والعلماء من أهل أصبهان سكن بغداد واشتهر ، توفي سنة ٥٠٢ هـ وله عدة مؤلفات منها : المفردات في غريب القرآن ، الذريعة إلى مكارم الشريعة .

انظر ترجمته في : الأعلام ٢ / ٢٥٥ .

(٣) الترمذي في سننه ٥ / ٥٣٨ .

لقد أدرك عليه السلام وظيفة القلب وأثره في باقي الجسد حيث نراه في حديث آخر يقول : « ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[١] . إذاً فالقلب بمثابة المحرك لهذا الجسد فمتى ما حاد عن طريقه وانحرف عن مساره تضرر باقي الجسد ، فانحراف القلب عن هذا الدين هو الهلاك المحقق لذا دعا بثباته على الإيمان .

ومن صور تعليم الرسول لأصحابه الدعاء حثهم على الدعاء للغير في ظهر الغيب ، من ذلك ما رواه أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ كان يقول : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ... »[٢] .

وقد سار السلف رضوان الله عليهم على نهج المصطفى عليه السلام فمن دعاء علي رضي الله عنه : « اللهم صُنْ وجهي باليسار ولا تَبْذُلْ جاهي بالإقتار فأسْتَرْزِقَ طالبي رزقِك ، واستعطف شرار خلقك ، وأُبتلى بحمد من أعطاني ، وأُفتتن بذم من منعني ، وأنت من وراء ذلك كله وليُّ الإعطاء والمنع إنك على كل شيء قدير »[٣] .

ومن دعائه أيضاً : « اللهم إنَّ ذنوبي لا تضرك ، وإنَّ رحمتك إيَّاي لا تنقصك فاغفر لي ما لا يضرك ، وأعطني ما لا ينقصك »[٤] . ومن دعاء أبي

---

(١) البخاري ١ / ٢٨ ، مسلم ٣ / ١٢١٩ .

(٢) صحيح مسلم ٤ / ٢٠٩٤ .

(٣) نهج البلاغة / لعلي بن أبي طالب / شرح الشيخ / محمد عبده / دار الكتب العلمية ببيروت – لبنان / ط١ ١٤١٠ هـ / ٢ / ٣٠٢ .

(٤) البيان والتبيين / لأبي عثمان الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون / دار الجيل ، بيروت / ٣ / ٢٧٤ .

الدرداء : « اللهم أمتعنا بخيارنا ، وأعنَّا على شرارنا ، واجعلنا خياراً كلّنا ، وإذا ذهب الصالحون فلا تبقنا »[١] .

ومن دعاء السلف : « اللهم احملنا من الرُّجلة[٢] واغننا من العَيْلة »[٣] ، وكان محمد بن علي بن الحسين بن علي يقول : « اللهم أعنِّي على الدنيا بالغنى ، وعلى الآخرة بالتقوى »[٤] . ومن قول بعضهم[٥] : « اللهم إني أعوذ بك من طول الغفلة وإفراط الفطنة ، اللهم لا تجعل قولي فوق عملي ، ولا تجعل أسوأ عملي ما قارب أجلي »[٦] .

وقد قيل : « إذا أردت أن تتعلم الدعاء فاسمع دعاء الأعراب »[٧] ، لسلامة ألسنتهم من اللحن ، وسمو قرائحهم وقد ذكر الجاحظ[٨] نماذج متنوعة لدعائهم من ذلك قول أعرابي : « اللهم إنك حبست عنَّا قطر السماء، فذاب الشحم ، وذهب اللحم ، ورقَّ العظم ، فارحم أنين الآنة ، وحنين الحانَّة ، اللهم ارحم تحيرها في مراتعها ، وأنينها في مرابضها »[٩] .

---

(١) المصدر السابق ٣ / ٢٨٢ .

(٢) الرجلة : السفر على الرجلين .

(٣) البيان والتبيين ٣ / ٢٧٠ .

(٤) المصدر السابق ٣ / ٢٧١ .

(٥) عمر بن هبيرة .

(٦) المصدر السابق ٣ / ٢٧١ .

(٧) البيان والتبيين ٣ / ٢٧١ .

(٨) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي الشهير بالجاحظ ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ولد سنة ١٦٣ هـ ، وتوفي سنة ٢٥٥ هـ بالبصرة، له تصانيف كثيرة منها : الحيوان ، البيان والتبيين ، والبخلاء .
انظر ترجمته في : الأعلام ٥ / ٧٤ .

(٩) البيان والتبيين ٣ / ٢٧١ .

فهذا الأعرابي دعا ربَّه مبيناً في البداية حالهم عند حجب المطر عنهم والذي عبَّر عنه بقوله : « قطر السماء » مع أن القطر يدل على القلة ، إلاَّ أن هذا المطر القليل كافٍ لإقامة أودهم وإنعاش ماشيتهم ، وحجبه عنهم ألحق الضرر بهذه الماشية ، وصوَّر هذا الضرر مبتدئاً من الخارج إلى الداخل فالشحم قد ذاب ، ليس ذلك فحسب بل تلاه اللحم ، ولم يسلم العظم كذلك ، وفي هذا دلالة على طول مدة الجدب ، حتى وصل هزال ماشيتهم إلى عظامها ، فهذا الأعرابي عبَّر في دعائه عن حاجته ، والدعاء هو تعبير صريح عن آمال كانت تجول في أذهان أصحابها ، وبصدورها على ألسنتهم أصبحت تحمل اسم (دعاء) .

ومن كلام الأعراب الموجز ما قالته أعرابية حجَّتْ فلما صارت بالموقف قالت : « أسألك الصحبة يا كريم الصحبة ، وأسألك سترك الذي لا تزيله الرياح ولا تخرقه الرماح »[١] . فهذه الأعرابية دعتْ جاعلة الستر ثوباً لها يغطيها ، وهو الستر المحفوظ من نوائب الأيام وصروف الدهر والستر المحفوظ من تخرق الرماح هو الستر المحفوظ بقوة قومها ومنعتهم وقدرتهم على حفظ ديارهم وأموالهم وأعراضهم وخرق الرماح للستر يعني السبي في الحروب .

ومما دعت به الأعراب ما جاء في قول أعرابي : « أعوذ بك من سُقم وعَدْوَاه، وذي رحم ودعواه ، ومن فاجرٍ وجَدْوَاه ، ومن عملٍ لا ترضاه »[٢]، ومن أراد الاستزادة من دعاء الأعراب فعليه الرجوع إلى كتاب البيان والتبيين للوقوف على نماذج أخرى من دعائهم[٣] ، وقد يكون الدعاء من باب الدعاء

---

(١) المصدر السابق ٣ / ٢٨١ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٧٠ .

(٣) المصدر السابق ٣ / من ٢٦٨ إلى ٢٨٩ .

على الإنسان نحو قولهم : « لا أبقى الله له سارحاً ولا جارحاً »[1][2] والدعاء، في كتاب ذيل الأمالي لأبي علي القالي[3] كله من باب الدعاء على الغير[4] . ومن قبيل ذلك في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[5] ، و﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[6] و﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾[7] .

والآيات السابقة لم أتناولها بالدراسة وإن كانت دعاءً وذلك لأمرين :

أولاً : إن هذه الأدعية تعلو فيها نبرة التهديد والوعيد من الله .

ثانياً : بما أنها من الله فهي خالية تماماً من التذلل والخضوع الذي يميز الدعاء - والبشري خاصة - وقد ركزنا في الدراسة على ما كان فيه تذلل وخضوع ، ولذلك تركنا دعاء إبليس : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ

(١) ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي / دار الكتب العلمية بيروت لبنان / ط١ / ١٤١٦ هـ (٣ / ٥٨) .

(٢) السارح : الحاشية من إبل وبقر وغنم لأنها تسرح في المرعى ، والجارح : الفرس والحمار لأنها تجرح الأرض بحوافرها . وهو هنا يريد الدعاء عليه بزوال المال والقوة والمنعة لأن السارح المال والجارح القوة والمنعة .

(٣) إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان أبو علي القالي ولد في منازجرد قرب بحيرة وإن عام ٢٨٨ هـ ، وتوفي عام ٣٥٦ هـ، من أشهر تصانيفه كتاب " النوادر " ويسمى (أمالي القالي)، وله " البارع في اللغة " و" المقصو والممدود والمهموز ".
انظر ترجمته في : الأعلام ١ / ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٤) ذيل الأمالي والنوادر ٥٥ / ٥٧ / ٥٨ .

(٥) الهمزة / ١ .

(٦) المسد / ١ .

(٧) المطففين / ١ .

﴿يُبْعَثُونَ﴾[١] لأنه لا خضوع فيه ولا تذلل بل على العكس عنادٌ وتكبرٌ وتحدٍ لله عز وجل .

ثانياً : الشعر :

الشعر سجل العرب الحافل وديوانها الراصد للأحداث وبدراسته تمكننا من معرفة أيام العرب ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وثقافاتهم ، واعتقاداتهم ، ذلك لأن الشعر « ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس، سواء حين يتحمس الشاعر ويفتخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثي أو حين يعتذر ويعاتب ، أو حين يصف أي شيء مما ينبت حوله في جزيرته »[٢] .

لذا كان الشعر متنفساً تبث من خلاله النفوس القلقة المنهكة – بمشاكل الحياة – شكواها ، والدعاء مطلب بشري حظي كغيره من المطالب بنصيب في الشعر ، فذكر كغرضٍ مفردٍ – وهذا نادر – أو في سياق أغراض شعرية مختلفة ، وفيما يلي سنعرض نماذج شعرية لبعض الأدعية :

من ذلك قول أبي نواس[٣][٤] :

---

(١) الحجر / ٣٦ .

(٢) العصر الجاهلي / شوقي ضيف / دار المعارف بمصر / ط٨ / ١٩٠ .

(٣) هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء ، مولى الحكم بن سعد العشيرة من اليمن ، كان أبو نواس بصريّاً وهو شاعر العراق في عصره ، ولد بالأهواز سنة ١٤٦ هـ، وتوفي في بغداد سنة ١٩٨ هـ ، وله عدة دواوين منها : ديوان شعر ، وديوان الفكاهة والائتناس في مجون أبي نواس .
انظر الشعر والشعراء / ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، انظر أيضاً الأعلام ٢ / ٢٢٥ .

(٤) ديوان أبي نواس / تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي / دار الكتاب العربي لبنان / ٦١٨ .

يَا رَبِّ إنْ عَظُمَت ذُنُوبِي كَثْرَةً   فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إنْ كَانَ لا يَرْجُوْكَ إلاَّ مُحْسِنٌ   فَبِمَنْ يَلُوْذُ ، وَيَسْتَجِيْرُ المُجْرِمُ
أَدْعُوْكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعَاً   فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِيْ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَالِيْ إِلَيْكَ وَسِيْلَةٌ إلاَّ الرَّجَا   وَجَمِيْلُ عَفْوِكَ ... ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

يشير الشاعر إلى عظمة عفو الله وأنه رجاء كل داعٍ وملاذه سواء كان محسناً أم مجرماً وفي البيت الثالث يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1] ونرى شدة تذلله لخالقه ، وأنه سيشعر بخيبة كبيرة إذا لم يغفر له الله .

ونراه يقول أيضاً[2] :

أَدْعُوْكَ سُبْحَانَكَ اَللَّهُمَّ فَاعْفُ كَمَا   عَفَوْتَ يَا ذَا العَلِيْ عَنْ صَاحِبِ الحُوْتِ

فقوله : « عن صاحب الحوت » إشارة إلى قصة سيدنا يونس عليه السلام، فهو النبي الوحيد الذي أذنب ذنباً في نفسه بخروجه من قريته قبل أن يأذن له الله ، فيطلب من ربه أن يعفو عنه كما عفا عن سيدنا يونس .

ومن الشعر الذي يظهر فيه التذلل والخضوع قول أبي العتاهية[3] [4] :

إِلَهِيْ لاَ تُعَذِّبْنِيْ فَإِنِّي   مُقِرٌّ بِالَّذِيْ قَدْ كَانَ مِنِّيْ
وَمَالِيْ حِيْلَةٌ إلاَّ رَجَائِيْ   وَعَفْوُكَ إِنْ عَفَوْتَ وَحُسْنَ ظَنِّيْ

---

(١) غافر / ٦٠ .
(٢) ديوان أبي نواس / ٤٠ .
(٣) هو إسماعيل بن القاسم بن سُويد العيني العنزي ، ويكنى أبا إسحاق مولى لعنزة ولقبه أبو العتاهية كان جرَّاراً ويرمى بالزندقة ، شاعر مكثر ، سريع الخاطر ، في شعره إبداع ، ولد في عين التمر بقرب الكوفة سنة ١٣٠ هـ ، وتوفي في بغداد سنة ٢١١ هـ .
انظر : الشعر والشعراء / ٥٣٨ ، انظر أيضاً الأعلام ١ / ٣٢١ .
(٤) أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي / أسامة عانوني / بيروت منشورات المكتبة الأهلية ١٩٦٢ م / ١٤٥ .

فَكَمْ مِـنْ زَلَّـةٍ لِـيْ فِي البَرَايَـا ... وَأَنْـتَ عَلَـيَّ ذُوْ فَضْـلٍ وَمَـنٍّ

إِذَا فَكَّـرْتُ فِـي قَدَمِـي عَلَيْـهَا ... عَضَضْتُ أَنَامِلِيْ وَقَرَعْـتُ سِنِّيْ

نـرى في هـذه الأبيـات اعـتراف الشـاعر بذنوبـه وحسـرته وندمـه علـى اقترافها، ونراه يشير إلى أمر مهم جداً مفقودٍ - بين بعض المسلمين - ألا وهو حسن الظن بالله ، فالمسلم إذا أحسن الظن بربه فإنه سيعلم علماً يقينـاً أن الله لن يرد العبد التائب العائد إليه ، المخلص في توبته ، فمـا عليـه إلاّ أن يُسـارع في التوبة قبل فـوات الأوان ومـن شعر الدعـاء قـول حسـان بـن ثـابت[1] [2] - رضي الله عنه - :

يَـا رَبِّ فَاجْمَعْنَـا مَعَـاً وَنَبِيَّنَـا ... فِي جَنَّـةٍ تُثْنِـيْ عُيُـوْنَ الحُسَّـدِ

فِي جَنَّـةِ الفِـرْدَوْسِ وَاكْتُبْـهَا لَنَـا ... يَا ذَا الجَلاَلِ وَذَا العُلاَ وَالسُّؤْدَدِ

طلب حسان رضي الله عنه من ربه فيما سبق الاجتمـاع مـع النبي عليـه السلام في الجنـة (جنـة الفـردوس) ، وفي قولـه إشـارة إلى قـول الله تعـالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[3] ومن ذلك أيضاً قول العباس بن الأحنف[4] [5] :

---

(١) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري ويكنى أبا الوليد وأبا الحُسام وأمُّه الفُريعة من الخزرج ، وهو جاهلي إسلامي متقدم الإسلام إلاّ أنه لم يشهد مع النبي ﷺ مشـهداً لأنـه كان جبانا ، عاش في الجاهلية ستين سـنة وفي الإسـلام ستين سـنة ومـات في خلافـة معاويـة وعمي في آخر عمره ، وتوفي سنة ٥٤ هـ .

انظر : الشعر والشعراء / ١٩٢ ، انظر أيضاً الأعلام ٢ / ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري / دار صادر - دار بيروت/ ١٣٨١هـ-١٩٦١م / ٥٨ .

(٣) المؤمنون / ١٠ - ١١ .

(٤) أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمـامي ، مـن بـني حنيفـة ، كـان منشـأه ببغداد ، شاعر غزل رقيق ، لم يمدح ولم يهجُ ، كـان شـعره كلـه غـزلاً ، حيـث قُتِـل عشـقاً وتوفي سنة ١٩٢ هـ ببغداد وقيل بالبصرة .

انظر ترجمته في : الأعلام ٣ / ٢٥٩ ، انظر أيضاً الشعر والشعراء / ٥٦٥ .

(٥) ديوان العباس بن الأحنف / دار صادر - دار بيروت / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م / ٢٩٦ .

يَـــــا رَبِّ رُدَّ عَلَيْنَـــــا مَــنْ كَــانَ أُنْسَــاً وَزَيْنَــا
مَــــنْ لاَ نُسَــــرُّ بِعَيْــــشٍ حَتَّـــى يَكُـــوْنَ لَدَيْنَــا

وقوله[1] :

وَيَا رَبِّ صَبِّرْنِيْ عَلَـىْ مَـا أَصَـابَنِيْ فَأَنْتَ الَّذِيْ تَكْفِيْ وَأَنْـتَ الَّـذِيْ تُعْفِـيْ
وَيَا رَبِّ عَذِّبْهَا بِمَا بِيْ مِـنَ الهَـوَىْ وَلاَ كَـالَّذِيْ عَذَّبْتَ قَـارُوْنَ بِالخَسْـفِ

فدعا في الأبيات الأولى برد عزيز لديه حتى تكمل سعادته ، أما في الأبيات الثانية فهو يدعو ربه بأن يرزقه الصبر على مصيبته ، ويدعو لمحبوبته بأن يصبها الهوى الذي أصابه حتى تعاني ما يعانيه ، ويشير إلى قصة قارون وخسفه .

وقول ذي الرمة[2] [3] :

يَا رَبِّ قَدْ أَشْرَقَتْ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمَـتْ عِلْمَـاً يَقِيْنَـاً لَقَـدْ أَحْصَيْـتَ آثَـارِيْ
يَا مُخْرِجَ الرُّوْحِ مِنْ جِسْمِيْ إِذَا احْتَضَـرَتْ وَفَارِجَ الْكَرْبِ زَحْزِحْنِـيْ عَـنْ النَّـارِ

فذو الرمة يشير إلى سعة علم الله وإحاطته بكل صغيرة وكبيرة ، وقد طلب منه أن يزحزحه عن النار ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ

---

(١) المصدر السابق .

(٢) هو غيلان بن عُقبة بن نهيس وقيل (بُهَيش) بن مسعود العدوي من مضر ، أبو الحارث كنيته ذو الرمة ، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره وأحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته مَيَّة بنت فلان بن طلبة ، ولد سنة ٧٧ هـ ، وتوفي سنة ١١٧ هـ بأصبهان وقيل بالبادية .

انظر : الأعلام ٥ / ١٢٤ ، انظر أيضاً الشعر والشعراء / ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٣) العصر الإسلامي / شوقي ضيف / دار المعارف بمصر / ط٧ / ١٩٦٣ م / ٣٧١ .

عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1] . وقد قدَّم بين يدي دعائه ذكر صفتين لله (**المميت وفارج الكربات**) . وليس من هدف هذه الدراسة استقصاء جميع ما دعت به الشعراء على مرِّ العصور لأن ذلك ليس في طاقتها، بل حسبها الإشارة إلى ورود الدعاء في بيان العربية شعراً ونثراً .

(١) آل عمران / ١٨٥ .

الباب الأول

الدعاء أساليبه ومقاصده في القرآن الكريم

الفصل الأول

أساليب الدعاء في محكم التنزيل

الفصل الأول

أساليب الدعاء في محكم التنزيل

الأساليب : جمع أسلوب ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والأسلوب الطريق والوجه والمذهب ، والأسلوبُ بالضم : الفن ، يقال : أخذ فلانٌ في أساليب من القول ، أي أفانين منه ، ويُجْمع أساليب[١] .

يظهر للمتأمل تنوع أساليب القرآن ، وتغاير صيغه ، وهذا من فريد النظم . حيث نرى في آياته تلوناً في الصيغ ، مما يضفي على المعنى جمالاً يأسر الألباب ، ويشد القارئ ، فيجعله مترقباً - في شوق - متتبعاً لكل ما يأتي به السياق .

نجد أنَّ الدعاء القرآني قائم على أساليب إنشائية متنوعة . إذ أنَّ الدعاء في الأصل صورة من صور الإنشاء الطلبي ، فهو من المعاني التي يخرج عنها الأمر .

وقد أفاض البلاغيون في دراسة صور الإنشاء الطلبي وذلك لتوارد المعاني عليه فهو من الأساليب الغنية ذات العطاء والتأثير[٢] .

ومن الأساليب التي جاء بها الدعاء القرآني ما يلي :

---

(١) اللسان ٦ / ٣١٩ .

(٢) انظر دلالات التراكيب / د. محمد محمد أبو موسى / مكتبة وهبة/ الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م / ١٩٢ .

١ - الدعاء بأسلوب الأمر :

الأمر هو أحد أنواع الإنشاء الطلبي ، ويراد به « طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء »[١] وقيل : « هو طلب الفعل استعلاءً »[٢] وهو كذلك : « استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء »[٣] ومما سبق نلحظ اشتراط « الاستعلاء في الطلب بالأمر أي عد الطالب نفسه عالياً وإن لم يكن في الواقع كذلك ليخرج به الدعاء والالتماس بما هو بطريق الخضوع والتساوي »[٤] .

وقد يخرج الأمر عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية تعرف بمعونة السياق وقرائن الأحوال بسطها البلاغيون في كتبهم[٥] . وما يهمنا هو خروج الأمر إلى معنى الدعاء . فالدعاء هو : « الطلب على وجه التضرع والخضوع نحو قولك (رب اغفر لي)[٦] ويكون من الأدنى إلى الأعلى منزلةً »[٧] .

---

(١) مختصر السعد على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني / ضمن شروح التلخيص / دار الكتب العلمية ٢ / ٣٠٨ .

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني / شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي / المكتبة الأزهرية للتراث / الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م / ٣ / ٨١ .

(٣) الكليات لأبي البقاء الكفوي / تحقيق / عدنان درويش ومحمد المصري / دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط٢ ١٤١٣ هـ - ١ / ٢٩٢ .

(٤) المرجع السابق ١ / ٢٩٥ .

(٥) كالإباحة - التهديد - التعجيز - التسخير - الإهانة - التسوية - التمني - الاحتقار - الالتماس - الدعاء . راجع الإيضاح ٣ / ٨٢ - ٨٦ ، وقد زاد عليها الكفوي (الإرشاد - الإذن - التأديب ...) راجع الكليات ١ / ٢٩٧ - ٢٩٩ .

(٦) الأعراف / ١٥١ .

(٧) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ٢ / ٣٢٠ .

فالتضرع هو القيد الذي اشترطه البلاغيون لعد الأمر دعاءً وبذلك تخرج بعض الصور التي يخلو منها هذا القيد ، ونجد ذلك في قوله تعالى على لسان إبليس : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[١] . فقوله هذا يُظهر مدى تمرده وعصيانه وعناده « لأنه ما طلب الإنظار إلاَّ لتضليل الناس ، وتشعر الفاء في قوله : (فانظرني) بتمرده وتوعده ، كأنه رتب على طرد الله أمراً طلب من أجله الإنظار ، وعندما أجابه إلى ما طلب أفصح عن مراده بقوله : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٢] »[٣] .

أمَّا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور[٤] فقد عدَّ خطاب إبليس لله بصفة الربوبية « تخضعاً وحثاً على الإجابة »[٥] .

ويخرج أيضاً دعاء مشركي مكة : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[٦] .

---

(١) ص / ٧٩ .

(٢) الحجر / ٣٩ .

(٣) الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية / بحث مخطوط بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر (رسالة دكتوراه) / محمد إبراهيم شادي / ١٧٤ .

(٤) محمد الطاهر بن عاشور : رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها ، حيث ولد سنة ١٢٩٦ هـ ، وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ ، له مصنفات مطبوعة من أشهرها : التحرير والتنوير في تفسير القرآن ، مقاصد الشريعة الإسلامية . انظر ترجمته في : الأعلام ٦ / ١٧٤ .

(٥) التحرير والتنوير ١٤ / ٤٨ .

(٦) ص / ١٦ .

فهم لم يدعوه سبحانه تضرعاً وخضوعاً بل تظهر في دعائهم نبرة العناد والاستبعاد لهذا الأمر . إذاً فدعاء إبليس ومشركي مكة على الرغم من صدوره من الأدنى إلى الأعلى لم يعدّ دعاءً لفقده قيد التضرع والخضوع . ومن خلال تتبع آيات الدعاء نرى كثرة الدعاء بأسلوب الأمر حيث جاء أكثر من مائتين وثلاثين مرة .

ولعل السر في مجيء « الدعاء بأسلوب الأمر بدلاً من الأسلوب الخبري[١] للتفاؤل بالاستجابة ، وإظهار الحرص في سرعة استجابته حتى لكأنه متحقق على الفور »[٢] .

و لم ترد في الدعاء من صيغ الأمر المعروفة[٣] سوى صيغتين :

الأولى : فعل الأمر (افعل) وهو أكثر الصيغ وروداً كقوله تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٤] . وقوله على لسان المؤمنين : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٥] وقولهم كذلك : ﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ

---

(١) نحو قولك : رحم الله فلاناً – غفر الله له . وهذا لم يرد في الدعاء القرآني مطلقاً .

(٢) الحوار في القرآن / ١٧٤ .

(٣) صيغ الأمر هي (فعل الأمر نحو (أكرم أخاك) والفعل المضارع المقترن بلام الأمر نحو (ليحضر الرجل) واسم الفعل الدال على الأمر نحو (رويدك) والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو (غفرانك) راجع هامش الإيضاح / تعليق محمد عبد المنعم خفاجي ٣ / ٨١ .

(٤) الشعراء / ٨٤ – ٨٥ – ٨٦ .

(٥) المؤمنون / ١٠٩ .

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1] . وجاءت كذلك على ألسنة المعذبين عند تضرعهم لربهم وهم في نار جهنم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[2]. وقوله : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا﴾[3] وفيها أيضاً قوله تعالى تعليماً لنبيه : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾[4] .

وقد تكون صيغة فعل الأمر غير (افعل) نحو قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5] فتقبّل على وزن (تفعّل) ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[6] . وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[7] .

أمّا الصيغة الثانية – من صيغ الأمر – التي جاء الدعاء القرآني بها فهي المصدر النائب عن فعل الأمر حيث جاء مرة واحدة وذلك في قوله تعالى : ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[8] ، أي (اغفر لي) .

(١) الفرقان / ٧٤ .

(٢) المؤمنون / ١٠٧ .

(٣) فاطر / ٣٧ .

(٤) الإسراء / ٨٠ .

(٥) البقرة / ١٢٧ .

(٦) يوسف / ١٠١ .

(٧) آل عمران / ١٩٣ .

(٨) البقرة / ٢٨٥ .

(٢) – الدعاء بأسلوب النهي :

النهي هو « طلب الكف عن الفعل استعلاء ، وله صيغة واحدة وهي لا تفعل »[١] . وهو كالأمر في أنه قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية[٢] منها (الدعاء) وذلك إذا كان على وجه التذلل والخضوع لله عز وجل وقد جاء الدعاء بأسلوب النهي خمس عشرة مرة من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[٣] ، وقوله أيضاً : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[٤] . وقوله كذلك : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ ﴾[٥] وقوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[٦] .

ومن تتبع أسلوبي الأمر والنهي – عند دلالتهما على الدعاء – تظهر لنا بعض المميزات من أهمها :

١ – قد تأتي صيغة الأمر في الآية منفردة مرة واحدة نحو قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٧] .

---

(١) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ٢ / ٣٢٤ .
(٢) كالتهديد – الالتماس ، التمني ، الإرشاد .
(٣) البقرة / ٢٨٦ .
(٤) آل عمران / ٨ .
(٥) الأنبياء / ٨٩ .
(٦) الممتحنة / ٥ .
(٧) الفاتحة / ٦ .

وقوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[١] ، وقوله كذلك : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[٢] أو تأتي أكثر من مرة كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٣] . فنرى كل فعلٍ بُني على سابقه ، فإفراغ الصبر عليهم مدعاة لتثبيت أقدامهم في أرض المعركة . ولا نتيجة لثباتهم سوى النصر .

ومثل الأمر النهي فقد تأتي صيغة النهي في الآية مرة واحدة منفردة نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤] وقوله كذلك : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[٥] . أو قد تأتي أكثر من مرة نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[٦] .

٢ – قد يتوحد أسلوب الدعاء في الآية الواحدة كأن يكون أمراً أو نهياً. فمن الأول قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ

(١) المؤمنون / ٢٦ – ٣٩ .

(٢) الشعراء / ١٦٩ .

(٣) البقرة / ٢٥٠ .

(٤) الأعراف / ٤٧ .

(٥) الأنبياء / ٨٩ .

(٦) البقرة / ٢٨٦ .

وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[١] . أما الثاني فكقوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٢] .

وقد يذكران معاً وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[٣] . وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٤] . وليس لذكرهما معاً قاعدة معينة في الترتيب فقد يذكر الأمر أولاً ثم يليه النهي وذلك كالآية الأولى ، أو العكس فيبدأ الدعاء بالنهي ثم يتبعه الدعاء بالأمر كالآية الثانية . أو أن تتوالى النواهي وبعدها تتوالى الأوامر كقوله تعالى في آخر سورة البقرة : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ... ﴾[٥] .

٣ - غالباً ما يذكر بعد الدعاء بهاتين الصيغتين ما يقوي الدعاء ويؤكده في توافق تام ونسج محكم من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٦] .

---

(١) الأحقاف / ١٥ .

(٢) يونس / ٨٥ .

(٣) آل عمران / ١٩٤ .

(٤) آل عمران / ٨ .

(٥) البقرة / ٢٨٦ .

(٦) آل عمران / ٨ .

فجملة : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ جاءت تذييلاً مؤكداً لمضمون الجملة قبله . ومثله قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[1] وقوله كذلك : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] . فجملتا ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ و ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ جاءتا تأكيداً لما قبلها .

٤ - إن كثرة الدعاء بأسلوب الأمر قد ترجع - والله أعلم - إلى خفة النطق بفعل الأمر دون النهي الذي في صيغته (لا تفعل) شيءٌ من الثقل ، ومعلوم أنَّ النفس الداعية الراجية تحرص على بث حاجاتها في أسلوب سهل واضح مَرْعِيٌّ فيه الخفة والبعد عن التعقيد ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3] . فالفعل (افرق) أخف وأسرع في النطق من الفعل (لا تذرني) كما في قوله تعالى على لسان زكريا : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[4]. والأمثلة على ذلك واضحة جلية .

---

(١) الفرقان / ٦٥ .

(٢) التحريم / ٨ .

(٣) المائدة / ٢٥ .

(٤) الأنبياء / ٨٩ .

(٣) – الدعاء بأسلوب الخبر :

جاء الدعاء بالأسلوب الخبري في تسع آيات عبَّر الداعون من خلاله عن حاجاتهم وللأسلوب الخبري مزية ينفرد بها دون غيره من أساليب القول " الإنشائية " إذ أنَّ المحرك له والباعث عليه عاملٌ نفسي خاصٌ. فنفسية الداعي المرهفة هي التي جعلته يعبر عن حاجته بهذا الأسلوب الرقيق مظهراً تأدبه ، مبدياً تفاؤله في تحقق مطلوبه فجاء الأمر – أي الدعاء – « بلفظ الخبر الحاصل تحقيقاً لثبوته ؛ وأنه مما ينبغي أن يكون واقعاً ولابد ، وهذا هو المشهور »[١] . إذاً فالخبر قد يقع موقع الإنشاء « إما للتفاؤل ، أو لإظهار الحرص في وقوعه – والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين – أو للاحتراز عن صورة الأمر ، كقول العبد للمولى إذا حول عنه وجهه : ينظر المولى إلى ساعة . أو لحمل المخاطب على المطلوب ، أن يكون المخاطب ممن لا يحب أن يكذب الطالب . أو لنحو ذلك »[٢] .

ونجد أنَّ الدعاء بأسلوب الخبر قد التزم الجملة الاسمية للتعبير عن حاجات الداعين ومطالبهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] . فقوله عليه السلام : لا إله إلاَّ أنت ... يُعَدُّ دعاءً وإن لم يكن ذلك ظاهراً « أي وإن لم يكن بأسلوبي الدعاء المشهورين " الأمر والنهي " وإنما جاء بالأسلوب الخبري ، والذي دلَّ

(١) البرهان في علوم القرآن / لبدر الدين الزركشي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار المعرفة بيروت – لبنان ، ٣ / ٣٤٩ .

(٢) الإيضاح ٣ / ٩٣ .

(٣) الأنبياء / ٨٧ .

أنه دعاء قوله تعالى بعده : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] . وكذلك ما جاء في دعاء سيدنا أيوب عليه السلام : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2] .

فهو عليه السلام لم يدع الله صراحة بل عرض حاجته في أدب وأطلقها على حياءٍ من الله فعرَّض وكنَّى عن طلبه - رفع البلاء والضرِّ عنه - بالخبر دون الانشاء . جاءت الآية بعد قوله هذا فدلَّت على أن ما صدر منه هو دعاءٌ وتضرع قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[3] .

ومن أمثلة الدعاء بأسلوب الخبر ما جاء حكايةً عن موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[4] . وقوله تعالى على ألسنة أهل الجنة : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5] .

---

(١) الأنبياء / ٨٨ .

(٢) الأنبياء / ٨٣ .

(٣) الأنبياء / ٨٤ .

(٤) القصص : ٢٤ .

(٥) يونس / ١٠ .

ومنه ما جاء في قوله تعالى تعليماً لرسوله كيفية الدعاء عند إعراض قومه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] .

(٤) – الدعاء بأسلوب الاستفهام :

جاء الدعاء بأسلوب الاستفهام في موضعين والاستفهام في حقيقته يستعمل (لطلب حصول صورة الشيء في الذهن)[2] وقيل : هو (طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل)[3] . وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية تفهم من السياق[4] . فيخرج للدعاء وهو « كالنهي إلاّ أنه من الأدنى إلى الأعلى »[5] . منه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : (أتهلكنا بما فعل السفهاء مِنّا ...)[6] أي لا تهلكنا[7] .

---

(١) التوبة / ١٢٩ .

(٢) مختصر السعد / ومواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢ / ٢٤٦ .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها / د. أحمد مطلوب / مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ١ / ١٨١ .

(٤) فقد يخرج إلى (التهكم - الإنكار - الإثبات - التقرير - التأكيد - التثبيت - التحذير - التحقير - التعظيم - التعجب - التفجع - التفخيم - التمني - التهكم ...... وغيرها راجع معجم المصطلحات البلاغية من ص ١٨٣ إلى ص ١٩٤ .

(٥) معجم المصطلحات ١ / ١٩٣ .

(٦) الأعراف / ١٥٥ .

(٧) راجع فتح القدير / للشوكاني / عالم الكتب / بدون ٢ / ٢٥٢ ، والأساليب الإنشائية / صبّاح عبيد دراز / مطبعة الأمانة بمصر / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

(فهذا استفهام على سبيل الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف وتذلل)[(١)]. ومثله قوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[(٢)] . أي أخرجنا .

من ذلك كلِّه نجد أن :

١ - أكثر أساليب الدعاء وروداً في القرآن الكريم الدعاء بأسلوب الأمر يليه النهي ثم الخبر وأقلّها الدعاء بأسلوب الاستفهام .

٢ - الدعاء بالأمر والنهي قد يجتمعان في آية واحدة . في حين أن الدعاء بالخبر لا يأتي إلاّ منفرداً في الآية .

٣ - الدعاء بالأمر والنهي - إذا اجتمعا - ليس لهما ترتيباً واحداً يُلتزمُ في كل الآيات . بل قد يذكر الأمر أولاً يليه النهي أو العكس . وقد تتتابع الأوامر ثم تأتي بعدها النواهي أو العكس كما سبق توضيحه .

٤ - الدعاء بأسلوب الخبر يعتمد في الأساس على الناحية النفسية من إظهار للتفاؤل والحرص على الاستجابة ، والتأدب والحياء مع الله في عدم التصريح بالطلب أو إظهاره في صورة فعل الأمر أو النهي .

---

(١) البحر المحيط / لأبي حيان الأندلسي الغرناطي / دار الفكر ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ٥ / ١٨٩ .

(٢) غافر / ١١ .

الفصل الثاني

أصناف الداعين

الفصل الثاني

أصناف الداعين

من الممكن أن توصد أمام المرء جميع الأبواب ، ولكن يبقى بابٌ واحدٌ مفتوح على مصراعيه دائماً ، لا يغلق أبداً ، إنه باب المولى سبحانه وتعالى ، رب العباد جميعاً ترفع رأسك تناجيه وتخاطبه ، وتتضرع إليه دونما وسيط ، ومن فضله علينا أن جعل الدعاء والمناجاة حقاً مشروعاً للجميع بلا استثناء ، ويبقى الفيصل في ذلك هو القبول أو الرفض .

فمنذ أن أوجد الله الخليقة كان الدعاء بما فيه من إلحاحٍ ورجوع وإنابة ، وتضمينه لحاجات الدنيا والآخرة ، كان دليلاً ظاهراً على العبودية الحقة لله . ولا مراء أن جميع عباد الله نبيهم وعابدهم ، تقيهم وفاجرهم ، يتجهون بالضراعة لله سبحانه وتعالى وإن اختلفت مقاصدهم وغاياتهم .

والمتأمل لآيات الدعاء يجد الداعين متحدي الوجهة إلى رب الأرباب سبحانه وتعالى يضرعون إليه ويدعونه كما أمرهم بذلك قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] ، فامتثل الداعون لهذا الأمر ، واتجهوا إليه ضارعين متذللين ، فهو نعم المعين وخير مجيب .

وبتأمل الدعاء القرآني يمكن تصنيف الداعين على النحو الآتي :

(١) غافر / ٦٠ .

أولاً : الداعون في الدنيا :

أ - آدم وحواء عليهما السلام :

آدم عليه السلام أبو البشرية اتجه ضارعاً إلى ربه طالباً غفرانه لما ارتكبه من ذنب هو وزوجه عند أكلهما من الشجرة المحرمة التي نهاهما الله عنها في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١] . ولكن كان الشيطان حريصاً على إغوائهما فلم يستجيبا لأمر الله قال تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾[٢] . عندها ندم آدم عليه السلام وزوجه واتجها إلى الله في ذل وانكسار واعتراف بالذنب واصفينه بالظلم في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٣] وذلك عندما « قال آدم: أي ربِّ أرأيت إن تبت واستغفرت، قال إذاً أدخلك الجنة فقالا - قولهما السابق - وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه »[٤] .

ب - الأنبياء والرسل :

لاشك أنَّ الأنبياء والرسل هم السُّرُج المضيئة التي تنير ظلام البشرية تحمل رسالة السماء لتبلغها لأهل الأرض ، حياتهم عمل دائب ، وصبرهم لا

---

(١) البقرة / ٣٥ .

(٢) البقرة / ٣٦ .

(٣) الأعراف / ٢٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم / لابن كثير دار الفكر ٢ / ٢٠٦ .

ينقطع . فهم من أشد الخلق تعذيباً واظطهاداً ، تقف أمامهم قوى الشر تحاول جاهدة صرفهم عن مهمتهم الكبرى ، بل يصل الأمر بهم إلى حد التآمر والقتل ، ذلك حينما يصل الإنسان إلى مرحلة الجحود والاغترار بالنفس ونسيان الخالق سبحانه في غمرة الجاه والسلطان متجاوزاً ذلك إلى ما هو أخطر عند ادعاء التَّألُّه واستعباد الخلق من دون الله كما فعل فرعون . فيغتر بذلك الأتباع ، حينها يسفر الظلم عن وجهه في عنجهية وطغيان ، وأهل الحق والإيمان قد قلَّتْ حيلتهم وأنصارهم فما هنالك ملجأ ولا مخرج من ذلك إلاَّ بالرجوع إلى الله والاتجاه إلى مفرج الكربات ومعين ذوي الحاجات فهو وحده بيده إهلاك أعدائه الذين يقفون حائلاً دون وصول نور الحق إلى العباد في أرضه سبحانه وتعالى . فدعا كل نبي ربَّه عارضاً حاجته في أسلوب متفرد من البلاغة . أورد القرآن بعضاً من أدعيتهم وهم حسب ترتيبهم الزمني[١] كالآتي :

١ - نوح عليه السلام :

نوح عليه السلام أول رسول بُعث إلى أهل الأرض ، بعثه الله سبحانه وتعالى عندما عُبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الكفر والضلال ، وقد كانت دعوته مثالاً حيَّاً للدعوة إلى الله على بصيرة ، ومثالاً يجب أن يقتدي به دعاة اليوم . فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، عرض فيها دعوته بشتى الطرق والوسائل ولكن دون جدوى جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا

---

(١) اعتمدت في ترتيبهم تاريخياً على كتاب قصص الأنبياء لابن كثير / تحقيق عبد القادر أحمد عطا / دار إحياء التراث العربي / الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / ١ / ٣٣٤ .

فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[1] .

لكن ذلك كله لم يغير من إعراضهم وصدهم شيئاً . بل استمروا في كفرهم حينها انقطعت الحجة واستحقوا العذاب فدعا عليهم عليه السلام بقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[2] . وقوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[3] . وقوله كذلك : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾[4] فاستجاب له ربه وأغرقهم بالطوفان وأنجاه ومن آمنوا معه . ذكرت قصته عليه السلام في عدّة مواضع من القرآن ونزلت سورة باسمه كذلك[5] .

٢ - هود عليه السلام :

أُرسل هود عليه السلام إلى قوم عاد قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[6] . وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وقد لقي من الإعراض والتكذيب ما لقيه نوح عليه السلام . فقومه عتاة متمردون، وجفاة كافرون،

---

(١) نوح (٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩) .

(٢) نوح / ٢٤ .

(٣) نوح / ٢٦ .

(٤) نوح / ٢٨ .

(٥) انظر قصص الأنبياء ١ / ١٠٤ .

(٦) الأعراف / ٦٥ .

كذبوه عليه السلام وخالفوه وتنقصوه[١] فتضرع لربه قائلاً : ﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[٢] .

٣ - إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

إبراهيم عليه السلام نبي الله وخليله ، ذكرت قصته في سور عديدة ، كان عليه السلام حليماً عطوفاً ، كثير الدعاء له ولأهله ولذريته من بعده ، من شفقته وعطفه دعاؤه لأبيه رغم كفره وإعراضه قال تعالى : ﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٣] وذلك لأنه قد وعده بالاستغفار له كما جاء في قوله : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾[٤].

وقد استجاب لأمر الله بإسكان ذريته عند البيت المحرم (مكة) فتضرع لربه في دعاء طويل مظهراً شدة ضعفه وحاجته ونراه عليه السلام يشرك إسماعيل في الدعاء كما أشركه في البناء . قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ ... ﴾[٥]. وقوله تعالى كذلك: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ

---

(١) انظر قصص الأنبياء ١ / ١٥٤ .

(٢) المؤمنون / ٣٩ .

(٣) الشعراء / ٨٦ .

(٤) مريم / ٤٧ .

(٥) البقرة / ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ .

ٱلْأَصْنَامَ﴾[١] . وقوله أيضاً : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢] .

٤ - لوط عليه السلام :

أحد أنبياء الله عز وجل بعثه إلى قومٍ « ابتدعوا فاحشة[٣] لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وكانوا من أفجر الناس وأسوأهم طوية ، وأردأهم سريرة وسيرة »[٤] .

فأخذ يدعوهم ، ولكن هيهات أن يجيبوا داعي الله ، وهمُّوا بإخراجه قال تعالى على لسانهم : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٥] « فلما طال تماديهم في غيِّهم ولم ينزجروا دعا عليهم لوطٌ وقال : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٦] »[٧] .

---

(١) إبراهيم / ٣٥ .

(٢) الشعراء / ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ .

(٣) اللواط .

(٤) قصص الأنبياء ١ / ٢٦٨ .

(٥) النمل / ٥٦ .

(٦) بصائر ذوي التمييز ٦ / ٥٦ .

(٧) العنكبوت / ٣٠ .

٥ - يوسف عليه السلام :

هو يوسف بن يعقوب وهبة الله شطر الحسن كما جاء في حديث الإسراء : « فمررت بيوسف وإذا هو أعطي شطر الحسن »[١] . فكان ذلك سبباً في تعلق امرأة العزيز به ، ومراودتها إيّاه ، وكان نساء المدينة « قد حرضنه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين في سورة يوسف : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٢] »[٣] .

٦ - أيوب عليه السلام :

هو ذلك العبد الصابر المحتسب الذي ابتلاه الله في جسده حتى عافه القريب والبعيد ، ولكنه ظلّ قريباً من ربّه يذكره ويدعوه ، حتى فرّج الله ما به من البلاء ، وأبدله الصحة بعد المرض ، والغنى بعد الفقر ، قال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٤] . فهو « لم يدع صراحة حتى لا يتهم نفسه بشيء من الجزع ، إنه مقام عالٍ لنبي مقرب ، اكتفى بالتعريض المهذب »[٥] .

---

(١) قصص الأنبياء ١ / ٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) يوسف / ٣٣ - ٣٤ .

(٤) الأنبياء / ٨٣ .

(٥) الأساليب الإنشائية / ٦٣ - ٦٤ .

٧ - يونس عليه السلام :

ذو النون الذي حبسه الله في ظلماتٍ ثلاث « قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل »[١] .

« وكان يونس ينوح على نفسه في جوف الحوت ، ويقول : إلهي من الجبال أنزلتني ، ومن بين العباد أخرجتني ، وفي البحار صيرتني ، وفي بطن الحوت حبستني ، وبشؤم الزَّلَّةِ ابتليتني ، فلو نجيتني من سجنك لأعبدنك عبادةً لم يعبدك أحد من العالمين ، ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] »[٣] .

٨ - موسى عليه السلام :

كليم الله ، الذي أرسله إلى فرعون ، « سئل النبي ﷺ ما بال الله أكثر ذكر موسى في القرآن ؟ فقال : لأن الله يحبه ، ومن أحبَّ شيئاً أكثر ذكره »[٤] .

وموسى عليه السلام لقي من الأمور العظام ما لقي ، حتى من قومه ، فقد عبدوا العجل بعد أن منَّ الله عليهم بالخلاص من فرعون وقومه . وقد دعا ربه طالباً عونه للقيام بمهمة التبليغ على أكمل وجه فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ

---

(١) قصص الأنبياء ١ / ٣٩٤ .

(٢) الأنبياء / ٨٧ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ٦ / ٥٤ .

(٤) بصائر ذوي التمييز ٦ / ٦١ .

ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[1] .

ولكن بعد أن وجد من الإعراض والعناد ما وجد دعا على فرعون وقومه في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[2] .

٩ – سليمان عليه السلام :

أتاه الله الملك ، وسخَّر له الريح ، وعلَّمه منطق الطير ، وجعل جنوده من الثقلين ، فدعا الله بأن لا يكون هذا الملك لأحد من بعده ، قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[3] .

١٠ – زكريا عليه السلام :

دعا ربَّه طالباً الذُّرِّيَّة ، مع علمه أنَّه شيخٌ كبير وأنّ زوجه عاقرٌ لا تلد ، إلاَّ أنه أخذ يناجي ربه ويدعوه خفيةً قال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى

(١) طه / ٢٥ – ٣٢ .
(٢) يونس / ٨٨ .
(٣) ص / ٣٥ .

وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1] . فاستجاب الله له ورزقه بيحيى سيداً وحصوراً .

١١ - عيسى عليه السلام :

كلمة الله ألقاها إلى مريم ، ورسوله إلى بني إسرائيل ، أجرى الله على يديه من المعجزات ، كالتكلم في المهد ، وإبراء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى - بإذن الله - مما جعل بني إسرائيل يتخذونه وأمه إلهين . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾[2] .

ومن معجزاته أيضاً المائدة التي دعا ربّه أن ينزلها على قومه كما طلبوا منه، لتكون دليلاً على نبوته . فقال : « اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين »[3] .

١٢ - محمد ﷺ :

غالباً ما يُصدَّر دعاءه بالفعل (قل) ، لأنه تعليمٌ من الله عز وجل لرسوله كيفية الدعاء . والأمر للرسول أمرٌ لأمته أيضاً قال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ

---

(١) مريم / ٢ - ٦ .

(٢) المائدة / ١١٦ .

(٣) المائدة / ١١٤ .

حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2] .

جـ - المؤمنون :

عرض القرآن الكريم لعدد من أدعية أهل الإيمان ، الذين اتجهوا إلى الله عز وجل في تذلل وخشوع ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، مظهرين شدة حاجتهم إلى عونه ونصره فجمعهم الإيمان ووحد وجهتهم إلى رب الأرباب، يطرقون بابه في كل حاجة من حوائجهم موقنين بالإجابة . وفيما يلي نذكر نماذج لأدعيتهم .

١ - الذين آمنوا مع شعيب عليه السلام :

من المعلوم أنَّ أتباع الأنبياء ، يتعرضون للأذى كأنبيائهم تماماً ، لا فرق بينهم في ذلك بل إنهم يخصونهم بمزيدٍ من العذاب طمعاً في صرفهم عن دين الله . حينها لا يملكون سوى الالتجاء إلى الله عز وجل قائلين : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[3] .

٢ - الذين آمنوا مع موسى عليه السلام :

نرى ابتهالهم وتضرعهم إلى الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4] .

---

(١) التوبة / ١٢٩ .

(٢) المؤمنون / ١١٨ .

(٣) الأعراف / ٨٩ .

(٤) يونس / ٨٥ .

٣ - السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام :

آمن سحرة فرعون برب موسى بعدما دحض عليه السلام حجتهم وأظهر كذبهم ، وعرفوا أنه الحق من عند ربهم ، فخرُّوا لله سجداً ، ولكن فرعون لم يرض بذلك وأنكر عليهم فعلتهم تلك وأمر بتنكيلهم ، حينها دعوا الله عز وجل قائلين : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[١] .

٤ - أصحاب الكهف :

فتيةٌ آمنوا بربهم ، وخافوا الافتتان في دينهم ، فهربوا إلى الكهف ، ودعوا الله ربهم قائلين : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴾[٢] فلبثوا فيه عدداً من السنين كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[٣] .

٥ - جنود طالوت :

هم الذين ثبتهم الله وقاتلوا جالوت ، وقد طلبوا من الله النصر في ضراعة قال تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٤] .

---

(١) الأعراف / ١٢٦ .

(٢) الكهف / ١٠ .

(٣) الكهف / ٢٥ - ٢٦ .

(٤) البقرة / ٢٥٠ .

٦ - الحواريون :

هم أنصار عيسى عليه السلام وتلاميذه دعوا الله قائلين : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[١] .

٧ - رهبان النصارى :

هم الذين فاضت أعينهم بالدمع عند سماعهم القرآن ، لمعرفتهم بأنه الحق من ربهم ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[٢] .

٨ - امرأة عمران :

أم مريم البتول والتي دعت ربها قائلةً : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[٣] .

٩ - امرأة فرعون :

آسيا بنت مزاحم ، التي ضربها الله مثلاً للذين آمنوا ، فقد كانت زوجةً لفرعون ، فدعت ربها وتضرعت إليه قال تعالى : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤] .

---

(١) آل عمران / ٥٣ .

(٢) المائدة / ٨٣ .

(٣) آل عمران / ٣٦ .

(٤) التحريم / ١١ .

١٠ - الرِّبيون :

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١] .

١١ - المستضعفون :

قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[٢] .

١٢ - عباد الرحمن :

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[٣] .

ومما جاء على لسان أهل الإيمان دون تحديد لشخصهم قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٤] . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى

---

(١) آل عمران / ١٤٧ .

(٢) النساء / ٧٥ .

(٣) الفرقان / ٦٥ .

(٤) الفاتحة / ٥ - ٦ .

ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[١] . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢] . وكذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٣] . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٤] . وقوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾[٥] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٧] .

---

(١) البقرة / ٢٠١ .

(٢) البقرة / ٢٨٦ .

(٣) آل عمران / ٨ .

(٤) آل عمران / ١٦ .

(٥) آل عمران / ١٩٣ .

(٦) المؤمنون / ١٠٩ .

(٧) الأحقاف / ١٥ .

ثانياً - في الآخرة :

أ - الملائكة :

الذين يحملون عرش الرحمن ، يسبحونه ، ويستغفرون للذين آمنوا ويتشفعون لهم عند ربهم قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[١] .

ب - المُنَعّمُون :

الذين آمنوا بالله ، وصَدَّقوا رُسله ، فجازاهم بالإحسان إحساناً ، وأدخلهم جنات النعيم قال تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] . وعندما يرون أهل النار وماهم فيه من العذاب المهين يقولون : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] .

---

(١) غافر / ٧ - ٨ - ٩ .

(٢) يونس / ١٠ .

(٣) الأعراف / ٤٧ .

وهؤلاء هم الذين أخبر الله عنهم بأن نورهم يسعى بين أيديهم وأنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1] .

جـ - المُعَذَّبون :

الدعاء في الآخرة قد صدر في معظمه من المعذبين ، الذين يدعون ربهم ، وقد امتزج دعاؤهم بصراخهم ليخلصهم مما هم فيه من العذاب ، بعد أن تعالوا عن دعائه في الدنيا ، ولكن هيهات أن يُجاب دعاؤهم . قال تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾[3] .

وكل أمَّة تدخل النار فإنها تلعن أختها لاعتقادهم أنَّهم السبب في ضلالهم قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾[4] بل إنهم يلقون اللوم على كبرائهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾[5] .

---

(١) التحريم / ٨ .

(٢) المؤمنون / ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) فاطر / ٣٧ .

(٤) الأعراف / ٣٨ .

(٥) الأحزاب / ٦٧ - ٦٨ .

الفصل الثالث

مقاصد الدعاء

الفصل الثالث

مقاصد الدعاء

المقاصد : جمع مَقْصِد ، « وهو موضع القَصْد »[١] والقصد هو إتيان الشيء ، تقول : قصدته ، وقصدت له ، وقصدت إليه ...[٢] .

ويمكن للقارئ أن يلاحظ تنوع المقاصد – المطالب – في الدعاء القرآني نظراً لتنوع الداعين ، فمع اتحادهم في التوجه إلى الله عز وجل إلاَّ أنه لم تتوحد مطالبهم ، وهذه المطالب هي :

أ – مطالب دنيوية .

ب – مطالب أخروية .

أولاً : المطالب الدنيوية :

مما لا شك فيه أن قصد الداعي من دعائه منبثق عن حاجته ، وحاجات الداعين مختلفة ومتنوعة ، وهي في معظمها مطالب دنيوية ، كيف لا ؟ وقد خُلق من ضعفٍ ، وكُلِّف بعمارة الأرض ، تلك العمارة التي تستدعي أموراً لا بد من توافرها له حتى يقوم بهذه المهمة خير قيام .

---

(١) المعجم الوسيط / إبراهيم أنيس وآخرون / ط٢ / المكتبة الإسلامية استانبول / تركيا / بدون / ٢ / ٧٣٨ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ١١ / ١٧٩ .

وانظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزأبادي ٤ / ٢٧١ .

ولا يخلو الدعاء الدنيوي من التباين ، فدعاء الأنبياء يختلف عن دعاء عباد الرحمن وهؤلاء يختلف دعاؤهم عن دعاء أهل الشرك والضلال ، لاختلاف العقيدة واختلاف المهمة التي يؤدونها في هذه الحياة .

ومن المطالب الدنيوية التي ترددت على ألسنة الداعين ما يلي :

١ - الأمن والرزق :

الأمن مطلب أساسي ، لولاه لما أُسِّسَتْ المدن ولا أقيمت الحضارات ، وقد طلبه الخليل عليه السلام من ربه عندما وضع زوجه هاجر ووليدها في وادٍ قفرٍ : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ... ﴾[١] وأتبعه بطلب الرزق فهو مستتبع له ، لأن الأمن من شأنه أن يرسي دعائم التجارة والاقتصاد متى ما ساد في منطقة معينة قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ...﴾[٢] وقال سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[٣] وقال أيضاً : ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[٤] . وقد طلب الرزق موسى عليه السلام عند وصوله إلى أرض مدين هرباً من أرض مصر[٥] بعد أن أخذ الجوع منه كل مأخذ قائلاً :

---

(١) إبراهيم / ٣٧ .

(٢) البقرة / ١٢٦ .

(٣) إبراهيم / ٣٥ .

(٤) إبراهيم / ٣٧ .

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير ٢ / ١٦ .

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾[١] . ومن الرزق المطلوب ما جاء على لسان عيسى عليه السلام حين طلبه من ربه دلالة على صدق نبوته، واستجابة لما طلبه أتباعه في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[٢] فكانت المائدة دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على صدق نبوته .

٢ - الولد والذرية الصالحة :

متى ما توافر الأمن والرزق تتطلع النفس البشرية إلى أبعد من ذلك بما جبلت عليه من حب المال والبنين قال تعالى : ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾[٣] . وقوله تعالى : ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[٤] .

وقد جاء طلب الولد والذرية على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٥] ، وكذلك على لسان زكريا عليه السلام الذي تاقت نفسه إلى الولد ليرثه ويرث من آل يعقوب فدعا ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾[٦] و﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٧] وقد « جاء الطلب بلفظ :

---

(١) القصص / ٢٤ .

(٢) المائدة / ١١٤ .

(٣) الكهف / ٤٦ .

(٤) التكاثر / ١ .

(٥) الصافات / ١٠١ .

(٦) الأنبياء / ٨٩ .

(٧) آل عمران / ٣٨ .

هب، لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً للواهب »[1] ونرى الأنبياء في طلبهم للذرية يقرنون الدعوة بصلاحها كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾[2] رغبة منهم في الكمال وتمام الخير ، لأن الولد الصالح من مباهج الدنيا والآخرة قال عليه السلام فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاثٍ صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[3] .

وقد حرص نوح عليه السلام على هداية ابنه ولكنه عندما عجز عن رد أمر الله ، قال : ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[4] .

٣ – النصرة :

« النصرة : حُسن المعونة »[5] ومن أحسن من الله معيناً ؟ يقف بجوار عبده في شدته ورخائه ويلحظ المتأمل لآيات الدعاء أن أكثر الفئات طلباً للنصرة هم الأنبياء ، لما يلقونه من تكذيب أقوامهم ، وإعراضهم عن الحق قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ

---

(١) البحر المحيط ٣ / ١٢٦ .

(٢) الأحقاف / ١٥ .

(٣) مسلم في صحيحه / كتاب الوصية ٣ / ١٢٥٥ ، ورواه أيضاً : أبو داود في الوصايا باب ما جاء في الصدقة عن الميت ٣ / ١١٧ ، الترمذي في الأحكام باب في الوقف ٣ / ٦٥١ وقال: حسن صحيح . كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) هود / ٤٧ .

(٥) لسان العرب / مادة نصر ٤ / ١٦٠ .

فَٱنتَصِرْ ﴾[١] « أي أنصر . وإنما قال انتصر و لم يقل انصر تنبيهاً أن ما يلحقني يلحقك من حيث إني جئتهم بأمرك فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك »[٢] . وعندما زاد إعراض قومه وصدهم قال : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[٣] ، وهذا المطلب ورد أيضاً على لسان هود عليه السلام ، عندما لقي التكذيب من قومه . ومعلوم أن من عادة البشر في كل عصر وأوان عندما يرسل إليهم ربهم منقذين يخرجونهم من الظلمات إلى النور . نرى الفئة الظالمة تحاربهم بكل قوة ولهذا يلجأ الأنبياء إلى طلب نصر الله وعونه قال تعالى على لسان هود : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[٤] .

وممن دعا بذلك أيضاً لوط عليه السلام بعدما استشرى في قومه الفساد حتى كان كالداء العضال الذي لا شفاء منه ، فرغم محاولاته عليه السلام دعوتهم وإصلاحهم فقد عجز في استمالة قلوبهم إلى الطريق السوي ، فلجأ إلى ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٥] ونعتهم بالمفسدين لعِظم جرمهم - وهو اللواط - حيث ابتدعوه وجعلوه سنة فيمن بعدهم إلى يومنا هذا وفي هذا فساد عظيم .

أمَّا موسى عليه السلام فكان أشد ما يكون حاجةً إلى نصرة ربِّه فقد كلَّفه الله أن يذهب إلى جبَّار من جبابرة الأرض - فرعون مصر - ليدعوه

---

(١) القمر / ١٠ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٥ / ٦٩ .

(٣) المؤمنون / ٢٦ .

(٤) المؤمنون / ٣٩ .

(٥) القمر / ١٠ .

إلى الإيمان بالله عز وجل ، عندها أحس عليه السلام عِظم هذا الأمر فدعا ربَّه قـائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾[1] .

ثم نراه يعلل خوفه من لقاء فرعون بقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسًا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[2] .

ومما زاد الأمر صعوبة عليه ، ما كان يعانيه من عقدة لسانه ، وعدم قدرته على المحاجة والبيان ، فنراه يطلب من ربه أن يَحُلَّ هذه العقدة بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾[3] .

وقد جاء طلب النصرة على لسان المؤمنين بقولهم : ﴿ فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[4] . ونرى المستضعفين في الأرض يطلبون من الله تسخير من يحسن إليهم ويلي أمرهم وينصرهم فيعيد لهم ما سلبه الطغاة فهم بقولهم : ﴿ وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[5] .

---

(١) الشعراء / ١٢ - ١٣ .

(٢) القصص / ٣٣ - ٣٤ .

(٣) طه / ٢٥ - ٣٢ .

(٤) البقرة / ٢٨٦ / (وانصرنا) - آل عمران / ١٤٧ .

(٥) النساء / ٧٥ .

وطلب النصرة أمرٌ عظيم يعلّمه الله لنبيه ويحثه على طلبه منه بقوله :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾[١] .

٤ - النجاة من أهل الظلم والطغيان وأعمالهم :

يحظى أهل الظلم في كل زمان ومكان بالقوة والسيادة ، ويقفون دوماً في وجه الأنبياء والمصلحين ، يحاولون بشتى الطرق طمس الحقائق وصرف الناس عن اتباع الحق ، فمتى ما تعاظمت هذه الأيادي الظالمة مُحاولةً إجهاض دعوة التوحيد ، نرى طلب النجاة أمراً لا مندوحة عنه ، حتى لو استدعى ذلك طلب الخروج والهجرة من أرض إلى أخرى نجد ذلك في قول المستضعفين : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾[٢] يقصدون بها مكة ، فعلى الرغم مما ذاقوه من تعذيب قريش وبطشها نلمح مزيد تأدبٍ في دعائهم من خلال إسناد الظلم إلى أهل القرية لا إليها كما جرت عادة القرآن حين يتحدث عن القرى وفي هذا الصدد يقول ابن المنيِّر[٣] ولعله أول من أشار إلى هذا الملمح : إنَّ « كل قرية ذكرت في الكتاب العزيز فالظلم ينسب إليها بطريق المجاز كقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً

---

(١) الإسراء / ٨٠ .

(٢) النساء / ٧٥ .

(٣) هو أحمد بن محمد بن منصور : من علماء الإسكندرية وأدبائها ، ولي قضاءها وخطابتها مرّتين له تصانيف منها : الانتصاف من الكشاف ، تفسير حديث الإسراء ، وولد سنة ٦٢٠ هـ ، وتوفي سنة ٦٨٣ هـ .

انظر ترجمته في : الأعلام ١ / ٢٢٠ .

﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ ... وأما في هذه القرية في سورة النساء فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة ، لأن المراد بها مكة فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها »[١] .

وقد طلب موسى عليه السلام من ربه أن ينجيه من القوم الظالمين بقوله : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] وكذلك ورد على لسان محمد ﷺ : ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] وقول من آمن مع موسى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٤] وربما يجتمع الكفر والإيمان معاً ، لكن لكل واحدٍ منهما عالمه الخاص به فلا يتأثر بالآخر ، بل نرى الإيمان يحاول الحفاظ على ذاته من وطأة الكفر وجبروته ، فيفر بصاحبه إلى الله ، طالباً النجاة من الظلم والخلاص من أهل الكفر كما فعلت آسيا امرأة فرعون حيث عذَّبها عندما أحس منها الإيمان فدعت ربها قائلة ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٥] . « وتعني بالعمل الكفر . وقيل : من عمله من عذابه وظلمه وشماتته . وقال ابن عباس : الجماع »[٦] .

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير بهامش تفسير الكشاف ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان / الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ١ / ٥٢٤ .

(٢) القصص / ٢١ .

(٣) المؤمنون / ٩٤ .

(٤) يونس / ٨٦ .

(٥) التحريم / ١١ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن / لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي / تحقيق - أحمد عبد العليم البردوني/ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م / ١٨ / ٢٠٣ .

٥ - طلب الملك :

جاء طلب الملك على لسان سيدنا سليمان عليه السلام في قوله : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[١] ولم يكن سؤاله عليه السلام « طلباً لنفس الدنيا ؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك ، فأجيب نوح فأهلك من عليها ، وأعطى سليمان المملكة »[٢] أمّا قوله : ﴿ لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾[٣] « أي أن يسأله فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة ... »[٤] .

٦ - طلب الهلاك والعذاب للكافرين :

جاء الدعاء على الكافرين بالهلاك والعذاب على لساني نوح وموسى عليهما السلام فهما من أشد الرسل معاناة مع أقوامهم . أمّا نوح عليه السلام فقد دعا على قومه بزيادة الضلال : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾[٥] وبزيادة الهلاك : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾[٦] ودعا

---

(١) ص / ٣٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن / ١٥ / ٢٠٤ .

(٣) ص ٣٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٠٤ .

(٥) نوح / ٢٤ .

(٦) نوح / ٢٨ .

كذلك بقوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[١] وعلل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[٢] . فدعاؤه عليهم بعدما يئس من اتباعهم له وبعد أن جاء الوحي قائلاً : ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾[٣] .

أمّا موسى عليه السلام فدعا على فرعون وقومه بقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[٤]. فكان طلبه إهلاك أموالهم والدعوة بقسوة قلوبهم فلا تنشرح للإيمان أبداً ، وفعلاً لم يؤمن فرعون إلاّ حينما رأى الغرق ولكن لم ينفعه ذلك .

٧ – شكر النعمة والقدرة على العمل الصالح :

« النعمة في القرآن خاصة بما أنعم الله به على عباده في الدنيا لا الآخرة... سواء أكانت خيراً مادياً كالمال والجاه والصحة أو هداية وإرشاداً إلى الصواب والتوفيق للعمل به »[٥] .

---

(١) نوح / ٢٦ .

(٢) نوح / ٢٦ .

(٣) هود / ٣٦ .

(٤) يونس / ٨٨ .

(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعني / مكتبة وهبة – القاهرة / ط١ / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م – ١ / ٢٨٧ .

وهذه النعم لابد أن يقابلها المنعَم عليه بالشكر حتى تدوم بل تزيد قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[١] . وقد جاء هذا المطلب على لسان سيدنا سليمان عليه السلام الذي وهبه الله عز وجل نعماً عظيمة لم توهب لأحد قبله ولا بعده ، فحين شعر بعظمها عليه خاصة حين أمكنه الله من سماع النملة قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾[٢] . وقد أدرج عليه السلام ذكر والديه « تكثيراً للنعمة ، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر »[٣] .

وقد جاء هذا المطلب على لسان الإنسان[٤] ، بعد وصيته بالإحسان إلى والديه وخاصة أمه ، لما لقيته في سبيله من مشقة وعناء ، قائلاً : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾[٥] وقد اشترطا في الدعائين السابقين أن يكون عملهما صالحاً يرضى الله عنه ويتقبله وفي هذا إتمامٌ للشكر واعترافٌ بالفضل .

---

(١) إبراهيم / ٧ .

(٢) النمل / ١٩ .

(٣) تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود العمادي / دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ٦ / ٢٧٩ .

(٤) ذكرت بعض الروايات أنها نزلت في أبي بكر الصديق ، وقيل : في سعد بن أبي وقاص . وقيل : نزلت على العموم / راجع الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ١٩٤ .

(٥) الأحقاف / ١٥ .

٨ – تثبيت الأقدام وقت الشدة والكرب :

جاء هذا المطلب على لسان جند الله مع طالوت ، حينما برزوا لقتال جالوت ، وقد كانوا فئة قليلة ولكنها واثقة من نصر الله لها ، وقد طلبوا قبل تثبيت أقدامهم ، إفراغ الصبر عليهم بقولهم ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[١] « وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم وينسكب عليهم طمأنينة وسكينة واحتمالاً للهول والمشقة »[٢] ثم أعقبوا ذلك بطلب تثبيت الأقدام ، وهذا ما طلبه الربيون كذلك بقولهم : ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٣] . « وقد خصوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها »[٤] . « وثبات القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا مجرد التقرر في حيز واحد »[٥] .

٩ – طلب التأخير والرجوع للدنيا عند رؤية الموت :

جعل الله عز وجل الدنيا للعمل والآخرة للجزاء ، غير أن الإنسان قد يغتر بالدنيا فينصرف عن العمل لآخرته ، وينسى أن بقاءه في هذه الدنيا محدد

---

(١) البقرة / ٢٥٠ .

(٢) في ظلال القرآن / سيد قطب / دار الشروق / ط ١٧ - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م - ٢ / ٢٦٩ .

(٣) آل عمران / ١٤٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن / ٤ / ٢٣١ .

(٥) تفسير أبي السعود ١ / ٢٤٤ .

بوقت ، وأن لكل أجل كتاباً قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[١] . ولا يشعر الإنسان في هذه الدنيا بانقضاء العمر إلاّ بعد أن يأتيه الموت : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾[٢] حينها يراجع نفسه هل قدّم أعمالاً تنفعه في هذا اليوم ولكنه لا يجد شيئاً فيدعو قائلاً : ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٣] . ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾[٤] . ولكن هيهات لهم أن يؤخروا .

١٠ - التعوذ من همزات الشياطين :

الشيطان عدو الإنسان الأول ، يسعى لإغوائه ، وهو يجري منه مجرى الدم ، لذا يجب على الإنسان - المؤمن خاصة - أن يحذر منه ، وأن يتعوذ من وساوسه ، وقد أمر الله عز وجل نبيه عليه السلام بذلك في قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[٥] « وهمزات الشياطين : خطراتها التي تُخطِرها بقلب الإنسان »[٦] وأمره كذلك بقوله : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن

(١) الأعراف / ٣٤ .
(٢) المؤمنون / ٩٩ .
(٣) المنافقون / ١٠ .
(٤) إبراهيم / ٤٤ .
(٥) المؤمنون / ٩٧ .
(٦) بصائر ذوي التمييز / ٥ / ٣٤٣ .

﴿يَحْضُرُونِ﴾[١] فقد أمر رسوله « بأن يعوذ به تعالى من حضورهم بعدما أمر بالعوذ من همزاتهم للمبالغة في التحذير من ملابستهم وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به ... وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وحال حلول الأجل كما روي عن عكرمة رحمه الله لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها »[٢] .

١١ - إرسال الرسل :

الرسل هم دعاة الحق أرسلهم الله لغاية معينة قال تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾[٣] .

وقد تعددت رسل الله ، قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٤] . وإبراهيم عليه السلام طلب من ربه أن يبعث في أمته « ذريته » المسلمة رسولاً بقوله : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٥] . دعا بذلك بعد أن طلب لهم الأمن والرزق ، وذلك لتكمل سعادتهم الدنيوية والأخروية وقد طلب أن يكون الرسول منهم « لأنه يكون أشفق على قومه ويكونون هم أعز به وأشرف وأقرب للإجابة ، لأنهم

(١) المؤمنون / ٩٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٦ / ١٥٠ .

(٣) النساء / ١٦٥ .

(٤) فاطر / ٢٤ .

(٥) البقرة / ١٢٩ .

يعرفون منشأه وصنفه وأمانته »[1] . ثم نراه يبين الحكمة من ذلك بقوله : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ والآيات هنا « القرآن ، وقيل : خبر من مضى ، وخبر من يأتي إلى يوم القيامة ، وقال الفضل : معناه يبين لهم دينهم »[2] . فيعلمهم هذا الرسول « القرآن وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة .... ويطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصي »[3] .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى أنه لا يعذب حتى يبعث الرسل مبشرين ومنذرين لتنعدم حجج العباد حيث قال في محكم كتابه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[5] ، وقوله : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[6] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٦٢٥ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٦٢٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ١ / ١٦٢ .

(٤) الإسراء / ١٥ .

(٥) طه / ١٣٤ .

(٦) القصص / ٤٧ .

١٢ - الزيادة في العلم :

العلم نور الله يهدي إلى الخير والصلاح ، وهو من نعمه عز وجل على عباده قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[١] وقوله : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾[٢] . وقوله عز من قائل : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[٣] .

وقد أمر الله عز وجل رسوله بأن يقول : ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[٤] أي أن يطلب الزيادة في العلم « وقيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلاَّ في العلم »[٥] .

وهذا راجع إلى كون العلم هو السبيل الذي يصل الإنسان من خلاله إلى المعرفة الحقه بخالقه بعد أن يزيل عنه شوائب الجهل التي تصده عن الخضوع لله .

---

(١) العلق / ٤ - ٥ .

(٢) الأنعام / ٩١ .

(٣) الرحمن ١ - ٤ .

(٤) طه / ١١٤ .

(٥) الكشاف (عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) للزمخشري / دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م / ٣ / ٨٧ ، البحر المحيط ٧ / ٣٨٧ .

وقد بين الله في كتابه العزيز أن العلماء هم أكثر الناس خشية لله قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[١] . ذلك لأنهم بعلمهم ، وسبرهم أغوار الحقائق يستطيعون أن يميزوا ما كان من صنع إله قادر مبدع ، وبين ما كان من صنع بشر ، فيزداد إيمانهم بأن الله عز وجل هو الإله المتفرد بالألوهية .

١٣ - الشفاء من المرض :

المرض ابتلاء من الله وهو (الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان)[٢] . وهو ضربان :

الأول جسدي ، والثاني عبارة عن الرذائل والجهل - أي المعنوي - أمّا الجسدي فيختبر الله به عباده ليرى مدى صبرهم وثباتهم ، وفيه تخفيف لذنوبهم ، قال عليه السلام : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه »[٣] . وقد ابتلى الله نبيه أيوب عليه السلام بالمرض ، ووردت عدة قصص وروايات في كتب التفاسير وغيرها ، تذكر قصته وكيف أنه لم يطلب من الله صراحة أن يزيل ما به ، بل عرّض بقوله : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٤] وقوله: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[٥]

(١) فاطر / ٢٨ .
(٢) مفردات الراغب / ٤٦٦ .
(٣) الحاكم في المستدرك ١ / ١٠٠ ، والدارمي في سننه ٢ / ٤١٢ ، كلاهما من حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه .
(٤) الأنبياء / ٨٣ .
(٥) ص / ٤١ .

وفي دعائه هذا أدب عظيم فقد تقلب عليه السلام في نعم عديدة ، ولما أصابه المرض لم يُصرِّح في دعائه بل عرَّض حياءً من الله عز وجل . وقد استجاب الله له فقال : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[1] .

ثانياً : المطالب الأخروية :

تنوعت المطالب الأخروية من ناحيتين :

أولاً : من حيث مكان صدورها فهي : إمَّا مطالب أخروية صادرة في الدنيا ، وإمَّا مطالب أخروية صادرة في الآخرة .

ثانياً : من حيث مَن صدرت عنهم فهي : إمَّا أن تكون صادرة عن أهل الإيمان ، وإمَّا أن تكون صادرة عن أهل الكفر .

أ - مطالب أهل الإيمان الأخروية :

لأهل الإيمان مطالبُ أخروية صدرت على ألسنتهم في الدنيا والآخرة وهي :

١ - الرحمة والغفران :

اتجه الداعون إلى ربهم طالبين منه الرحمة والغفران ؛ لأنه هو الرحمن الرحيم الذي قال في كتابه : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[2] لذلك طلبها الجميع مقترنة بالمغفرة وهي : « أن يصون الله العبد أن يمسه العذاب »[3] .

---

(١) الأنبياء / ٨٤ .

(٢) الأعراف / ١٥٦ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ٤ / ١٣٦ .

والأنبياء هم أول من طلبها من عهد آدم عليه السلام إلى نبينا عليه الصلاة والسلام قال تعالى على لسان آدم وحواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1] طلباها بعدما أكلا من الشجرة المنهي عنها ، « وسمّيا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ، ظلماً وقالا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات »[2] .

وقد طلبها نوح لنفسه : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3] بل إنه تجاوز ذلك وطلبها عامة شاملة لوالديه ولأهل الإيمان قائلاً : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[4] . وقد طلبها إبراهيم عليه السلام لوالده رغم كفره قائلاً : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[5] ثم شمل بدعائه أهل الإيمان بقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[6] فهو كنوح عليه السلام « خصَّ أولاً من يتصل به ، لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عمَّ المؤمنين والمؤمنات »[7] .

---

(١) الأعراف / ٢٣ .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٢٨ .

(٣) هود / ٤٧ .

(٤) نوح / ٢٨ .

(٥) الشعراء / ٨٦ .

(٦) إبراهيم / ٤١ .

(٧) الكشاف ٢ / ٦٠٩ .

وتأمل الروعة في دعاء أيوب عليه السلام حين لجأ إلى ربه طالباً رحمته : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[١] حيث سلك في دعائه مسلك الأدب مع الله ، إذ جعل ما نزل به وأصابه مساً خفيفاً و لم يطلب ذلك صراحةً بل عَرَّض في دعائه . وعباد الرحمن وأهل الإيمان ، لم يفتهم طلب الرحمة من الله ليكون سيرهم على بصيرة وارتحالهم عن يقين بقدرته تعالى على إفاضة الرحمات عليهم متى ما هبَّت أمامهم عواصف المحن وأعاصير الباطل ، ففتية الكهف قالوا : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾[٢] .

وكذلك أهل الإيمان استوهبوا ربهم رحمةً من عنده : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٣] وتبين لي من خلال تتبع آيات هذا المطلب أن لفظ الرحمة يأتي مؤخراً دوماً عن لفظ الغفران إذا اجتمعا ، وهذا دليل على أن الرحمة أعم وأشمل « فرحمة الله غير متناهية تكفي أهل السموات والأرض وما بينهما ، وتزيد لتشمل كل شيء حتى الجمادات »[٤] فما بالك بهذا الإنسان ، ألا يحق له أن يتفيأ ظلال رحمة ربه ؟ .

٢ – عدم الخزي ، والنجاة من الظالمين :

« الخزي: الانكسار من الوقوع في بليَّة وشُهرة ، وأخزاه الله: فضحه »[٥].

(١) الأنبياء / ٨٣ .

(٢) الكهف / ١٠ .

(٣) آل عمران / ٩ .

(٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ١ / ٤١٣ .

(٥) بصائر ذوي التمييز ٢ / ٥٣٥ .

وقد طلب إبراهيم عليه السلام أن ينجيه ربه من الخزي يوم البعث بقوله: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾[١] . « أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد ، أو لا تعذبني يوم القيامة »[٢] .

وجاء على لسان أهل الإيمان : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[٣] . « قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾[٤] مظهرين أنهم ممن آمن معه رجاء للانتظام في سلكهم »[٥] .

ومن الخزي أن يكون نصيب المرء في الآخرة النار، محشوراً مع المعذبين ، وهذا ما استجار منه أصحاب الأعراف[٦] ، فبعدما نظروا إلى أصحاب الجنة ونادوهم بالتسليم نظروا إلى أصحاب النار ، إلاَّ أن نظرهم هذا لم يكن ناتجاً عن رغبتهم في ذلك بدليل بناء الفعل للمجهول (صُرِفت) أي « أن صارفاً

(١) الشعراء / ٨٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ١١٤ .

(٣) آل عمران / ١٩٤ .

(٤) التحريم / ٨ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢ / ١٣٢ .

(٦) « الأعراف : جمع عرف وهو كل عال مرتفع لأنه يكون أعرف مما انخفض وهي المشرفات من ذلك الحجاب » وأصحابها « رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا هنالك حتى يقضي الله فيهم ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته ... » راجع نظم الدر في تناسب الآيات والسور للبقاعي / دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان / ط الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ٣ / ٣٦ .

يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا »[1] قائلين : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] « أي في النار ، وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذي هو الموجب للدعاء إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدي إليه من الظلم »[3] .

٣ – الوقاية من عذاب النار والانصراف عنه :

« الوقاية : حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره »[4] ولا أضر من النار ، فالوقاية من عذابها مطلبٌ عظيمٌ حرص الداعون على طلبه في قولهم : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[5] وقولهم : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[6] .

وقولهم كذلك : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[7] وأيضاً في قولهم : ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[8] .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٠٣ .

(٢) الأعراف / ٤٧ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٢٠٣ .

(٤) المفردات / ٥٣٠ .

(٥) البقرة / ٢٠١ .

(٦) آل عمران / ١٦ .

(٧) آل عمران / ١٩١ .

(٨) الفرقان / ٦٥ .

٤ – الوفاة على الإسلام والانضمام إلى الصالحين :

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾(١). الموت نهاية الحياة الدنيوية وبداية لمرحلة أخرى ، وهو أجل مكتوب على الجميع قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(٢) . وقد طلب الداعون أن توفى آجالهم وهم على الإسلام قال تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٣) ، وقوله: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٤) ، وأن يُلحقهم كذلك بالصالحين والأبرار قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾(٥) وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٦) . بل نراهم يطلبون أن يكتبهم الله مع الشاهدين قال تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٧) وقوله : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٨) .

---

(١) آل عمران / ١٤٥ .

(٢) آل عمران / ١٨٥ .

(٣) الأعراف / ١٢٦ .

(٤) يوسف / ١٠١ .

(٥) آل عمران / ١٩٣ .

(٦) النمل / ١٩ .

(٧) المائدة / ٨٣ .

(٨) آل عمران / ٥٣ .

٥ - الجنة والفوز بها :

الجنة « كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض ... وسميت الجنة إمّا تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون ، وإمّا لستره نعمها عنا المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[١] »[٢] والجنة ثواب الله الذي أعده لعباده وفي مقابلها النار للمعاندين المعتدين . وهي مطلبٌ تردده ألسنة الداعين ، وتأمل من الله الفوز به ، وقد طلبه إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[٣] .

وطلبت آسيا عليها السلام بيتاً في الجنة : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾[٤] وقد جمعت بين (عندك وفي الجنة) لأنها أرادت « القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه . ثم بينت مكان القرب بقولها : (في الجنة) ، أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: (عندك) »[٥] .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالحسنة في الآخرة الجنة[٦] ، لذا طلبها الداعون بقولهم : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً

(١) السجدة / ١٧ .

(٢) مفردات الراغب / ٩٨ .

(٣) الشعراء / ٨٥ .

(٤) التحريم / ١١ .

(٥) الكشاف ٤ / ٥٥٩ .

(٦) راجع الدعاء في بيان العربية / ص ١٧.

وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[١] وقولهم : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[٢] أي في الآخرة حسنة وهي الجنة .

وجاءت على لسان الملائكة (حملة العرش) حين طلبوها من ربهم للذين تابوا واتبعوا سبيله بقولهم : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٣] .

٦ - إتمام نور المؤمنين على الصراط :

يطلب أهل الإيمان من ربهم يوم القيامة أن يتم عليهم نورهم الذي يهتدون به أثناء سيرهم على الصراط قائلين : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٤] . « قال ابن عباس والحسن : يقولون ذلك إذا اطفئ نور المنافقين »[٥] . « وعن ابن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ؛ فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى »[٦] .

---

(١) البقرة / ٢٠١ .

(٢) الأعراف / ١٥٦ .

(٣) غافر / ٨ .

(٤) التحريم / ٨ .

(٥) البحر المحيط ١٠ / ٢١٤ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٤٤ .

وجاءت هذه الآية متحدثة « عن النبي ﷺ والذين آمنوا معه لا عن عامة المؤمنين وذلك للتنويه بشأنهم والتنبيه على علو منزلتهم ، ولهذا كان من المناسب التأكيد على أن النور ليس لعامة المؤمنين وإنما هو نور النبي والذين آمنوا معه ، ومن مقتضيات عدم إخزاء الله النبي والذين آمنوا معه الدلالة على أن نورهم يسعى بين أيديهم بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ليتناسب هذا التأكيد مع علو مقام المخاطبين ورفعة منزلتهم وهم النبي والذين آمنوا معه ، كما أن التعبير بالجملة الاسمية ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ ﴾ لإفادة ثبوت النور لهم وديمومته »[1] وهذه الآية تختلف عمَّا جاء في سورة الحديد في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾[2] .

فهذه الآية « جاءت متممة للآيات التي قبلها[3] فهي نتيجة للإنفاق وحث عليه وبشارة من الله لعباده بهذا الجزاء الذي أعده الله للمنفقين منهم تكريماً لهم وتنويهاً بشأنهم والمراد بالمؤمنين عامة المؤمنين وليس الصحابة لأنه لم يأت في السياق ما يدل على ذلك كما دلَّ عليه في آية التحريم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ . ولما كانت هذه الآية وعداً وبشارة من الله آثر القرآن التعبير بالجملة الفعلية ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ المشعرة بالتجدد والحدوث للدلالة على تجدد هذا الوعد لهم بتأكيد سعي النور وتجدده حالاً فحالاً »[4] .

---

(١) علم البيان وثراء المعاني في القرآن الكريم / د. يوسف عبد الله الأنصاري / الطبعة ١ / ١٤١٨ هـ – دار الأنصاري ، مكة المكرمة / ص ١٥ .

(٢) الحديد / ١٢ .

(٣) الآيات هي : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ الحديد ١٠ / ١١ .

(٤) علم البيان وثراء المعاني في القرآن الكريم / ١٤ .

ومما سبق يمكن القول إجمالاً إن مطالب المؤمنين الأخروية قد دارت حول أمرين أساسين هما :

١ - الجنة وكل ما يقرب إليها من قول أو فعل أو عمل .

٢ - النار وكل ما يصرف عنها من قول أو فعل أو عمل .

مطالب أهل الكفر

تبين لنا فيما سبق مطالب المؤمنين الدنيوية والأخروية ، وسنعرض لمطالب الكافرين ، وهي تختلف عن سابقتها في كون دعاء الكافرين - الدنيوي خاصة - قد فقد القيد الذي ذكرناه في تعريف الدعاء ، وهو أن يصدر عن العبد على وجه التذلل والخضوع لله عز وجل حيث أن قولهم : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[1] وقولهم كذلك : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] قد خلا من التذلل والانكسار ، بل علت فيه نبرة السخرية والتحدي .

لهذا فإننا سنقتصر على دراسة دعائهم الأخروي والذي دار حول مقصدين هما :

---

(١) ص / ١٦ .

(٢) الأنفال / ٣٢ .

١ - طلب الخروج من النار والرجوع للدنيا :

عرض القرآن لأحوال الكفار يوم القيامة ، وهم منكّسوا رؤوسهم عند ربهم خوفاً وخزياً حين عرفوا حقيقة مصيرهم وجزاء عملهم لذلك قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[١] .

أي « أبصرنا ما كنا نكذب به وسمعنا منك ومن ملائكتك ومن أصوات النيران وغير ذلك ما كنا نستبعده فصرنا في غاية العلم بتمام قدرتك وصدق وعودك »[٢] . فما أبصروه وما سمعوه جعلهم يطلبون الرجوع للدنيا رغبةً في العمل الصالح ، ولكن لا أمل في رجوعهم ، بل يُلقون في النار ، حينها يتعالى صراخهم ألماً مما هم فيه فيدعون ربهم قائلين : ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾[٣] و﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾[٤] وقولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾[٥] .

فرغم يقينهم بأن ما طلبوه مستحيل ، وأن ما هم فيه أبدي لا ينفك عنهم تحقيقاً لوعد الله لهم بذلك في قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ

(١) السجدة / ١٢ .

(٢) نظم الدرر ٦ / ٥٥ .

(٣) المؤمنون / ١٠٧ .

(٤) فاطر / ٣٧ .

(٥) غافر / ١١ .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[(١)] فهم مع هذا يطلبون الخروج ، ويتمنون أن يجدوا خلاصاً من عذابهم ونلمح في دعائهم بأسلوب الاستفهام « هل » المراد به التمني والاستعطاف رغبة قوية منهم في إبراز غير الممكن في صورة الممكن ففي طلبهم الخروج بأسلوب الاستفهام (فهل إلى خروج من سبيل) دون أخرجنا كما سبق ملمح بلاغي حاولت الوقوف عليه بالرجوع إلى كتب التفسير وغيرها فلم أظفر بشيء حتى فتح الله عليَّ بأن الاستفهام هنا قد تقدمه قولهم ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ . فهم اعتقدوا أن اعترافهم بذنوبهم يكون فيه مندوحةً لهم في إيجاد خلاصٍ أو سبيلٍ ولو واحدٍ للخروج من النار لا سبلاً متعددة . ومع مواصلة البحث مكنني الله من العثور على ما يقوي كلامي ويؤيده ، وهو قولٌ للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في معرض تفسيره للآية حيث قال : « وجعلوا هذا الاعتراف ضرباً من التوبة توهماً منهم أن التوبة تنفع يومئذ فلذلك فرعوا عليه ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ... قال في الكشاف « وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط »[(٢)] يريد أنَّ في اقتناعهم بخروج مَّا دلالة على أنهم يستبعدون حصول الخروج »[(٣)] .

٢ - طلب مضاعفة العذاب للمضلين :

عندما يعجز المعذبون عن الخروج من النار ، يزداد حقدهم وغيظهم على من أضلهم من السادة والكبراء . فلا يملكون سوى الدعاء عليهم بقولهم :

---

(١) التوبة / ٨٦ .

(٢) الكشاف ٤ / ١٥١ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٤ / ٩٩ .

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[1] . وقولهم في موضع آخر: ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾[2] .
وقولهم كذلك : ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[3] . وبتأمل الآيات السابقة نجدها متفقة في معناها العام وهو طلب مضاعفة العذاب لمن كان سبباً في إضلال هؤلاء الداعين . ولكن ما السر في تثنية (ضعفين) وإفراد (ضعفاً) ؟ وبالرجوع لما كتبه علماء المتشابه - كالكرماني[4] والإسكافي[5] - الذين قدّموا جهوداً مشكورة في بيان مثل هذه الأسرار واللمحات الدقيقة بين الصيغ ، لم أجد ضالتي . وبعد إنعام النظر في الآيات الثلاث وسياقاتها . يمكن القول - والله أعلم - أن في تنصيص القرآن على ذكر السادة والكبراء في سورة الأحزاب يكمن السر ، حيث نجده يتلائم مع قوله : ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ للإشارة أنَّ لكل صنف من هذين الصنفين ضعفٌ من العذاب . لكون كل واحد منهما كان له أثرٌ بارزٌ في الإغواء والإضلال .

---

(١) الأحزاب / ٦٨ .

(٢) ص / ٦١ .

(٣) الأعراف / ٣٨ .

(٤) محمود بن حمزة بن نصر ، أبو القاسم برهان الدين الكرماني ، ويعرف بتاج القرّاء : عالم بالقرآآت وتوفي نحو ٥٠٥ هـ . ومن كتبه : لباب التفاسير ، العجائب والغرائب .
انظر ترجمته في : الأعلام ٧ / ١٦٨ .

(٥) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي ، عالم بالأدب واللغة من أهل أصبهان توفي سنة ٤٢٠ هـ . من كتبه : مبادئ اللغة ، درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهة .
انظر ترجمته في : الأعلام ٦ / ٢٢٧ .

وحين نتأمل الآية في سورة (ص) نجد الفعل (زده) قد وقع موقعه في إظهار شدة الحقد على هؤلاء المضلين ، وذلك بطلب زيادة العذاب المضاعف لهم . والتعبير بالجار والمجرور (في النار) قوّى المعنى حيث جعل العذاب يحيط بهم في النار من كل جانب كإحاطة الظرف بالمظروفين . وهذه الآية تختلف عما في الأعراف لأن السياق فيها للطاغين أما في الأعراف فهو لمطلق الكافرين[1] . ذلك أن الطغاة أشد بطشاً من الكفار .

ومما سبق يمكن الخلوص إلى أمورٍ هي :

١ - تنوعت مقاصد الداعين من مؤمنين وكفّار زماناً ومكاناً .

٢ - الدعاء الدنيوي أكثر من الدعاء الأخروي ، لأن الدنيا دار عمل فالمؤمنون في حاجة إلى عون ربهم للظفر بالأعمال الصالحة التي تدخلهم الجنة فيلجأون إليه بالدعاء .

٣ - دعاء المؤمنين أكثر من دعاء الكافرين ، لأن المؤمنين موقنون بكرم ربهم فهم يدعونه خوفاً وطمعاً في السراء والضراء على خلاف الكافرين ، فالعند قد أعماهم فاعتقدوا أنهم في غنى عن عون الله ، ونراهم لا يلجأون إليه إلاَّ في الشدة والكرب قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾[3] .

٤ - خروج دعاء الكافرين الدنيوي من الدراسة لخلوه من التذلل والخضوع .

(١) راجع نظم الدرر ٦ / ٣٩٨ .

(٢) لقمان / ٣٢ .

(٣) الروم / ٣٣ .

الباب الثاني

التحليل البلاغي لآيات الدعاء

الفصل الأول

دراسة تركيب الجملة

ويضم ستة مباحث :

١ – **المبحث الأول** : التقديم وأسراره .

٢ – **المبحث الثاني** : أسلوب التوكيد ودلالاته البلاغية .

٣ – **المبحث الثالث** : التعريف والتنكير .

٤ – **المبحث الرابع** : المشتقات وصيغ الأفعال ومعانيها البلاغية .

٥ – **المبحث الخامس** : دلالات إنما والنفي والاستثناء .

٦ – **المبحث السادس** : أسرار الإفراد والجمع في آيات الدعاء .

المبحث الأول

التقديم وأسراره

يعد التقديم من أهم المباحث البلاغية لكثرة استعماله وتنوع تصرفاته في الأساليب البليغة ، ويُعنى الدارس للتقديم بإبراز أغراض التقديم ودواعيه البلاغية كتقديم المسند إليه والمسند وبعض متعلقات الفعل ، وتقديم بعض الجمل على بعض ، وبعض الفقر على بعض ، مبرزاً تلك اللطائف البلاغية والأسرار الأسلوبية في تراكيب الجمل العربية .

ومع ذلك لم يحظ التقديم بإهتمام العلماء حتى جاء إمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجاني فعني به عناية فائقة وأبرزه للوجود ، وأثنى عليه بقوله : « هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر ذلك عن بديعه ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قُدّم فيه شيء ، وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان »[1] .

ذكر عبد القاهر ذلك في الشعر ، فما بالنا بما هو خير منه وأفصح ، وأكمل منه وأعجز ، إنه القرآن الكريم ، نرى فيه ألواناً مختلفة من الأوجه البلاغية المعجِزة - والتقديم أحدها - حيث جاء في القرآن متنوعاً على النحو الآتي :

---

(١) دلائل الإعجاز / لعبد القاهر الجرجاني / تحقيق محمود محمد شاكر / مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة / ط(٣) ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م / ١٠٦ .

(١) تقديم بعض المفردات على بعض .

(٢) تقديم بعض أجزاء الجملة الواحدة على بعض .

(٣) تقديم الجمل بعضها على بعض « وهذا سيفرد له مبحث خاص به عند دراسة تركيب الجمل » .

أمَّا الأول والثاني فسنتناولهما بالبحث والتحليل كالآتي :

أولاً : تقديم بعض المفردات على بعض :

لا يكاد الباحث يجد في كتب علماء البلاغة المتأخرين حديثاً عن تقديم بعض المفردات على بعض ، مما يدل على عدم عنايتهم بهذا اللون من التقديم، وإنما عنوا بدراسة تقديم المسند إليه ودلالته على التخصيص والإهتمام في باب أحوال المسند إليه ، وعنوا بدراسة تقديم المسند وإفادته الحصر في باب أحوال المسند ، كما عنوا بدراسة تقديم بعض المعمولات على بعض في باب متعلقات الفعل ، ولم يعنوا بتقديم المفردات بعضها على بعض ، وإن كان لغيرهم من العلماء جهود مباركة مشكورة في هذا الصدد ، بينوا من خلالها أسراره البلاغية كالسهيلي في كتابه نتائج الفكر في النحو ، والزركشي[1] في كتابه البرهان في علوم القرآن والسيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن .

---

(١) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي بدر الدين أبو عبد الله (٧٤٥ هـ - ٧٩٤ هـ) عالم بفقه الشافعية والأصول ، تركي الأصل مصري المولد والوفاة . من مؤلفاته : الديباج في توضيح المنهاج ، ولفطة العجلان في أصول الفقه ، والبرهان في علوم القرآن .

انظر ترجمته في : الأعلام ٦ / ٦٠ - ٦١ .

ولعل السهيلي[1] أول من حاول حصر أسباب التقديم بقوله : « ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقديم المعاني في الجنان . والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء : إمَّا بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإمَّا بالفضل ... »[2] .

ثم جاء بعده الزركشي وأوصلها إلى أكثر من عشرين سبباً[3] .

ويلحظ الدارس أن ألفاظ الدعاء القرآني - كغيرها من ألفاظ القرآن - جاءت متناسقة تامة ، وفي ترتيبها على هذا الوجه أسراره الدقيقة التي تحمل في ثناياها سر ذكر اللفظة مقدمةً على غيرها ، مما يثير في النفس تساؤلاً عن سر هذا التقديم ، وأثره في المعنى .

ومن الألفاظ التي تقدم بعضها على بعض في الدعاء القرآني ما يأتي :

١ - تقديم الدنيا على الآخرة :

وردت لفظة الدنيا مقدمة على لفظة الآخرة في الدعاء القرآني في ثلاثة مواضع في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي ، حافظ ، عالم باللغة والسير ، ضرير، ولد سنة ٥٠٨ هـ بمدينة مالقة وتوفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ ، من مؤلفاته : الروض الأنف ، ونتائج الفكر ، والتعريف ، والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام .
انظر ترجمته في : الأعلام ٣ / ٣١٣ .

(٢) نتائج الفكر / لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي ، تحقيق / د. محمد إبراهيم البنَّا / دار الرياض / ٢٦٧ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٣٨ - ٢٧٥ .

حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[١] وقولـــــه : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[٢] وقولـه : ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾[٣] .

لبيان أن الدنيا دار العمل والآخرة دار الجزاء ، والمؤمن متعلـق بما يقدمه في دار العمل ، والحسنة فيها هي العافية في الدين والدنيا ، ولأن الإنسان حيٌّ يعيش هذه الدنيا بمغرياتها وصوارفها فهو يدعـو أن ينجيـه مـن فتنتـها . أمّـا الآية الثالثة فقد جاءت على لسان يوسف عليه السلام ، وتقديـم الدنيـا على الآخرة فيها لأن الدنيا هي المكان الأول للظهور الإنسان وفيـه تتحقـق ولايـة الله له ، فالله تولى يوسف عليه السلام في الدنيا أي كان قريبـاً لـه في البـاطن والظـاهر[٤] ، وكذلـك سيتولاه في الآخـرة . ويمكـن القـول كذلـك : إن التقديم هنا راجعٌ إلى التقدم الزمني فالدنيا قبل الآخرة .

٢ – تقديم إسماعيل على إسحاق :

ورد ذكر إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في الدعاء القرآني على لسـان إبراهيم عليه السلام في معـرض شكره لله علـى أن أكرمـه بالذريـة الطيبـة في قولـه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٥] فقدّم ذكـر إسماعيل علـى إسحاق وفي ذلـك مراعـاة للـترتيب الزمـني فقـد ولـد إسمـاعيل قبـل إسـحاق فقـدم الأول في الوجـود .

---

(١) البقرة / ٢٠١ .

(٢) الأعراف / ١٥٦ .

(٣) يوسف / ١٠١ .

(٤) انظر نظم الدرر ٤ / ١٠٠ .

(٥) إبراهيم / ٣٩ .

ويؤكد ما ذكرناه قوله : على الكبر ، ومعناه بعد اليأس من أن يولد له ومثل هذه الحالة ترجح أنه يذكر أول من جاء على حالة اليأس هذه وهو إسماعيل عليه السلام ، مع ملاحظة أنَّ إسماعيل جاء من أم لم تبلغ حد اليأس ومن أب بلغ حد الكبر ، وإسحاق جاء من أم عجوز كما قالت : أألد وأنا عجوز . فكانت العجيبة من إسحاق أكثر . ولولا الدلالة على الزمن لقدم إسحاق لأن العجيبة فيه أخطر .

٣ – تقديم الآباء على الأزواج والذرية :

تقدم ذكر الآباء على الأزواج والذرية ، في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] التقديم هنا روعي فيه الترتيب الزمني في الوجود فالآباء وجودهم متقدم على الأزواج والذرية ، وفيه احترام وتقدير لهؤلاء الآباء وتأدب معهم واعتراف بفضلهم .

٤ – تقديم الأزواج على الذرية :

في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ... ﴾[2] .

تقدم ذكر الأزواج على الذرية تمشياً مع الترتيب الطبيعي ، فوجود الأزواج سابق على وجود الذرية . وقيل : إنَّ في ذلك إشارة إلى الارتباط الوثيق بين الزوجة الصالحة والولد الصالح ، فالزوجة الصالحة غالباً ما يكون ولدها صالحاً لحسن تربيتها له[3] .

---

(١) غافر / ٨ .

(٢) الفرقان / ٦٥ .

(٣) راجع دلالات التراكيب / ٣٧٥ .

٥ – تقديم الأمن على الرزق :

الأمن والرزق مطلبان ضروريان لقيام المجتمعات وتكوين الحضارات ، وقد طلبهما إبراهيم عليه السلام من ربه لمكة في قوله : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[١] لكنه قدَّم طلب الأمن على طلب الرزق ، وهذا من باب تقديم السبب على المسبب وذلك أنه « إذا كان البلد ذا أمن ، أمكن وفود التجار إليه لطلب الربح »[٢] فالأمن إذاً سببٌ في حصول الرزق لذا قُدِّم ، وجاء اللفظ بعده موافقاً له في المعنى حيث جعل الرزق من الثمار بدلاً من الحبوب « لما في تعاطيها من الذل المنافي للأمن »[٣].

٦ – تقديم الزينة على الأموال :

تقدمت الزينة على الأموال في الدعاء القرآني على لسان موسى عليه السلام في معرض دعائه على فرعون وقومه في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ... ﴾[٤] ولعل هذا التقديم راجعٌ إلى معنى الزينة ، فإن كانت « ما يتزين به من لبس أو حلي أو فرش أو أثاث أو غير ذلك »[٥] فهي من الزينة الظاهرة التي غالباً ما تبهر بل قد تفتن أحياناً ،

---

(١) البقرة / ١٢٦ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٦١٣ .

(٣) نظم الدرر ١ / ٢٤١ .

(٤) يونس / ٨٨ .

(٥) الكشاف ٢ / ٣٥١ .

كما فتنت زينة قارون بعض قومه حينما خرج عليهم فيها قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[١] أمَّا الأموال فهي من الأمور المستترة والتي غالباً ما يظهر أثرها لذلك قُدِّم ما هو ظاهر على ما هو مستتر . أما إذا أريد بالزينة الزينة البدنية (كالقوة وطول القامة)[٢] .

فالتقديم هنا من باب تقديم السبب على المسبب ، ذلك أن هذه الزينة هي سبب في حصول المال .

٧ – تقديم الجن على الإنس :

وردت في القرآن عدة آيات جمعت بين لفظي الإنس والجن[٣] وقد تتقدم إحداهما على الآخرى وذلك حسبما يقتضيه السياق، وقد تقدمت لفظة الجن على الإنس تسع مرات بينما تقدمت لفظة الإنس على الجن أربع مرات ، وفي الدعاء القرآني ورد ذكرهما مرة واحدة ، تقدمت فيها لفظة الجن على الإنس في قوله تعالى على لسان المعذبين في النار : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[٤] وقد قدَّم المعذبون لفظة الجن على الإنس لأنهم أكثر إغواءً

---

(١) القصص / ٧٩ .

(٢) مفردات الراغب مادة (زين) / ٢١٨ .

(٣) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / وضع محمد فؤاد عبد الباقي / دار المعرفة بيروت / ط٢ ، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م / ٢٢٨ .

(٤) فصلت / ٢٩ .

وإضلالاً من الإنس حيث توعد بذلك إبليس اللعين في قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١] .

٨ – تقديم السادة على الكبراء[٢] :

جاء تقديم السادة على الكبراء في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[٣] . فتقديم السادة على الكبراء جاء لأنهم يملكون « قوة البطش بهم لو لم يطيعوهم فكان ذلك أحق بالتقديم في مقام الاعتذار وطلب التشفي »[٤] .

---

(١) الحجر / ١٥ .

(٢) السادة هم الملوك والولاة الذين يتولون تدبير السواد الأعظم منهم .
والكبراء هم الرؤساء الذين يأخذون عنهم فنون الشر . انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / للألوسي / دار إحياء التراث العربي / ط٤ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م/ ٢٢ / ٩٣ .

(٣) الأحزاب / ٦٧ – ٦٨ .

(٤) روح المعاني ٢٢ / ٩٣ .

ثانياً : تقديم بعض أجزاء الجملة على بعض :

« إذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض ، فقد حرصت الجملة في القرآن على أن يكون هذا التقديم ، مشيراً إلى مغزى ، دالاً على هدف ، حتى تصبح الآية بتكوينها ، تابعة لمنهج نفسي ، يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير ، فيتقدم مثلاً بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يدور حوله الحديث وحده ، فيكون هو المقصود والمعني ، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه ، فلا جرم أن يتقدم في الجملة ، كما تقدم في النفس »[١] .

ومن تقديم بعض أجزاء الجملة على بعض في آيات الدعاء ما يأتي :

١ – تقديم المفعول به على الفعل :

تقديم المفعول به على فعله جاء في الدعاء القرآني مرتين في آية واحدة في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٢] ، فالفعلان (نعبد – ونستعين) قد تقدم مفعولهما وهو الضمير (ك) وللعلماء في سر هذا التقديم أراء مختلفة وتحليلات متنوعة فمنهم من يرجعه للقصر ومنهم من يرجعه للاهتمام والتخصيص وآخرون لا يرون فرقاً بين الاثنين . فالزمخشري أرجع التقديم هنا لقصد الاختصاص وجعل المعنى نخصك بالعبادة ، ونخصك بطلب المعونة[٣] ،

---

(١) من بلاغة القرآن / أحمد أحمد بدوي / دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٧ م / ١١٢ .

(٢) الفاتحة / ٤ .

(٣) راجع الكشاف ١ / ٢٢ – ٢٥ .

وقد اعترض عليه أبو حيان[1] بقوله : « التقديم عندنا إنما هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول »[2] . على حين أنَّ أبا السعود البيضاوي[3] وغيرهم[4] قد أجمعوا على أنه لا خلاف بين القصر والاهتمام إذ أنَّ التقديم يفيدهما معاً ، فالتقديم في الآية قد جاء للقصر أي نخصك بالعبادة وبطلب المعونة أنت لا غيرك ، وهذا قصر حقيقي تحقيقي من باب قصر الصفة على الموصوف وهو الله عز وجل .

وهنالك من يرجع التقديم للناحية اللفظية وأنه لمشاكلة رؤوس الآي ، والعلوي[5] لا يرى منافاة بين أن يكون التقديم هنا راجعاً للأمرين معاً للاختصاص ولمراعاة رؤوس الآي[6] .

---

(١) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ، ولد سنة ٦٥٤ هـ وتوفي سنة ٧٤٥ هـ من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات، ولد في غرناطة وتوفي بالقاهرة ، من مصنفاته : البحر المحيط ، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب .

انظر ترجمته في : الأعلام ٧ / ١٥٢ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٠ .

(٣) أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي ناصر الدين البيضاوي ، وقيل أبو سعيد ، أو أبو الخير المتوفى سنة ٦٨٥ هـ قاض ، ومفسر ، وعلامة ، توفي في تبريز ، من مصنفاته : منهاج الوصول إلى عالم الأصول ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير .

انظر ترجمته في : الأعلام ٤ / ١١٠ .

(٤) راجع تفسير أبي السعود ١ / ١٦ ، وتفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ١ / ١١ .

(٥) يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحصيني العلوي الطالبي ، من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن ، ولد في صنعاء سنة ٦٦٩ هـ وتوفي في حصن هران سنة ٧٤٥ هـ . وله مصنفات كثيرة منها : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق الإعجاز ، والانتصار في الفقه .

انظر ترجمته في : الأعلام ٨ / ١٤٣ - ١٤٤ .

(٦) الطراز للعلوي / دار الكتب العلمية بيروت / ط١ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

ويمكن القول : إن التقديم هنا جاء لإبراز حقيقـة واحـدة ، وهـي أن الله سبحانه وتعالى هو الأساس الذي يتعلق به قلب المؤمن ، فيظهر في كلامـه مـا يدل على هذا التعلق وهذا الاهتمام ، وما يعتريه من يقين تام بحقوق الله عليه التي يجب أن تصرف له وحده دون غيره .

٢ – تقديم أحد المفعولين على الآخر :

قد يقدم أحـد المفعولـين على الآخـر وجـاء هـذا في الدعـاء القرآنـي في قوله تعالى على لسان موسى عليـه السـلام في قولـه : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۞ هَـٰرُونَ أَخِى ﴾[1] .

فقد تقدم (وزيراً) المفعول الثاني (لاجعل) علـى (هـارون) المفعـول الأول ، وذلك لعظم أمر الوزارة ولاهتمامه بها[2] وعنايته بأمرها .

وفي قوله : اجعل لي نجد كلمة (لي) متعلقة بوزير ، والأصـل وزيـراً لي من أهلي وإنما قُدّم لأن مدخول اللام وهو ضمير المتكلم هو الأهـم لأنـه هـو المكلف بأمر الرسالة وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ ﴾[3] .

التقديـم بـين مفعـولي اجعـل (لي وآيـــة) جــاء لصحــة العبــارة فــهو « يتعين تقديمه لأنه قبل دخول اجعل ، هو مصحح لجواز الابتداء بالنكرة »[4]

---

(١) طه / ٢٩ – ٣٠ .

(٢) راجع (الكشاف ٣ / ٦٠ ، البحر المحيط ٧ / ٣٢٨ ، تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب ٦ / ١٩٩ ، تفسير أبي السعود ٦ / ١٣ ، التحرير والتنوير ١٦ / ٢١٣) .

(٣) آل عمران / ٤١ – مريم / ١٠ .

(٤) البحر المحيط ٣ / ١٣٩ ، وراجع تفسير أبي السعود ٣ / ٤٣ ، ٥ / ٢٥٨ .

وفيه أيضاً نوع من إثارة شوق السامع لمعرفة ما سيطلبه زكريا من ربه بعد تلك البشارة العظيمة ، وتقديم (لي) لأن الحديث عنه والبشارة له والآية له فهو معقد الكلام .

ثم نرى الله سبحانه وتعالى يجيبه على طلبه مباشرة في قوله : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ... ﴾[1] ليطمئنه ونجد فيها كذلك عدم اكتراث من قبل زكريا بغيره أصدق أم لا .

ومثل هذا التقديم نجده في الآيتين الآتيتين من قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[2] وقوله : ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾[3] ، فقد قُدِّم المجروران على المفعول (ولياً) و (سلطاناً) و (نصيراً) وذلك « لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله فإن تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع إلى وروده ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة »[4] .

٣ - تقديم المتعلق (الجار والمجرور) على الفعل :

هذا النوع من التقديم لم يكن من الكثرة بمكان في آيات الدعاء حيث ورد في أربع آيات فقط وهي قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[5]

(١) آل عمران / ٤١ .

(٢) النساء / ٧٥ .

(٣) الإسراء / ٨٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٢٠٢ .

(٥) الأعراف / ٨٩ ، يوسف / ٨٥ .

وقولــه : ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[١] وقولــه : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾[٢] . وكان في تلك الآيات بنفس حرف الجر (على) وبنفس الفعل (توكلنا) مع اختلاف بسيط بين هذه الآيات في كون حرف الجر مرةً بعده اسم ظاهر (الله) ومرةً بعد (ضميره) وهذا التقديم جاء للقصر ، حيث في الآيات كلها كان الهدف منه قصر صفة التوكل على الله ، وأنهم يتوكلون عليه وحده دون غيره ، وهو قصر حقيقي تحقيقي من قصر الصفة على الموصوف .

وفيه أيضاً : « إفادة الاختصاص وتحقيقاً لمعنى التوحيد ونبذ غير الله ، ولما في قوله : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ من التفويض إليه في كفايتهم أمر أعدائهم »[٣] . أما اختلاف المجرور فيعود لاختلاف الدعاء ففي الآيتين الأولتين صدر عن المؤمنين بموسى عليه السلام وبشعيب وهم يدعون ربهم بالنجاة من قومهم وأن يخلصهم مما هم فيه ، أمَّا في الآية الثالثة فهي جاءت كتعليم للرسول ﷺ لكيفية الدعاء ، أما الآية الرابعة فهي على لسان إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه . وقد جاء بعدها قولهم : ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾[٤] وفيها قصر الإنابة إلى الله وهي « الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل »[٥] فهم قد قصروا توكلهم وتوبتهم ورجوعهم إلى - الله عز وجل - عليه وحده

(١) التوبة / ١٢٩ .

(٢) الممتحنة / ٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٨ / ١١ .

(٤) الممتحنة / ٤ .

(٥) مفردات الراغب مادة (نوب) / ٥٠٨ .

وهذا القصر قصر حقيقي تحقيقي من قصر الصفة على الموصوف . فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في الآيات السابقة جاء بقصد القصر فهذا هو غرضه الأساسي ، الذي نلمح فور قراءتنا للآيات تحقق معناه ، وجماله الذي أكسبه للآية ، ذلك الجمال الذي يظهر في شدة إيمان هؤلاء الرجال وشدة تعلقهم بخالقهم الذي انساب على أفواههم بتقديم اسمه ، وضميره . والتوكل والإنابة أمران مهمان بالنسبة للمؤمنين دعا إليهما الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في قوله : « لو أنكم توكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتعود بطاناً »[١] .

٤ - تقديم الجار والمجرور أو الظرف على المفعول به :

من الكثير جداً أن يتقدم الجار والمجرور أو الظرف على المفعول به ، وهو طبعاً لغاية يفرضها السياق ، من ذلك ما نجده على لسان موسى عليه السلام في قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾[٢] وقد جاء في الانتصاف أن الفائدة من ذكر (لي) الجار والمجرور مقدماً على المفعول به للدلالة « على أن منفعة شرح الصدر راجعة إليه فإنه تعالى لا يبالي بوجوده وعدمه ، وقس عليه يسر لي أمري »[٣] ونجد أيضاً أبا السعود[٤]

(١) الترمذي ٤ / ٥٧٣ .

(٢) طه / ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) حاشية الشهاب ٦ / ١٩٨ .

(٤) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي المعروف بأبي السعود ولد سنة ٨٩٨ هـ وتوفي سنة ٩٨٢ هـ ، فقيه أصولي ومفسر من علماء الترك المستعربين كان عارفاً باللغات والفارسية ولد بقرب القسطنطينية ثم تقلد فيما بعد القضاء فيها وبها مات .

انظر ترجمته في : الأعلام ٧ / ٥٩ .

يرجع هذا التقديم إلى العناية والاهتمام بالمقدم واختصاصه به . أما التقديم عند ابن عاشور فنظر إليه من زاوية أخرى وهي الإجمال ثم التفصيل وهذا نظر آخر حيث قال : « فليحصل الإجمال ثم التفصيل فيفيد مفاد التأكيد من أجل تكرير الإسناد »[١] .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾[٢] فقد تقدم (من لدنك) على المفعول به (رحمة) للاهتمام بالمقدم ، فهم في ذلك الكهف بحاجة إلى رحمة خاصة تفيض عليهم من الله « وذلك أبلغ مما لو قالوا : آتنا رحمة ، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله ، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة »[٣] ، ومثل ذلك الآيات ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾[٤] و ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[٥] و ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾[٦] حيث تقدم (لي) على (من لدنك) « لأنه الأهم في غرض الداعي وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام »[٧] . ونجد أيضاً صورة هذا التقديم على لسان آسيا ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾[٨] وعلى

---

(١) التحرير والتنوير ١٦ / ٢١١ .

(٢) الكهف / ١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ١٥ / ٢٦٦ .

(٤) آل عمران / ٨ .

(٥) آل عمران / ٣٨ .

(٦) مريم / ٥ .

(٧) التحرير والتنوير ١٦ / ٦٧ .

(٨) التحريم / ١١ .

لسان فتية الكهف : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[١] وعلى لسان والدة مريم عليها السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾[٢][٣] .

ففي الآيات السابقة جاء التقديم للعناية والاهتمام بالمقدم .

(١) الكهف / ١٠ .

(٢) آل عمران / ٣٥ .

(٣) راجع تفسير أبي السعود ٢ / ٢٧ ، وفتح القدير ١ / ٣٣٤ .

المبحث الثاني

أسلوب التوكيد ودلالاته البلاغية

التوكيد لون من ألوان التعبير يكثر في الكلام البليغ ، وهو « تمكين الشيء في نفسه ، وتقوية أثره ، وفائدته : إزالة الشكوك ، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده ، وهو دقيق المأخذ ، كثير الفوائد ... »[١] ويكون تبعاً لحال المخاطب في الغالب ، إما بناءً على مقتضى الظاهر - وهو ما يعرف بأضرب الخبر الثلاثة[٢] - وإمّا على خلاف الظاهر من حال المخاطب وهو ما يعرف بالأحوال التنزيلية .

والمؤكدات في الجملة تتفاوت في كثرتها تبعاً لتفاوت درجة الإنكار ، فكلما ازداد إنكار المخاطب ازدادت المؤكدات ، على نحو ما جاء في قوله تعالى في شأن أصحاب القرية : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ

(١) الطراز / للعلوي / ٢٨٧ .

(٢) أضرب الخبر الثلاثة هي : الضرب الابتدائي وهو الذي يلقى إلى خالي الذهن ويخلو من المؤكدات، والضرب الطلبي وهو الذي يلقى إلى المتردد في الخبر ويؤكد بمؤكد واحد . والضرب الثالث الإنكاري وهو الذي يلقى إلى المنكر ويؤكد بأكثر من مؤكد . انظر (التبيان في علم المعاني والبديع والبيان) للطيبي / تحقيق د. هادي عطية الهلالي / عالم الكتب / ط١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / ٥١ . الإيضاح للخطيب القزويني / شرح عبد المنعم خفاجي (١ / ٧١ - ٧٢ - ٧٣) ، خصائص التراكيب للدكتور محمد محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / ط٣ / ٤٨ .

ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾[١] . فالآيات السابقة تعلو فيها نبرة التأكيد كلما علت نبرة الإنكار ، فهما في تصاعد متناسق يأخذ بالألباب[٢] .

وفي دراستنا للتوكيد في آيات الدعاء لن ننظر إلى تلك الأضرب ولا إلى مقاماتها التنزيلية لأمر بسيط جداً وهو أنَّ المخاطب في الدعاء هو الله عز وجل ، فمن غير الممكن النظر إليه من باب كونه جاهلاً ، أو متردداً ، أو منكراً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

غير أن هناك ضروباً من التوكيد لا ينظر فيها المتكلم إلى حال المخاطب أمامه بل إلى حال نفسه هو . وهذا مقام عالٍ في أحوال الخطاب أهمله المتأخرون ، وركزوا جهودهم في بيان ما جاء التوكيد فيه مراعاةً لحال المخاطب ، مطبقين الأضرب الثلاثة ومقاماتها التنزيلية ، في حين أن للمتقدمين إشارات إلى ذلك المستوى الأعلى للخطاب المراعى فيه حال المتكلم لا حال المخاطب ، وعلى رأس هؤلاء وأولهم الشيخ عبد القاهر[٣] أثناء حديثه عن (إن) حيث قال : « واعلم أنها قد تدخل للدلالة على أنَّ الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنَّه لا يكون ، وذلك قولك

---

(١) يس / ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ .

(٢) انظر خصائص التراكيب / ٤٨ - ٤٩ .

(٣) أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني : واضع أصول البلاغة ، كان من أئمة اللغة ، من أهل جرجان ، له شعر رقيق توفي سنة ٤٧١ هـ ، من كتبه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، وإعجاز القرآن .

انظر ترجمته في : الأعلام ٤ / ٤٨ - ٤٩ .

للشيء هو بمرأى من المخاطب ومسمعٍ : (أنه كان من الأمر ما ترى ، وكان مني إلى فلان إحسان ومعروف ، ثم إنه جعل جزائي ما رأيت) ، فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذي ظننت ، وتبين الخطأ الذي توهمت . وعلى ذلك - والله أعلم - قوله تعالى حكاية عن أم مريم رضي الله عنها : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾[١] وكذلك قوله عز وجل حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾[٢] وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية ، بالشيء يدرك بالهوينا ... »[٣] . وقد استثمر هذا القول بعض علماء التفسير كالزمخشري[٤] في حديثه عن التأكيد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[٥] . واستند على هذا القول الطيبي[٦] في كشفه

---

(١) آل عمران / ٣٦ .

(٢) الشعراء / ١١٧ .

(٣) دلائل الإعجاز / ٣٢٧ .

(٤) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري ، ولد سنة ٤٦٧ وتوفي سنة ٥٣٨ ، ولد في زمخشر وتوفي في الجرجانية ، من مصنفاته الكشاف وأساس البلاغة والمستقصي في الأمثال .

انظر ترجمته في : الأعلام ٧ / ١٧٨ .

(٥) البقرة / ١٤ .

(٦) الحسين بن محمد بن عبد الله ، شرف الدين الطيبي ، من علماء الحديث والتفسير والبيان من أهل توريز من عراق العجم كان متواضعاً ، ضعيف البصر توفي سنة ٧٤٣ هـ ، من كتبه: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ، التبيان في المعاني والبيان ، والخلاصة في معرفة الحديث .

انظر ترجمته في : الأعلام ٢ / ٢٥٦ .

حيث يقول : « قوله - أي الزمخشري - ألا ترى حكاية الله قول المؤمنين : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ استئناف وحاصل التأويل أن معنى التوكيد الذي تعطيه إنَّ هاهنا ليس راجعاً إلى المخاطب في إزالة تردده أو نفي شكه بل إلى المتكلم في إظهار نشاطه ووفور ارتياحه إيذاناً بأن المقام خليق الإطناب وإبداء ارتياحه ونشاطه وإعلامه بأن السامع يتلقاه بالقبول ويصغي إليه »[١] .

وهكذا فالطيبي يقرر أن التوكيد قد يكون لمراعاة حال المتكلم فالأمر لا ينصرف إلى حال المخاطب كلياً . وممن تنبه إلى هذا الأمر من المحدثين الدكتور أبو موسى فذكر أنَّ هنالك ضروباً من التوكيد يُنظر فيها لحال المتكلم دون المخاطب حيث يقول : « هناك ضروب من التوكيد لا يُنظر فيها إلى حال المخاطب وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق ، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه »[٢] وقد عرض لنماذج رائعة جاءت مؤكدة تبعاً لحال المتكلم نفسه[٣] .

ونجد الأمر ذاته في آيات الدعاء التي جاء توكيدها مراعاةً لحال الداعين وكان هذا التوكيد لأغراضٍ منها :

---

(١) الكشف عن قناع الريب نقلاً عن كتاب (من سمات التراكيب) ، د/ عبد الستار زموط / ط١ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ، مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة .

(٢) خصائص التراكيب / ٥٧ .

(٣) انظر المرجع السابق / ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٣ - ٦٤ .

(١) إظهار اليقين بمضمون الجملة :

وردت في الدعاء آيات كثيرة جاء التأكيد فيها لإظهار كمال يقين الداعي بمضمونها من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ[١] ﴾[٢] فتأكيدها « لإظهار كمال اليقين بمضمونها والإيذان بشدة الخوف »[٣] . وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[٤] على لسان امرأة عمران ولسان إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل ، جاء مؤكداً كذلك ليقين امرأة عمران بمضمون الآية حيث إن الله سامعٌ لدعائها عالمٌ بحالها ، وكمال اليقين كذلك عند إبراهيم وابنه إسماعيل لعلمهما بأن الله يسمع دعاءهما ويعلم بحالهما[٥] . وفي الآيات التالية :

قال تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[٦] وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[٧] وقوله : ﴿ وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾[٨] وقوله كذلك : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٩] وقوله: ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[١٠] وقوله: ﴿ إِنَّكَ

---

(١) هذه الجملة تعليل للدعاء ، وهي ذات صلة وثيقة بجملة الدعاء ﴿ سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فهذه الجملة بعدها مؤكدة لطلب الوقاية من النار وأن النار عذاب وخزاية والخزي ضرب من العذاب .

(٢) آل عمران / ١٩٢ .

(٣) تفسير أبي السعود / ٣ - ١٣١ .

(٤) البقرة / ١٢٧ - آل عمران / ٣٥ .

(٥) راجع أبا السعود ٢ / ٢٧ - ١ / ١٦٠ - ١٦١ .

(٦) آل عمران / ٩ .

(٧) آل عمران / ١٩٤ .

(٨) هود / ٤٥ .

(٩) إبراهيم / ٣٩ .

(١٠) آل عمران / ٣٨ .

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[3] وقولـــه : ﴿ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] وقولـــه : ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5] وقوله : ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[6] . نجد أن الداعي وإن تنوع ، فهو في الآيات السابقة يقرر حقـائق معينـة تمكنـت في قلبه ، ووثق بها ، فهو يثبت لله القدرة على الجمع يوم القيامة وأن ذلك ميعاد محدود لا يخلفه سبحانه فوعده صادق ، يحكـم فيـه بـين الخلائـق . ثـم نـرى الداعي يؤكد لله صفاتٍ استشعر انفراده بها جل وعلا .

ولتمكن هذه الحقائق داخله فهو يؤكدها تحقيقـاً لما يحسـه مـن قوتـها في نفسه ، فالله عزيز حكيم ، تواب رحيم ، غفـور رؤوف ، يسـمع دعـاء مـن دعاه ، بيده القدرة التامة المطلقة ، إذا أراد شيئاً فإنه يقول له : كن فيكون .

(٢) الاهتمام بالمؤكد :

جاء التوكيد للاهتمام بالمؤكد في الدعاء القرآني علـى لسـان نـوح عليـه السلام في قوله : ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى .. ﴾[7] باعتبار أنه يمثل أمـراً مـهماً لـه « فقوله : ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ خبر مستعمل في الاعتذار ، والتمـهيد لأنـه

---

(١) البقرة / ١٢٨ .

(٢) البقرة / ١٢٩ - الممتحنة / ٥ .

(٣) آل عمران / ٨ - ص / ٣٥ .

(٤) الحشر / ١٠ .

(٥) إبراهيم / ٣٦ .

(٦) التحريم / ٨ .

(٧) هود / ٤٥ .

يريد أن يسأل سؤالاً لا يدري قبوله ولكنه اقتحمه لأن المسؤول له من أهله فله عذر الشفقة عليه . وتأكيد الخبر بـ(إنّ) للاهتمام به »[١] .

(٣) طلب النصرة والعون من الله إظهاراً للضعف وشدة الحاجة :

من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ... ﴾[٢] « فتأكيد الخبر بـ(إنَّ) للاهتمام بما استعمل فيه من التحسر والاستنصار »[٣] وفي قوله تعالى: ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾[٤] .

جاءت الجملة الاسمية مؤكدة لإثبات جرمهم . فلا طاقة لموسى بهم ، لذا طلب العون من ربه . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٥] وقوله : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[٦] فالتوكيد بإنَّ والجملة الاسمية دالٌّ على شدة الحاجة إلى النصر والعون من الله عز وجل .

ومن الآيات التي جاء التأكيد فيها إظهاراً للحاجة والضعف وطلباً للعون والمساعدة من الله ما جاء على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[٧] . فهو يبث شكواه إلى الله مظهراً ضعفه وفقره إلى خير ربه .

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ٨٤ .

(٢) نوح / ٢١ .

(٣) التحرير والتنوير / ٢٩ - ٢٠٦ .

(٤) الدخان / ٢٢ .

(٥) الزخرف / ٨٨ .

(٦) القمر / ١٠ .

(٧) القصص / ٢٤ .

وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1] .

نجد التأكيد في هذه الآية الكريمة دالاً على حرصه عليه السلام على ذريته ، ففي هذا التأكيد تظهر العاطفة الأبوية المتأججة شفقةً وحناناً بهذه الذرية الضعيفة التي صور ضعفها هذا بقوله : ﴿ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ... ﴾ فهذا المكان قد خلا من أدنى مقومات الحياة ، فالهلاك محتمل ، وحاجتهم إلى عون الله ورحمته أمر مؤكدٌ، لهذا جاء هذا الدعاء مؤكداً للدلالة على شدة الضعف والحاجة .

ومن الآيات التي جاء فيها التأكيد لإظهار الحاجة والعون قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾[2] فهؤلاء في حاجة إلى عون الله ورحمته لإزالة ما حلَّ بهم من العذاب بسبب إيمانهم الذي جاؤوا به مؤكداً ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ رغبةً وطمعاً في الإجابة .

(٤) الاعتذار والندم والرجوع إلى الإسلام :

قال تعالى : ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3] . غير خافٍ أننا نلمح من خلال تأكيد الداعي للتوبة والإسلام اعتذاراً وندماً عمّا بدر منه، وعزماً صادقاً على العمل الصالح .

---

(١) إبراهيم / ٣٨ .

(٢) الدخان / ١٢ .

(٣) الأحقاف / ١٥ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾[١] فالداعون في هذه الآية الكريمة نراهم يعتذرون عن فعلتهم ويعلنونها توبة خالصة لله . معلنين كذلك رجوعهم إلى الله بكل عزيمة وتصميم مؤكدين هذه العودة وهذا الرجوع ومصرحين بنسبته إليهم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[٢] . فنوح عليه السلام يعتذر عن سؤال الله عن ابنه ، لذا طلب المغفرة من ربه مبيناً أن الله إذا لم يرحمه فمن ذا الذي يرحمه ويغفر له بقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٣] .

ونجد في قوله تعالى على لساني آدم وحواء : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٤] أنهما قد « أكدا جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهاراً لتحقيق الخسران استرحاماً واستغفاراً من الله تعالى »[٥] .

ومن ذلك أيضاً ما جاء على لسان يونس عليه السلام : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٦] . فقد نزّه الله وسبّحه ناسباً الظلم إلى نفسه مؤكداً إيّاه لإظهار التوبة والاعتذار عمّا قام به في حق قومه .

---

(١) الأعراف / ١٥٦ .

(٢) هود / ٤٧ .

(٣) هود / ٤٧ .

(٤) الأعراف / ٢٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٨ / ٦٧ .

(٦) الأنبياء / ٨٧ .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[١] نجد الجملة الاسمية مؤكدة لتظهر مدى « ثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه ، وكل ذلك للجد في الاستدعاء طمعاً في الإجابة إلى ما سألوه من الرجعة وأنَّى لهم ذلك »[٢].

(٥) إظهار اليقين لما سيحصل :

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[٣] فقوله ﴿ أَخَافُ ﴾ جاء محققاً بحرف التأكيد « لأنه أيقن بحصول ذلك[٤] لأنه جبلي عند تلقي التكذيب ، ولأن أمانة الرسالة ، والحرص على تنفيذ مراد الله يحدث ذلك في نفسه لا محالة »[٥] .

(٦) إظهار حقيقة منشأ الإيمان في نفوس الداعين :

قال تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا .. ﴾[٦] فتأكيد الجملة جاء « لإظهار أن إيمانهم ناشيء عن وفور الرغبة وكمال النشاط »[٧] .

---

(١) السجدة / ١٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٧ / ٨٢ .

(٣) الشعراء / ١٢ .

(٤) أي ذلك الخوف .

(٥) التحرير والتنوير ١٩ / ١٠٦ .

(٦) آل عمران / ١٦ .

(٧) تفسير أبي السعود ٢ / ١٦ .

مما سبق نجد أن التـأكيد في الدعـاء القرآنـي لا يعتـد فيـه بـأضرب الخـبر الثلاثة ولا بمقاماتها التنزيلية ، ذلك لأن الخطـاب - الدعـاء - موجـه إلى الله عز وجل . وقد جاء التأكيد فيما سبق مـن الآيـات لأغـراض نفسـية يبثـها الداعي مؤكدة حسب قوتها في نفسه . وقد كثر التأكيد في الحقائق المتعلقـة بالله عز وجل لأن الداعي يشعر بقوتها في نفسه فيُظْهرها قويـة مؤكـدة كمـا أحسها .

ونلحظ كذلك أن التوكيد يكثر بأداة التوكيد « إنَّ » ولعـل ذلـك يرجـع إلى شهرتها في هذا الباب ، أو لأنها أخف وأسرع وقعاً .

المبحث الثالث

التعريف والتنكير

تعد دراسة التعريف والتنكير في الدرس البلاغي من أكثر المباحث البلاغية ثراءً وتنوعاً - ولعل هذا راجع إلى أمرين - الأول : تنوع صور التعريف ، فلكل واحدٍ من تلك الصور دلالته ، وأثره في تلوين العبارة ، وإخراج المعنى على وجه يغاير الآخر . والأمر الثاني : إنَّ دراسة التعريف والتنكير تناولت كل الأسماء الداخلة في تكوين الكلام فكل اسم إمَّا أن يكون نكرة أو معرفة.

وقد أفاض فيه علماؤنا - دراسة وتطبيقاً - فطبقوه على البيان العربي عامة ، والقرآن على وجه الخصوص[1] . حيث ورد فيه ، وفي آيات الدعاء - موضوع الدّراسة - والمتأمل للتعريف والتنكير في آيات الدعاء يجد التعريف بشتى صوره قد حظي بالنصيب الأكبر ، لمجيئه في أكثر من ألف موضع ، ثم يليه التنكير الذي جاء في مائة موضع تقريباً . وهذه الدراسة لا يمكنها الإحاطة بتتبع كل ما جاء في الدعاء القرآني من صورهما . وإنما سنكتفي بعرض نماذج لهما محاولة التركيز على أدّلّها في تحقيق ما أرادت بيانه مستمدة من الله العون والسداد .

---

(١) انظر / الإتقان في علوم القرآن للسيوطي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / المكتبة العصرية بيروت / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / ٢ / ٢٩١ ، والبرهان للزركشي ٤ / ٨٧ ، والطراز للعلوي / ٢٠٨ وما بعدها حيث اكتفى بدراسة المعرف بأل فقط ، والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي / ٥٧ - ٨٣ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ ، والإيضاح للقزويني ٢ / ٩ إلى ٣٩ ، ١٢٨ - ١٢٩ .

أولاً : التعريف في آيات الدعاء :

تنوعت صور التعريف في الدعاء القرآني ، حيث ورد التعريف بالضمير ، والاسم الموصول ، واسم الإشارة ، وبالإضافة ، والعلمية ، والتعريف بأل . وتفاوتت في كثرتها وهي على النحو الآتي :

(١) التعريف بالضمير[١] :

يمكن القول : إن أكثر صور التعريف وروداً في الدعاء هو التعريف بالضمير حيث ورد فيما يقارب خمسمائة موضع . كان في معظمها دالاً على الاختصار ، وفي بعض الأحيان يكون - خاصة الضمير المنفصل حين يقدم يفيد معنى القصر كما في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٢] أي (نعبدك ونستعينك) حيث قصروا العبادة والاستعانة على الله عز وجل وذلك بتقديم ضمير الخطاب وفصله . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٣] . فقصر صفة (الوهاب) على الله فهو لا غيره بيده الهبة المحضة التي يتفضل بها على عباده الصالحين فيغمرهم بها ، وقد بالغوا في هذه الصفة باستعمال صيغة المبالغة (فعَّال) . وجاء القصر السابق عن طريق تعريف الطرفين وتوسيط الضمير المنفصل (أنت) . ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) الضمير الظاهر فقط ، وقد ألَّف ابن الانباري مجلدين في بيان الضمائر الواقعة في القرآن / ذكره السيوطي في الإتقان ٢ / ٢٨١ .

(٢) الفاتحة / ٥ - ٦ .

(٣) آل عمران / ٨ ، ص / ٣٥ .

﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[١] في قصرهم صفتي السمع والعلم على الله عز وجل ، فهو وحده السميع لدعائهما ، العليم بحالهما . مبالغين في ذكر هاتين الصفتين (سميع - عليم) وذلك بذكرهما على صيغة (فعيل) .

ومن الضمائر كذلك ضمير الغائب (هو) فقد ورد في قوله تعالى : ﴿ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[٢] فذكره في الآية مرتين رغبةً في الاختصار بإعادة ضمير الغائب (هو) على الله ، فلا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له المتفرد بالألوهية رب العرش العظيم لا ربَّ له سواه ، فهو الحقيق بالتوكل عليه والإنابة له .

أكثر الضمائر وروداً (ياء المتكلم) و (نا الدالة على الفاعلين) فالداعي المنفرد نراه يخص نفسه بالدعاء طالباً من ربه استجابة دعائه ، وتحقيق رجائه ، وهذا كثير جداً . نحو قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾[٣] . وقوله : ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا ﴾[٤] . وقوله : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[٥] .

---

(١) آل عمران / ٣٥ ، البقرة / ١٢٧ .

(٢) التوبة / ١٢٩ .

(٣) الإسراء / ٨٠ .

(٤) ص / ٣٥ .

(٥) إبراهيم / ٤٠ .

وحين يذوب الداعي في جماعة الداعين نراه يؤثر التعبير بضمير المتكلمين نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(١) . وقوله : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٢) . فالداعي منفرداً كان أو مع جماعة نراه يتجه إلى الله يدعوه راجياً منه القبول . يكثر من ضمائر بعينها حسبما يقتضيه السياق وتتطلبه الحال . وهذه الضمائر لا تخرج عن كونها - غالباً - للمتكلم ، والمخاطب .

٢ - التعريف بالإضافة :

يلي التعريف بالضمير - في الكثرة - التعريف بالإضافة حيث ورد في مائتين وأربعين موضعاً تقريباً . وهناك ألفاظ في الدعاء القرآني كثرت الإضافة إليها من أشهرها :

١ - لفظة (ربّ) - وفي الإضافة إليها أسرار ودقائق :

أولاً : إضافة ربّ للضمير :

في أكثر آيات الدعاء القرآني وردت إضافة ربّ للضمير ، إذ لا تكاد تخلو منه آية ، فقد جاء مضافاً إلى ضمير المتكلم (الداعي المنفرد) أو إلى ضمير جماعة المتكلمين (الداعين) .

---

(١) الفرقان / ٧٤ .

(٢) آل عمران / ٥٣ .

فمن الأول قوله تعالى : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١] . وقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢] . وقوله كذلك : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[٣] . فقولهم (ربِّ) الأصل فيه (يا ربي) ولكن حذفت منه ياء النداء[٤] وياء المتكلم .

ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[٥] . وقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[٦] . فأضيف لفظ (رب) إلى ضمير جماعة المتكلمين (ربنا) . وفي الإضافتين السابقتين تكمن لطائف أسلوبية وأسرارٌ بلاغية .

« فإضافة (رب) إلى ضمير المتكلم المفرد فيها إشعارٌ بالوحدة والانفراد في مناجاة الداعي لربه وطلبه منه ما يصلحه ، وإضافته إلى ضمير الجماعة فيها إشعارٌ بأن الداعين يلهجون بألسنتهم ويتوجهون بقلوبهم إلى الله لتحقيق رغباتهم ، ولهذا فإن الداعي بهذا الدعاء وإن كان فرداً نجده يحرص على التعبير بضمير الجماعة ويدمج ذاته في ذواتهم ولا يفرد نفسه دونهم بل

---

(١) القصص / ٣٣ .

(٢) الصافات / ١٠٠ .

(٣) نوح / ٢٦ .

(٤) سيرد لاحقاً سر حذفها (راجع المبحث الثالث من الفصل الثاني) ص ٢٤٥ .

(٥) البقرة / ٢٨٦ .

(٦) الفرقان / ٦٥ .

يقول : " ربنا " لتنصهر ذواتهم جميعاً وتتوجه إلى رب واحد يحقق له ما يرجونه »[1] هذا ما علل به بعض الدارسين لبلاغة الدعاء في الحديث النبوي إضافة (رب) إلى ضمير المتكلم وإلى ناء الفاعلين ، إذ أنَّ الدعاء قد ورد على لسان الرسول ﷺ فهو يُعلّم النَّاس الدعاء ، وفيه يتحقق ما ذكره الباحث ، غير أنه لا يمكننا الجزم بأن الآيات التي وردت فيها (رب) مضافة إلى ضمير المتكلمين بأنها وردت على لسان متكلم واحد .

(١) ينظر بلاغة الدعاء في الحديث النبوي بتصرف / ١٢٩ .

ثانياً : إضافته للمعرف بأل :

جاءت إضافة (رب) للمعرف بأل في الدعاء القرآني مرتين ، حيث أضيف في الأولى إلى (العرش العظيم) في قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[١] والثانية إلى (العالمين) في قوله تعالى : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] . وفي الإضافة إلى (العرش العظيم) تعظيم وتشريف لهذا العرش ، فهو خلق عجيب لا مثيل له ، وقد وصفه بالعظيم ، لأنه « المحيط بجميع الأجسام الحاوي لسائر الأجرام الذي ثبت بآية الكرسي وغيرها أنَّ ربه أعظم منه لأن عظمته على الإطلاق فلا شيء إلاَّ وهو في قبضته وداخل في دائرة مملكته »[٣] . فتخصيص العرش بالذكر لأنه من أعظم المخلوقات[٤] .

أمَّا إضافته إلى (العالمين) ففيها دلالة على (تمام قدرته ، وحُسن تدبيره)[٥] .

وأنه رب العالمين جميعاً ، تخضع له رقابهم ، فلا ربَّ سواه يعبد ، ربوبيته شاملة عامة تعم السماوات والأرض ومن فيهن .

---

(١) التوبة / ١٢٩ .

(٢) يونس / ١٠ .

(٣) نظم الدرر ٣ / ٤١٠ .

(٤) راجع البحر المحيط ٥ / ٥٣ .

(٥) نظم الدرر ٣ / ٤٢١ .

٢ - لفظ (خير) وما أضيف إليه :

ورد لفظ (خير) في الدعاء القرآني ثمان مرات أضيف في سبع منها ، في قوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[١] . وقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[٢] . وقوله : ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[٤] . وقوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[٥] وقوله : ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٦] . وقوله كذلك : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٧] .

ففي الآيات السابقة أضيف لفظ (خير) لإظهار الأفضلية والخيرية ، في الرحمة والرزق والإنزال والغفران والفتح - أي الحكم والفصل - فالله هو خير من يتفضل بتحقيق تلك المطالب لعباده بمنه وكرمه ، فالإضافة هنا فيها تعظيم لله عز وجل ذلك بأنه فاق كل من يمكن أن يتأتّى منه شيءٌ من تلك

(١) المائدة / ١١٤ .

(٢) الأعراف / ٨٩ .

(٣) الأعراف / ١٥٥ .

(٤) المؤمنون / ٢٩ .

(٥) الأنبياء / ٨٩ .

(٦) المؤمنون / ١٠٩ .

(٧) المؤمنون / ١١٨ .

الأفعال . فهو خيرهم وأفضلهم ، لأنه عندما يقدم ذلك لعباده ، يقدمه بلا عوضٍ ، ويعطيه بلا منَّةٍ ، ويهبه لطالبيه تاماً غير ناقص . بل يتكرم عليهم بفضله وإحسانه ويزيدهم ، على خلاف المخلوقين . فهو لا غيره ، أفضل من تحلى بتلك الصفات .

ومن بديع الإضافات في الدعاء القرآني الإضافة لكاف الخطاب كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾[١] فإضافة (الآيات) إلى الكاف فيها تشريف وتعظيم لها لكونها من عند الله عز وجل فهي أحق أن يستمعوا لتلاوتها ، ويتدبروا معانيها ، ويؤمنوا بما فيها ، لأنها كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ ﴾[٢] وقوله : ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٣] . فإضافة لفظ (الرحمة) إلى الكاف ، تعظيم وتشريف لهذه الرحمة لأنها مستمدة من الله عز وجل فهي واسعة عظيمة تحقيقاً لقوله : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾[٤] . وفي اختلاف حرف الجر في الآيتين أسراره البلاغية الدقيقة ففي الآية الأولى (في رحمتك) دلَّ حرف الجر (في) على أن هذه الرحمة يُدخل فيها وتحتوي المرحومين وتحيط بهم من كل جانب ، فيغمرهم فيضها الرحماني ، وهي الجنة

---

(١) البقرة / ١٢٩ .

(٢) الأعراف / ١٥١ .

(٣) النمل / ١٩ .

(٤) الأعراف / ١٥٦ .

كما قيل . أمَّا الآية الثانية (برحمتك) جاء حرف الجر (الباء) دالاً على السبيل والواسطة للانضمام في زمرة الصالحين من عباد الله ، وذلك السبيل هو الرحمة لا شيء سواها وفي الآية ذاتها نرى إضافة (العباد) للكاف كذلك ، وذلك لإظهارهم بمظهر القدوة التي تُتَّبع ، فيسير المرء على خطاهم ويتحلى بأخلاقهم ، لأنهم عباد الله المعدودون في الأخيار ، ووصفوهم بالصلاح زيادة في التعظيم . وطمعاً في قبول دعائهم بذكر ما يقويه (كالصلاح) .

ومن الإضافة إلى الكاف قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[١] . ففي إضافة (النعمة) إلى (الكاف) تعظيم وتشريف لهذه النعمة ، فهي نعمة جليلة لا يقدر أحدٌ على إيتائها ، وظهرت عظمتها كذلك من إفرادها[٢] ، فقليل من الله كثير . وقيل : إن « إضافة النعمة للاستغراق أي جميع نعمك »[٣] .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[٤] . فإضافة (السبيل) إلى الكاف فيه مزيد تعظيم لهذا السبيل ، لأنه طريق الله الذي اتبعه المؤمنون ، فعملوا بما أمرهم الله به ، وانتهوا عمَّا نهاهم عنه ، طمعاً فيما عنده سبحانه وقد دَلَّ إفراده على أن سبيل الحق واحد ، لا يخفى على كل بصير .

---

(١) النمل / ١٩ - الأحقاف / ١٥ .

(٢) راجع مبحث الإفراد والجمع من هذا البحث / ص ١٩٩ .

(٣) روح المعاني ١٩ / ١٨٠ .

(٤) غافر / ٧ .

ومن الإضافات الثرية في الدعاء قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[(١)] فإضافة الهمزات إلى الشياطين فيه تعظيم وتهويل لهذه الهمزات ، لا لعظم المضاف إليه كالآيات السابقة ، بل لأن الشياطين مما يُحذر منهم لخفائهم وتسلطهم ، وفيها بيان أن هذه الوسوسة وذلك الهمز هو من أعمال الشياطين - خاصة - لهذا يجب التعوذ منهم ومن وساوسهم آناء الليل وأطراف النهار ومن تلك الإضافات ما جاء من إضافة (العذاب) إلى النار والجحيم الذي هو من أسمائها تهويلاً لأمر هذا العذاب ، وتفضيعاً لشأنه، وتعظيماً لبشاعته وعجز الخيال عن تصور ما فيه من صنوف الأهوال، فلفظة الجحيم ذاتها تلقي على هذا العذاب صفة القوة والعظمة لأن كل نار عظيمة في مهواة هي جحيم ، وقيل هي النار الشديدة التأجج[(٢)] . فعذاب النار عذاب لا يطيقه أحد ، لذا طلب الداعون من ربهم الوقاية منه . في قولهم : ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[(٣)] وقولهم : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[(٤)] .

٣ - التعريف (بأل) :

جاء التعريف بأل في آيات الدعاء في أكثر من مائة وستين موضعاً ، وحمل معه من الأسرار واللطائف الشيء الكثير ، وكسا الكلمات التي ارتدته ثوباً من الحسن البلاغي الذي لا نراه إلاّ في هذا النظم المعجز .

---

(١) المؤمنون / ٩٧ .

(٢) لسان العرب / مادة (جحم) .

(٣) آل عمران / ١٦ - ١٩١ .

(٤) غافر / ٧ .

ومن الألفاظ التي جاءت معرفة بأل (لفظة الصراط) في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[١] حيث جاء « مكملاً بكلمة (أل) لأنه الصراط الذي لا يضل بمهتديه لإحاطته ولشمول سريانه وفقاً لشمول معنى الحمد في الوجود كله – وهو الذي تشتت الآراء وتفرقت الفرق بالميل إلى واحد من جانبيه »[٢] .

ومما جاء منه كذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[٣] . فدخول (أل) على (البلد) فيه دلالة على العهد أي مكة المكرمة شرفها الله . وهذا مغاير لما في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[٤] حيث وردت (بلداً) منكّرة وقيل : إن هذا راجع إلى اختلاف الدعائين . فما ورد في البقرة كان أولاً ، حيث سأل عليه السلام البلدية والأمن لهذا المكان المجدب ، أي أن يجعله الله بلداً صالحاً متصفاً بالأمن ، ثم وقع منه الدعاء الثاني (في سورة إبراهيم) الذي « اقتصر على حكاية سؤال الأمن لأن سؤال البلدية قد حكي بقوله : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[٥] إذ المسئول هويها إليهم للمساكنة ... لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية »[٦] . ومنه

---

(١) الفاتحة / ٦ .

(٢) نظم الدرر ١ / ١٨ .

(٣) إبراهيم / ٣٥ .

(٤) البقرة / ١٢٦ .

(٥) إبراهيم / ٣٧ .

(٦) روح المعاني ١٣ / ٢٣٣ ، وانظر تفسير أبي السعود ١ / ١٥٨ – ٥ / ٥٠ .

كذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[١] . حيث عرَّف (القواعد) بأل دون الإضافة (قواعد البيت) فتعريف القواعد بالألف واللام للعهد ذلك لأن البيت « كان مؤسساً قبل إبراهيم فبني على الأساس »[٢] . « ولأن في إبهام القواعد وتبيينها ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين »[٣] .

ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٤] . فقد جاء التعريف في لفظي (الكتاب والحكمة) . وذلك للدلالة على أن هذا الكتاب هو « الكتاب الشامل لكل كتاب »[٥] وهذه الحكمة هي الحكمة البالغة التي لا مثيل لها . ويراد بها السنَّة . فتعريفهما يفيد الاستغراق .

ومنه قوله تعالى على لسان أيوب عليه السلام : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[٦] . حيث عُرِّفت لفظة (الضر) فالألف واللام هنا للجنس ، أي أنه مسني جنس من الضرر لم يعرفه بشر ولا يقوى على تحمله أحد .

---

(١) البقرة / ١٢٧ .

(٢) الكشاف ١ / ١٨٦ .

(٣) المصدر السابق ١ / ١٨٧ .

(٤) البقرة / ١٢٩ .

(٥) نظم الدرر ١ / ٢٤٣ .

(٦) الأنبياء / ٨٣ .

ومن التعريف بالألف واللام تعريف (السيئات) في قوله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1] للدلالة على الجنس وهو صالح لإفادة الاستغراق كذلك[2] . أي قهم جزاء كل السيئات[3] .

٤ - التعريف بالاسم الموصول :

معلوم أن التعريف بالموصولية من « أشيع طرق التعريف سواء في ذلك كلام الله سبحانه وتعالى وكلام الناس ، وذلك لأنه مفرد متضمن جملة ولذلك يتسع لكثير من أحوال المعرّف »[4] فرغم شيوعه لم يرد في آيات الدعاء إلاَّ فيما يزيد على ثلاثين موضعاً . وهو في كل موضع من تلك المواضع يحمل دلالات اقتضاها السياق ، وأثرى بها المعنى لا نكاد نجدها إلاَّ في هذا البيان المعجز .

فمن التعريف بالصلة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[5] . ففي التعريف بالاسم الموصول (الذي) دلالة على أن الذي يقدر على أن يهب الولد لمن فقد أسباب حصوله - نتيجة لكبر سنه أو عقر زوجته - جدير بأن يُحمد ويُثنى عليه . فتعريفه بالموصولية للتوصل إلى هذا المعنى الذي له أهميته في سياق الكلام .

---

(١) غافر / ٩ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٩٣ .

(٣) انظر نظم الدرر ٦ / ٤٨٩ .

(٤) انظر خصائص التراكيب / ١٥٢ .

(٥) إبراهيم / ٣٩ .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[١] . حيث جاءت الصلة لتبرز صفات هؤلاء الذين استحقوا دعاء الملائكة لهم بالمغفرة والوقاية من عذاب الجحيم ، وذلك لتوبتهم واتباعهم سبيل الله عز وجل .

ونراه كذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] . فالتعريف بالصلة في هذه الآية مكّن من وصف هؤلاء الإخوان بالسبق الإيماني ، وبين السبب في الدعاء لهم بالمغفرة ، وقررت الصلة كذلك ما تقتضيه هذه الأخوة من الحقوق فإن « حقاً على المسلمين أن يذكروا سلفهم بخير وأن حقاً عليهم محبة المهاجرين والأنصار وتعظيمهم »[٣] .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾[٤] . وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ ﴾[٥] نرى الموصولية قد وضّحت المراد بهذه النعمة - الموجبة للشكر - فهي نعمةٌ تفضل الله بالإنعام بها على عبده . ووضّحت كذلك المراد بتلك الجنات التي حرص الملائكة على طلبها لأهل

---

(١) غافر / ٧ .

(٢) الحشر / ١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨ / ٩٧ .

(٤) النمل / ١٩ ، الأحقاف / ١٥ .

(٥) غافر / ٨ .

الإيمان بأنها الجنات التي وعد الله عباده بها وذلك عند صلاحهم وامتثالهم لأمره . وقوله كذلك (من صلح) دلَّ الموصول على العموم أي يشمل هذا الوعد كل من اتصف بالصلاح من هؤلاء الآباء ومن الأزواج. وفي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1] وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[2] . نجد (ما) الموصولة قد دلَّتْ على العموم ، حيث بينت في الآية الأولى عموم إيمانهم بكل ما أنزله الله عز وجل ، من كتب سماوية وأحكام شرعية ، وما فيها من حلال وحرام . وفي الآية الثانية بينت أنهم يطلبون من ربهم أن يؤتيهم كل ما وعدهم به على ألسنة رسله من صنوف الثواب الدنيوي والأخروي[3] .

ومثلها ما جاء على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[4] . حيث دلَّت (ما) على العموم ، أي أنني محتاج إلى أي شيء تنزله إليَّ وترزقني إيّاه من خزائن كرمك قلَّ أو كثر[5] .

أمَّا في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا

(١) آل عمران / ٥٣ .

(٢) آل عمران / ١٩٤ .

(٣) راجع التحرير والتنوير ٤ / ٢٠٠ .

(٤) القصص / ٢٤ .

(٥) راجع روح المعاني ٢٠ / ٦٤ .

تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[١] . وقولـه : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ... ﴾[٢] . وقولـه أيضاً : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[٣] . نـرى الاسم الموصول قد دلَّ على استهجان ذكر مراودة امرأة العزيز لسيدنا يوسف عليه السلام . ونسب الدعوة لهذا الفعل لجميع النسوة ، لأنهن لمنه على عدم إجابتـها ، وفي الآية الثانية دلَّ كذلك على استهجان ذكر المعذبين في النار لأعمالهم السيئة التي استحقوا بها دخول النـار والخلود فيـها . بدلالـة قولهـم قبلـه : (نعمل صالحاً) أي نعمل عملاً صالحاً فهم يحاولون ستره لقبحه . وفي الآية الأخيرة نرى سيدنا لوطاً عليه السلام لا يصرح في دعائه بمنكر عمل قومه (اللـواط) استهجاناً له ، فطلب من ربه النجاة من التلبس بمثل عملهم . هذا علـى قـول من أرجع دعاء لوط لطلب النجاة من عملهم هذا .

أمَّا من قال : إن هنالك حذفاً في الكلام تقديره « نجني من شـؤم عذابـهم نتيجة لعملهم هذا »[٤] . (فما) تكون لإفـادة التـهويل والتعظيـم لأمـر هـذا العذاب ، حيث ناسب عذابهم فضاعة عملهم .

٥ – التعريف بالعلمية :

جاء التعريف بالعلمية في أكثر مـن عشـرين موضعـاً في آيـات الدعـاء .

---

(١) يوسف / ٣٣ .

(٢) فاطر / ٣٧ .

(٣) الشعراء / ١٦٩ .

(٤) روح المعاني بتصرف ١٩ / ١١٦ .

وأكثر الأعلام ذكراً لفظ الجلالة (الله) نحو قوله تعالى : ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[(١)] وقوله : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ ﴾[(٢)] وقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[(٣)] . ومرد ذلك ، أن الله هو المتلقي لهذا الدعاء يتجه إليه الداعون بقلوبهم يتلذذون ويتبركون بترديد اسمه سبحانه وتعالى .

يلي لفظ الجلالة أسماء الأنبياء[(٤)] عليهم السلام ، وقد تكرر ذكر بعضهم (كإبراهيم وهارون) في ثلاثة مواضع[(٥)] ، (وإسماعيل وأيوب) في موضعين[(٦)] . ومن الأعلام كذلك (عمران - مريم - فرعون) الذي تكرر ذكره مرتين[(٧)] .

ذكر هذه الأعلام في الدعاء جاء من باب حكاية دعائهم منسوباً إليهم ، أو من باب ذكرهم في سياق الأدعية . وسنكتفي بذكر ما جاء منهم في صلب الدعاء من ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[(٨)] . ومنه كذلك ما

---

(١) التوبة / ١٢٩ .

(٢) الأعراف / ٨٩ .

(٣) يونس / ١٠ - إبراهيم / ٣٩ .

(٤) الأنبياء هم (نوح ، وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وأيوب وموسى وهارون وزكريا وعيسى) .

(٥) البقرة / ١٢٦ ، إبراهيم / ٢٥، الشعراء / ١٣ ، طه / ٣٠، القصص / ٣٤، الممتحنة / ٤ .

(٦) البقرة / ١٢٧ ، إبراهيم / ٣٩ ، الأنبياء / ٨٣ ، ص / ٤١ .

(٧) يونس / ٨٨ ، التحريم / ١١ .

(٨) إبراهيم / ٣٩ .

جاء على لسان امرأة فرعون : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ .. ﴾[1] . فذكر إبراهيم عليه السلام لولديه باسميهما مناسبٌ لمقام الدعاء - فقد وسطه بين دعائين الأول يختص بمكة وطلب الرزق والعمارة لها والثاني يختص به وبذريته من إقامة الصلاة والمغفرة وتقبل الدعاء . فذكر إسماعيل وإسحاق هنا إشارة منه أن من تفضل ومَنَّ عليه بولديه هذين مع ما كان عليه من الكبر ، قادر بأن يستجيب دعاءه ويحقق مراده . وربما لأن المقام فيه إطناب دَلَّ عليه طول هذا الدعاء أو لأن في ذكره لهما نوعٌ من التلذذ ، فقد أعطيهما على كبر .

أمَّا ذكر فرعون في الآية الثانية على لسان آسيا حين طلبت من ربها النجاة من طاغية مصر (فرعون) حيث ذكرته باسمه و لم تقل (زوجي) ، ذلك لاعتقادها بأن عُرى الزوجية قد انفصمت ، واختلال ما بينهما من رباط بسبب اختلاف العقيدة . الذي اختلت معه جميع الروابط حتى الصلات اللفظية . فلم تذكره زوجاً بل نادته باسمه مجرداً وكأنه غريب عنها لا تربطه بها أي صلة . وربما يكون في ذلك تحقير لشأنه .

٦ - التعريف باسم الإشارة :

كان التعريف باسم الإشارة من أقل ألوان التعريف مجيئاً في آيات الدعاء فقد ذُكر في أكثر من عشرة مواضع . منها قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[2] . وقوله : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ

---

(١) التحريم / ١١ .

(٢) البقرة / ١٢٦ .

أَهْلُهَا ﴾[١] وقوله : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[٢] .

فاسم الإشارة في الآيات السابقة كسا المشار إليه حضوراً وتمييزاً ، فكأننا نرى البلد والقرية ماثلين أمامنا نحسهما موجودين معنا . وفي التعبير باسم الإشارة الدال على القريب ما يقوي المعنى فيظهر شدة الالتصاق بين مشاهد الدعاء السابقة وبين القارئ ، وكأنه الناطق بهذا الدعاء .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[٣] وقوله : ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴾[٤] . وقوله كذلك : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٥] وقوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾[٦] . نرى الداعين يعبرون باسم الإشارة حتى يقرروا للمشار إليهم الحكم بمضاعفة العذاب وزيادته كما في الآيتين الأولى والثانية . أو الحكم باستحقاق العذاب أصلاً لجرمهم وعدم إيمانهم كما في الآيتين الثالثة والرابعة وفيها دلالة على « عدم تمكن الإيمان منهم »[٧] . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ

(١) النساء / ٧٥ .

(٢) الأعراف / ١٥٦ .

(٣) الأعراف / ٣٨ .

(٤) ص / ٦١ .

(٥) الزخرف / ٨٨ .

(٦) الدخان / ٢٢ .

(٧) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٧٣ .

فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[١] . فالتعبير باسم الإشارة للبعيد (ذلك) فيه تنويه وتعظيم لهذا الفوز[٢] . فقد خلص من شوائب الكفر ، فهو نعيم خالص من كل ما يكدر صفوه .

(١) غافر / ٩ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٢٤ / ٩٤ .

ثانياً : التنكير في آيات الدعاء :

التنكير له من الأسرار واللطائف التي نراها في آيات الدعاء تنبع من ذات السياق فتخلع على المعنى جمالاً ، وعلى العبارة إعجازاً . مع أنه لم يكن في كثرة التعريف حيث جاء في مائة وأربعة عشر موضعاً ودلّت في معظمها على المعاني الآتية :

١ – التعظيم :

من الآيات التي جاء التنكير فيها دالاً على التعظيم قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾[١] وقوله : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾[٢] . وقوله كذلك : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ ... ﴾[٣] وقوله : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ ﴾[٤] وقوله : ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[٥] وقوله : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا ... ﴾[٦] . تنكير (ملكاً ، وصبراً ، وآية ، ورحمة ، ومائدة ، ومنادياً ..) فيه دلالة على التعظيم أي ملكاً عظيماً ينفرد به ، وصبراً ورحمة عظيمتين لتناسب ما هم فيه من شدة وكرب وآية عظيمة تناسب عظم المعجزة . ثم قس على ذلك تنكير منادياً ومائدة .

---

(١) ص / ٣٥ .

(٢) البقرة / ٢٥٠ ، الأعراف / ١٢٦ .

(٣) آل عمران / ٤١ .

(٤) الكهف / ١٠ .

(٥) المائدة / ١١٤ .

(٦) آل عمران / ١٩٣ .

٢ - التكثير :

تفيد النكرة التكثير ومما جاء منه في الدعاء قوله تعالى : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[١] وقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[٢] وقوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴾[٣] . فتنكير (أفئدة) مطلقٌ يحمل على الكثرة المتعارفة في عمران المدن والأسواق[٤] . وليست الكثرة مطلقاً بل هي كثرة تناسب المكان . ولذلك قال : (من الناس) . وكذلك التنكير في (ذرية) و(أموالاً) أي ذرية كثيرة متتابعة ، وأموالاً كثيرة وافرة ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[٥] حيث دلَّ تنكير (علماً) على الكثرة أي علماً كثيراً .

٣ - التقليل :

ومما جاءت النكرة فيه دالة على التقليل قوله تعالى : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾[٦] أي احلل عقدة من عقد لساني ، فلم يطلب عليه السلام

---

(١) إبراهيم / ٣٧ .

(٢) آل عمران / ٣٨ .

(٣) يونس / ٨٨ .

(٤) راجع التحرير والتنوير ١٣ / ٢٤٢ .

(٥) طه / ١١٤ .

(٦) طه / ٢٩ .

الفصاحة الكاملة[١] ، فقليل منها يكفي لإبلاغ الدعوة إلى فرعون ، لذلك نكّر (عقدة) . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[٢] فالتنكير في (غلاً) معناه أي لا تجعل في قلوبنا ولو قليلاً من الغل لمن آمن بك . ومثله التنكير في ﴿ إِصْرًا ﴾[٣] و﴿ فَرْدًا ﴾[٤] .

٤ - النوعية :

جاءت النكرة دالة على النوعية في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[٥] أي نوعٌ من الخروج يكون سبباً في حصول النجاة المطلوبة . أمّا التنكير في (سبيل) فهو للإفراد أي ولو سبيلاً واحداً .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[٦] : أي أني محتاج إلى نوع من الخير قلّ أو كثر وقيل تنكير خير هنا للتعظيم[٧] . وفي قوله تعالى : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[٨] . تنكير (نصب وعذاب) « للتعظيم أو للنوعية وعدل عن تعريفهما لأنهما معلومان لله »[٩] .

---

(١) راجع الكشاف ٣ / ٥٩ .

(٢) الحشر / ١٠ .

(٣) البقرة / ٢٨٦ .

(٤) الأنبياء / ٨٩ .

(٥) غافر / ١١ .

(٦) طه / ٢٤ .

(٧) راجع روح المعاني ٢٠ / ٦٤ .

(٨) ص / ٤١ .

(٩) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٧٠ .

٥ – العموم والإبهام :

العموم من المعاني التي دلّت عليها النكرة في آيات الدعـاء جـاء ذلـك في قولـه تعـالى : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾[١] . حيث شمل هذا الدعاء كل من اتصف بالإيمان وعمهم .

أمّا تنكير (حسنة) في قوله تعـالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[٢] . أي حسنة عامة جامعة لكل خير .

ومن خلال العرض السابق لصور التعريف والتنكير نوجز ما سبق فيما يلي :

١ – إنَّ أكثر صور التعريف شيوعاً في آيات الدعـاء التعريـف بالإضمار يليه التعريف بالإضافة .

٢ – كثرة ذكر أسماء الأنبياء في آيات الدعـاء ، وهـذا لأنـهم أكـثر من دعا الله عز وجل وذلك لما فيه من لطائف . أولها : إثبات بشريتهم . فهم مع علو أقدارهم ومكانتهم في أقوامهم وعند أتباعهم نراهم يتجـهون إلى الله عز وجل في ذل وخضوع يطلبون منه العون والرحمة . ثانيها : أن فيه تعليماً لمن بعدهم لفن الدعاء وآدابه ، فهم القدوة التي يسير على نهجها أهل الإيمان .

٣ – كثرة الإضافة للفظي (ربَّ – خير) . وذلك لمـا في لفـظ الربوبيـة من معاني التربية والتفضل والإنعام المناسـب لمقام الدعـاء . ولفـظ الخير فيه

---

(١) نوح / ٢٨ .

(٢) البقرة / ٢٠١ .

دلالة على التفضيل والتبجيل لله عز وجل فهو أفضل من دُعي وخير من أجاب . وفيها استعطاف وتذلل .

٤ - أكثر دلالات التنكير شيوعاً في آيات الدعاء دلالة التعظيم . وذلك لرغبة الداعين في كون ما يطلبونه عظيماً سواء حينما يدعون لأنفسهم بالخير أو على غيرهم بالشر .

المبحث الرابع

المشتقات وصيغ الأفعال ودلالاتها البلاغية

يتناول هذا المبحث دراسة المشتقات وصيغ الأفعال ، وبيان دلالاتها البلاغية في آيات الدعاء ، والتي كان لها أثرٌ بالغٌ في أداء المعنى المراد على أكمل وجه وأبلغ صورة .

وغير خاف أن القرآن الكريم (في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به : بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلاَّ مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلاَّ وطنه الأمين ، وقراره المكين ، لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً ، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلا)[1] . والمشتقات وصيغ الأفعال من المفردات التي استثمرت في النص الدعائي على تفاوت في نسبة كلٍّ منها . وقد لفت المفسرون الأنظار إليها مبينين سر إيثارها في البيان القرآني .

والمشتق اسم مأخوذ من الفعل ، وهو بشكل عام (ما أُخذ من غيره ، بأن يكون له أصل ينسب له ، ويتفرع منه)[2] . وللنحاة جهود مشكورة في دراسة المشتق بأنواعه المختلفة ، ما دلَّ منه على ذات متصفة بالحدث كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة ، أو ما دلَّ على ذات فقط

---

(١) النبأ العظيم / د: محمد عبد الله دراز / ط.٤ ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م / ٩٢ .

(٢) النحو الوافي / عباس حسن /دار المعارف بمصر / ط٣ ، ٣ / ١٨٢ .

كالمصدر واسم الآلة والزمان والمكان[١] . وهي جميعاً عدا اسم الآلـة وردت في الدعاء القرآني فقد جاء اسم الفاعل فيه مفرداً ثلاث عشرة مرة نحو (الظالم - عاقر - جامع - صالح) وجاء مجموعاً في إحدى وستين مرة نحو (الرازقين - الراحمين - الشاكرين - الوارثين - الشاهدين) هذا من الثلاثي أما غير الثلاثي فقد جاء في اثنتين وعشرين آية نحو (المستقيم - منادي - مقيم - مخلصين - المسلمين) . ومعلوم أن الاسم لدى البلاغيين يدل على الثبوت والدوام ، وحين نتأمل اسم الفاعل نجده كذلك ، فهو يستخدم في الصفات الثابتة التي لا تتجدد ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٢] ، فالمستقيم وصف للطريق الذي يرجو سلوكه كل إنسان « وهو طريق الحق وقيل ملة الإسلام »[٣] وقد آثر القرآن اسم الفاعل هنا لبيان ثبات استقامة هذا الطريق ، وأنه راسخٌ أبداً ، ولو جاء التعبير بالفعل (يستقيم) لدلَّ على تجدد الاستقامة وتغيرها ، ومن مقتضيات هذا التجدد والتغيير عدم الثبات ، ولذا فمن غير الممكن أن يطلب الداعون سلوك طريق غير ثابت ، فاسم الفاعل كما ترى كان موحياً بالأمان الذي رجاه الداعون .

ونجد القرآن في آيات الدعاء يؤثر التعبير باسم الفاعل عند حديثه عن أهل الإيمان ، حتى يبرز صفاتهم في صورة الثبات والدوام وأنها غير متجددة

---

(١) راجع دراسات في علم الصرف د/ عبد الله درويش / مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ط٣ ، ١٤٠٨ هـ / ٤٥ .

(٢) الفاتحة / ٦ .

(٣) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ١ / ١٣ .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[١] وقوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢] و ﴿ نَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٣] وقوله : ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٤] وقوله أيضاً : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾[٥] وقوله: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[٦]. (فالمؤمنين والمسلمين والصالحين والشاهدين والأبرار) حيت يتأمل القارئ للسياقات القرآنية التي وردت فيها مع الأفعال قبلها (الحقني - توفني - اكتبنا ..) يشعر بمدى حاجة هؤلاء الداعين للانضمام لهذه الفئة التي استطاعت بإسلامها وإيمانها وصلاحها أن تجد ما يفتقده الكثيرون من لذة الإيمان وحلاوته .

وقد عبَّر إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ... ﴾[٧] عن رغبته في إقامة الصلاة وجعل ذلك صفة راسخة ثابتة فيه ، دائم الأداء لها في كل وقت وعلى كل حال هو وذريته ، ولو عبَّر بالفعل (أُقيم) لدلَّ على تجدد إقامته لها ، وليس هذا مراد سيدنا إبراهيم - والله أعلم

---

(١) الأعراف : ١٢٦ .

(٢) يوسف / ١٠١ .

(٣) الشعراء / ١١٨ .

(٤) النمل / ١٩ .

(٥) آل عمران / ١٩٣ .

(٦) المائدة / ٨٣ .

(٧) إبراهيم / ٤٠ .

بمراده - ولكنه لشدة حرصه على الصلاة - لأنها من أفضل القربات لله عز وجل - طلب من الله أن يساعده على الدوام عليها ، لأنه لا صعوبة في آداء الأعمال إنما الصعوبة في الثبات والاستمرار عليها ، قال ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ »[١] .

وزكريا عليه السلام نراه يؤثر اسم الفاعل في دعائه لله وتضرعه إليه قائلاً : ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي [٢]عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ... ﴾[٣] (فعاقراً) وصف لزوجته بعدم قدرتها على الحمل ، ولم يستخدم الفعل (تعقر) لأنه دال على الحدوث والتجدد ، والعقر لا حدوث فيه ولا تجدد .

وفي مقابل الصفات الإيمانية - التي سبق أن أشرنا إليها - (كالمسلمين - الصالحين ...) والتي أضفت على الدعاء مزيداً من القوة ومزيداً من الثبات ، نجد الصفات التي تجسد حال الكفار وماهم فيه من ظلال ، فتزيدها رسوخاً باستعمال اسم الفاعل على نحو قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْقَوْمِ

---

(١) صحيح مسلم مع شرح النووي ، لمسلم بن الحجاج القشيري / مؤسسة قرطبة / الطبعة الثانية / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م / ٦ / ١٠٣ في صلاة المسافرين باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره .

(٢) (امرأتي) استعملها القرآن ولم يقل (زوجتي) لأن الحياة الزوجية فقدت بعض مقوماتها بالعقم ، وما أن أصبحت صالحة للإنجاب آثر أن يطلق عليها (زوجة) . راجع : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعني ١ / ٢٩٥ ، وكتاب الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق / عائشة عبد الرحمن / دار المعارف القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٣) مريم / ٥ .

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١] وقوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢] وقوله : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣] وقوله : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤] .

فعبر القرآن عن هذه الصفات (الكفر - الفسق - الظلم) بالاسم ليُشعر بثبات هذه الصفات ودوامها ، وأنها فيهم إلى يوم الدين لا ينفكون عنها فكفرهم وفسقهم وظلمهم مستمر لا ينقطع ، وثابت لا يزول ، ولو عُبِّر عنها بالأفعال لكانت هذه الصفات متجددة ، فقد يكون كفرهم وفسقهم وظلمهم في أوقاتٍ ثم يزول عنهم ، أي أنه يقع منهم مرة بعد مرة وليس ملازماً لهم . وهؤلاء الكفار بصفاتهم تلك لا مصير لهم سوى النار التي يخلدون فيها فهم أصحابها الدائمون قال تعالى : ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ...﴾[٥] فأصحاب جمع مفرده (صاحب) عَبَّر باسم الفاعل عن هذا الاتصال وهذه الصحبة لبيان ثباتها ودوامها وعدم الفكاك منها تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٦] .

---

(١) البقرة / ٢٥٠ / ٢٨٦ ، آل عمران / ١٤٧ .
(٢) المائدة / ٢٥ .
(٣) الأعراف / ٤٧ .
(٤) يونس / ٨٥ .
(٥) الأعراف / ٤٧ .
(٦) البقرة / ٣٩ .

وقد يراد المبالغة في المشتق (اسم الفاعل) ومن استقراء الآيات وجد أنه غالباً ما يكون في فواصل آيات الدعاء وصف لله عز وجل نحو (الغفور - الرحيم - التواب - العزيز - الحكيم - العليم) قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[١] (فإن معناه : أنك سامع الدعاء غير أن سميع أمدح ، وهو بمعنى ذو سمع له)[٢] وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٣] الوهاب جاءت على وزن فعَّال صيغة مبالغة استعطافاً من الداعين ، وطمعاً في سرعة الإجابة .

ومن المشتقات اسم المفعول حيث كان أقلَّ وروداً من اسم الفاعل ، فقد جاء ست مراتٍ ، خمسٌ منها من غير الثلاثي نحو (محرراً - المحرَّم - المستضعفين - مُمَزَّق) وواحدٌ من الثلاثي هو قوله : ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ في دعاء سيدنا نوح عليه السلام قال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[٤] . ففي هذه الآية الكريمة يصف نوح عليه السلام نفسه بأنه مغلوب بعد أن بلغ به الصبر مبلغه من دعاء قوم ختم الله على قلوبهم - إلاَّ من رحم - فذكر هذه الصفة بصيغة اسم المفعول طمعاً في الإجابة وتعجيل النصر له ، ولم يقل (غُلبتُ) وهذه الفائدة جليلة ، فعلى الرغم من أن سيرة سيدنا نوح عليه السلام تدل أنه لم يرضخ أبداً لكفر قومه وعنادهم ، بل قاوم

(١) آل عمران / ٣٨ .

(٢) تفسير الطبري ٣ / ٢٤٩ .

(٣) آل عمران / ٨ .

(٤) القمر / ١٠ .

ذلك بالدعوة إلى الله ألف سنة إلاّ خمسين مع ما تخللها من الأذى والبلاء ، فقد دعا ربه مظهراً ضعفه وقلة حيلته في قوم تملكت قلوبهم قسوة الظلم وجبروته ، فكانت لفظة (مغلوب) دالة على أن قومه غلبوه . فكان جزاؤهم الطوفان قال تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١] وقوله : ﴿ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾[٢] .

ولا يخفى أن التعبير القرآني بالفعل يشعر بالتجدد والحدوث لهذه الغلبة فقد يكون مغلوباً ، ومرةً غالباً ، أي أنه يمتلك قوة يستطيع الانتصار بها إذا كانت في أوجها ، وقد يتعرض للهزيمة إذا ضعفت ، أمّا اختيار القرآن للفظة (مغلوب) فإنه دال على أنه مغلوب دائماً لا يملك من القوة شيئاً ، سوى ما يرجوه من ربه فهو في حاجة ماسة إلى عون خير معين .

وفي الآية الكريمة: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٣] نجد أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه (بالمستعان) معبراً باسم المفعول عن كرمه وعونه لعباده ليطمئنهم بأن هذا العون دائم مادام هنالك داع يدعو ، فما عليهم إلاّ إخلاص النية وصرف هذه العبادة - الدعاء - إلى الله عز وجل قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٤] وليقولوا :

---

(١) الأنبياء / ٧٧ .

(٢) هود / ٣٧ .

(٣) الأنبياء / ١١٢ .

(٤) غافر / ٦٠ .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[١] . فعون الله مطلبٌ مهم للعباد بدونه لا يقدرون على شيء مما كسبوا .

أمَّا اسم التفضيل فكان أقلَّ وروداً من اسم الفاعل حيث ورد في سياق آيات الدعاء تسع مراتٍ ، منها قوله تعالى : ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ... ﴾[٢] .

فموسى عليه السلام ذكر ذلك ضمن آيات سابقة تتحدث عن (أضخم تكليف تلقاه بشر - عدا رسالة محمد - ﷺ - فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض في زمانه ، وأقدمهم عرشاً ، وأثبتهم ملكاً ، وأعرقهم حضارة ، وأشدهم تعبداً للخلق ، واستعلاء في الأرض ..)[٣] وليس ذلك فحسب بل ما وقع من موسى من قتل القبطي ، فالموقف برمته محتاج إلى القوة والشجاعة في عرض الحجج وإظهار صدق دعوته ، وبطلان ما هم فيه ، وهذا لاشك يتطلب قدرة كلامية ينافح بها موسى عليه السلام عن دعوته ، لذلك طلبها من ربه في شخص هارون حينما قال : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ ﴾ لأنه عليه السلام كان أفصح منه[٤] ، فاستجاب له ربه بقوله :

---

(١) الفاتحة / ٥ .

(٢) القصص / ٣٤ .

(٣) في ظلال القرآن / م ٥ / ٢٠ / ٢٦٩٠ .

(٤) لأنه كما ذكرت الروايات قد تعرض موسى عليه السلام وهو صغير لحادثة جعلت في لسانه لكْنة لذلك دعا في سورة طه (٢٧ - ٢٨) قائلاً : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ .

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... ﴾[١] .

وورد أيضاً اسم التفضيل في تذييل بعض الآيات الدعائية ، في موازنة بين بعض صفات الله عز وجل وصفات غيره لبيان فضله سبحانه في تلك الصفات ، وأنه هو الأفضل دوماً ، ومعلوم أن لله صفات انفرد بها ، ولا يمكن أن يشاركه فيها أحد كالخلق والإحياء والإماتة ، إلاَّ أن هنالك بعض الصفات التي يمكن أن تطلق على خلقه ولكن بكيفية مختلفة ، كالرحمة والحكم وغيرها .

وقد وردت الرحمة في سياق المفاضلة في أفعل التفضيل في آيات الدعاء على لساني أيوب وموسى عليهما السلام ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٢] وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٣] وفي قولهما : (أنت أرحم الراحمين) تتجلى بوضوح قوة إيمانية عرفت الرحمة وذاقت حلاوتها من قبل حيث تعاملا مع بشر تحلُّوا بهذه الصفة ، فأيوب عليه السلام ذاق رحمة زوجته وذلك أثناء مرضه ، فصبرها ووقوفها إلى جانبه عندما تخلى عنه الجميع لهو الرحمة بعينها ، أما موسى فعرف هذه الرحمة صغيراً على يد آسيا امرأة فرعون التي عطفت عليه وربته ، وعرفها أيضاً كبيراً

---

(١) القصص / ٣٥ .

(٢) الأنبياء / ٨٣ .

(٣) الأعراف / ١٥١ .

على يد الشيخ[١] الذي سقى لبناته ، فآواه وصاهره ، فإذا كان هذا حال الرحمة البشرية فالرحمة الإلهية أجل وأعظم ، لأن (الرحمة منطوية على معنيين : الرقة والإحسان ، فركّب تعالى في طباع الناس الرقة وتفرد بالإحسان)[٢] . فرحمته إحسان منه وتفضل على عباده .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[٣] فقد ورد على لسان نوح عليه السلام يصف به الله تعالى بأنه أفضل وأحكم من أي حاكم[٤] .

وقد يأتي اسم التفضيل في سياق الآية الدعائية ، ليفاضل بين أمرين عارضين ، كما في خطاب يوسف عليه السلام الذي يوضح فيه إيثاره للسجن على ما يدعونه إليه قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٥] . فأحب هنا اسم تفضيل ، وللمفسرين حوله آراء عديدة ، من ذلك قول أبي حيان في البحر : « أحب هنا ليست على بابها في التفضيل ، لأنه لم يحب ما يدعونه إليه قط وإنما هذان شران ، فآثر أحد الشرين على الآخر ، وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة ، لكن لما

---

(١) تشير بعض الروايات أن الشيخ هو نبي الله شعيب . راجع : قصص الأنبياء لابن كثير ١ / ٢٨٩ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣ / ٥٣ (بصيرة في الرحمة والرحمان والرحيم) .

(٣) هود / ٤٥ .

(٤) أفعل التفضيل (أرحم – أحكم) في الآيات السابقة قيل أنها ليست على بابها من أنها للمفاضلة . راجع : روح المعاني للألوسي ١٢ / ٦٨ .

(٥) يوسف / ٣٣ .

يترتب على تلك اللذة من معصية الله وسوء العاقبة ، لم يخطر له ببال ، ولما في الآخر من احتمال المشقة في ذات الله والصبر على النوائب ، وانتظار الفرج ، والحضور مع الله تعالى في كل وقت داعياً له في تخليصه . آثره ثم ناط العصمة بالله واستسلم لله كعادة الأنبياء والصالحين ، وأنه تعالى لا يصرف السوء إلاّ هو »[١] .

غير أنّ الشيخ الطاهر بن عاشور يرى أنّ أفعل التفضيل على حقيقته ولا داعي إلى تأويله (فالإخبار بأنّ السجن أحب إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه إذ لا فائدة في إخبار من يعلم ما في نفسه)[٢] .

ومن الكلمات التي تستعمل استعمال أفعل التفضيل (خير)[٣] نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٤] وقوله : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[٥] فخير أتت هنا لإظهار فضل الله على غيره في صفتي الرحمة والإنزال .

أمّا اسم المكان فقد ورد في آيات الدعاء ثلاث مرات في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[٦] . (فقد

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٧٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٦٥ .

(٣) راجع دراسات في علم الصرف / ٧٨ .

(٤) المؤمنون / ١٠٩ ، ١١٨ .

(٥) المؤمنون / ٢٩ .

(٦) الإسراء / ٨٠ .

اختير الاسم المشتق من الفعل المتعدي للإشارة إلى أنَّ المطلوب دخول وخروج ميسران من الله تعالى وواقعان بإذنه وذلك دعاء بكل دخول وخروج مباركين لتتم المناسبة بين المسؤول وبين الموعود به وهو المقام المحمود . وهذا السؤال يعم كل مكان يُدْخل إليه ومكان يُخرج منه)[١][٢].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾[٣] نجد اسم المكان (منزلاً) دلَّ على مكانٍ للنزول ، يكون فيه من البركة والنماء ما نوح وأصحابه في حاجة إليه بعد الطوفان .

تناولنا فيما سبق المشتقات وبينا ما تومض به من أسرار بلاغية اقتضاها السياق ، والآن ندلي بدلونا في بيان ما للأفعال في صورها المختلفة من أثر في سياقات الدعاء القرآني ، وسندرسها على التفصيل الآتي :

أ - دلالة الفعل على التجدد والحدوث .

ب - إيثار أفعال دون غيرها .

جـ - الأفعال المتقاربة الدلالة .

---

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ١٨٦ .

(٢) يرى البعض أن (مدخل - مخرج) مصدران ميميان وليسا اسما مكان . راجع : روح المعاني للألوسي ١٥ / ١٤٤ ، دراسات في علم الصرف / ٦٧ .

(٣) المؤمنون / ٢٩ .

أ - دلالة الفعل على التجدد والحدوث :

إن الإخبار بالفعل له مزية (فموضوعه على أنّه يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء)[(١)] أمّا الاسم فإنه (ثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء)[(٢)] . وقد يقتضي السياق التعبير بالفعل دون الاسم من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٣)] فالأفعال (يتلو - يعلمهم - يزكيهم) وردت في دعاء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، لأن المقام اقتضاها ، فقد قال : يتلوا ، ولم يقل تالياً « للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته »[(٤)] وعبر بالأفعال كذلك لاستحضار الصورة في الأذهان ، ونجد في الآية ملمحاً رائعاً في دقة اختيار القرآن لحروف الجر حينما قال : ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ « أي من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبي ﷺ فهو الذي أجيب به دعوتهما عليهما السلام »[(٥)] .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ

---

(١) دلائل الإعجاز / ١٧٤ .

(٢) المصدر السابق / ١٧٤ .

(٣) البقرة / ١٢٩ .

(٤) التحرير والتنوير ١ / ٧٢٣ .

(٥) تفسير أبي السعود ١ / ١٦٢ .

﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾[(١)] عبر بالفعل ينادي على صيغة المضارع دون الماضي على الرغم من أن الفعل قبله (سمعنا) فعل ماضٍ فيمكن أن يقال : سمعنا منادياً نادى للإيمان ، لكن لأن النداء هنا مفيدٌ بالإيمان ، والدعوة إلى الإيمان لابد أن تكون مستمرة متجددة ، فالإيمان كالنبتة لابد من تعهده بالرعاية والسقاية حتى يخضر ويثمر ، لأنه متى ما أُهمل وتُرك يبس وتحطم ، فاقتضى السياق التعبير بالفعل المضارع ليدل على ضرورة تكرار النداء وحدوثه باستمرار لإحياء القلوب بالإيمان مع ما في التعبير بالمضارع " ينادى " من استحضار لهذه الصورة حتى لكأنها ماثلة للعيان .

وفي قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)] نجده آثر التعبير بالفعل المضارع يترقب ليصور « هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة ، وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ »[(٣)] فخوفه ثابتٌ لذا عبر عنه بالاسم (خائفاً) أما ترقبه يمنة ويسرة فمتجدد فكان حقه التعبير عنه بالفعل المضارع .

وفي قوله تعالى : ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[(٤)] نلحظ أن

---

(١) آل عمران / ١٩٣ .

(٢) القصص / ٢١ .

(٣) في ظلال القرآن م٥ / ٢٠ / ٢٦٨٢ ، ٢٦٨٣ .

(٤) المائدة / ٨٣ .

الفعل تفيض دلّ على حال النصارى عند سماعهم الحق من رسول الله ففاضت أعينهم من خشية الله ، فدمعهم مستمر لاستمرار مسببه وهو سماع الحق وتدبر معانيه ، فعبر عنه بالفعل ليدل على تجدد حدوثه واستمراره ، أيضاً في استخدام الفعل (اكتبنا) حيث « رغبوا في أن يكونوا عنده في عداد الشاهدين بالحق من مؤمني الأمم ، وعبروا عن فعل الله ذلك لهم بلفظ : فاكتبنا ، إذ كانت الكتابة تقيد وتضبط ما يحتاج إلى تحقيقه وعلمه في ثاني حال »[1] .

(١) البحر المحيط ٣ / ١٧٤ .

ب - إيثار أفعال دون غيرها .

هنالك أفعال لا يمكن أن يؤدي غيرها معناها لذلك آثرها القرآن في نظمه ، فكانت قوية الدلالة تصل إلى قلب القارئ قبل أذنه وتؤثر في نفسه من ذلك الفعل (أفرغ) قال تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[١] وقوله : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[٢] . ففي اختيار الفعل أفرغ ما « يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالاً للهول والمشقة »[٣] فهو « سؤال بأن يصب عليهم الصبر حتى يكون مستعلياً عليهم ، ويكون لهم كالظرف وهم كالمظروفين فيه »[٤] ويدل لفظ أفرغ على كثرة المفرغ وهو الصبر ، فالسياق تطلب هذا الفعل دون غيره لأن الموقف موقف الشدة والكرب في ملاقاة العدو ، فرداً كان كفرعون ، أو جماعة كجالوت وجنده . والفعل (ثبِّت) قوّى المعنى وأظهر شدة الموقف أيضاً فقد صور حاجتهم للثبات النفسي على الإيمان والرسوخ عليه ، وليس المراد البقاء في مكان واحد - في أرض المعركة - لأن في ذلك هلاكهم ، لكن « ثبات القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة

---

(١) البقرة / ٢٥٠ .

(٢) الأعراف / ١٢٦ .

(٣) في ظلال القرآن م١ / ٢ / ٢٦٩ .

(٤) البحر المحيط ٢ / ٥٩٢ .

لا مجرد التقرر في حيز واحد »[١] . فثبات أقدامهم في المعركة هو إنعكاس طبيعي لشعورهم الداخلي نتيجة إفراغ الصبر عليهم .

ومن الأفعال التي آثرها القرآن أيضاً الفعل (هب) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[٢] على لسان سيدنا زكريا عليه السلام حيث آثر تقديم تضرعه لله معبراً فيه عن حاجته للولد بالفعل (هب) « لأن الهبة إحسانٌ محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً للواهب ، ولما كان كذلك يكاد يكون على سبيل مالا تسبب فيه : لا من الوالد لكبر سنه ، ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد ، فكان وجوده كالوجود بغير سبب أتى هبة محضة منسوبة إلى الله تعالى بقوله : ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من جهة محض قدرتك من غير توسط سبب »[٣] .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[٤] وفي قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[٥] آثر القرآن الفعل (أوزعني) على غيره حيث أن معناه « ألهمني وأولعني به »[٦] أي « اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي وكلماتي وعباراتي وأعمالي وتوجيهاتي . اجمع طاقاتي

(١) تفسير أبي السعود ١ / ٢٤٤ .

(٢) أل عمران / ٣٨ .

(٣) البحر المحيط ٣ / ١٢٦ .

(٤) النمل / ١٩ .

(٥) الأحقاف / ١٥ .

(٦) لسان العرب مادة (وزع) ١٥ / ٢٨٧ .

كلها أولها على آخرها وآخرها على أولها (وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني) لتكون كلها في شكر نعمتك عليَّ وعلى والديَّ . وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان عليه السلام في تلك اللحظة ويصور نوع تأثره وقوة توجهه وارتعاشة وجدانه وهو يستشعر فضل الله الجزيل ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال »[1] وتأمل روعة البيان القرآني في تقييده الضحك بالتبسم وما يدل عليه من الأسرار البلاغية التي لا نجدها إلاَّ في هذا النظم المعجز[2] .

ومن الأفعال التي آثرها القرآن أيضاً الفعل (نجي)[3] ومن صيغه (انجيتنا)[4] (نجنا)[5] ففي هذا الفعل تظهر رغبة الداعين الملحة في سرعة

---

(١) في ظلال القرآن م٥ / ١٩ / ٢٦٣٦ ، ٢٦٣٧ .

(٢) الحال ضاحكاً « هي التي كشفت عن فيض السرور وامتلاء النفس بمشاعر الإعجاب وإنشراح صدر سليمان بإدراكه ما قالته النملة ، وبمضمون ما قالت . لقد هزت عبارة النملة مشاعر سليمان هزاً عنيفاً ، هزته بحسن منطقها ، وهزته بحرصها على بني جنسها ، وهزته بأدبها وهي تنزهه وجنوده عن تعمد إهلاك قومها : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ففاضت هذه المشاعر على وجهه وثغره ، وكان إغراقه في الضحك بقدر ما استغرقت مشاعره هذه المعاني ، فإبراز هذه المشاعر لا ينهض به إلاَّ هذه الحال بما تنبئ عنه من فيض امتلاء النفس بالسرور » . من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني د/ محمد الأمين الخضري / بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة - العدد ١١/ ١٤١٣هـ- ١٩٩٣ م .

(٣) الشعراء / ١٨ - ١٩ ، التحريم / ١١ .

(٤) يونس / ٢٢ .

(٥) يونس / ٨٦ .

الخلاص مما هم فيه « فنجا نجواً ونجاءً ونجاة ونجاية خَلَص »[١] وهو باشتقاقاته المختلفة لا يكاد يُذكر إلاَّ عند الشدة والكرب العظيم[٢] ، كطلب النجاة من النار والعذاب ، أو من عدو غاشم متجبر ، أو من الإهلاك بالغرق . فالنجاة إذن طلبٌ للخلاص من كل ما سبق . وقد يتكرر ذكر الفعل (نجني) في دعاء بعض الداعين من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] وقوله : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[٤] . فالدعاء السابق ورد على لسان لوط عليه السلام ، يطلب فيه من ربه النجاة من قومه ، فهم قوم سوءٍ حيث أنهم ابتدعوا أمراً مُنكراً لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، بل سنُّوه فيمن بعدهم ، ولقبح هذا العمل لم يصرح به عليه السلام بل عبَّر عنه بالاسم الموصول قائلاً : ﴿ مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[٥] بل نراه يصف قومه بالمفسدين في قوله : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٦] « وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٥ / ٢٠ .

(٢) راجع : المعجم المفهرس في الآيات المندرجة تحت مادة (نجا) ٨٦١ / ٨٦٢ .

(٣) الشعراء / ١٧ - ١٨ .

(٤) الشعراء / ١٦٩ .

(٥) وقال يعملون ولم يقل يفعلون ، لأن العمل لما كان من امتداد زمان ، أما الفعل فيكون بسرعة ، وعملهم هذا أخذ زماناً حتى صار سُنَّة متبعة إلى يومنا هذا ، فآثر الفعل يعملون .
راجع : الاتقان للسيوطي ٢ / ٣٠٨ .

(٦) العنكبوت / ٣٠ .

لهم العذاب »[١] فتكرار الفعل يكشف عن رغبته في سرعة الخلاص من هؤلاء القوم .

وقد تكرر الفعل (نجني) أيضاً على لسان امرأة فرعون - آسيا بنت مزاحم - التي دعت ربها طالبة النجاة من طاغية مصر في قولها : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] . ففي إيثارها الفعل (نجني) وتكرارها إياه ، ما يدل على ضعفها كأنثى وأنها في حاجة ماسة إلى الخلاص من الزمرة الفاسدة وعلى رأسها فرعون ، الذي أفردته عن القوم لسوء عمله وعظم ما فعله بالمؤمنين أمثال السحرة الذين آمنوا بموسى ، ونجدها في هذه الآية قد جمعت بين (عندك وفي الجنة) حيث « طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولها ﴿ فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى ، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها ﴿ عِندَكَ ﴾ »[٣] . فقصر فرعون - حيث المتع الكاملة - لم يكن مكاناً آمناً لها ولإيمانها وهي الأنثى الضعيفة التي لم تؤثر فيها قوة فرعون وتجبره ، ولم تمنعها من الاتجاه إلى الله طالبةً منه النجاة .

---

(١) تفسير البيضاوي ٧ / ٩٩ بهامش حاشية الشهاب .

(٢) التحريم / ١١ .

(٣) الكشاف ٤ / ٥٥٩ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾[١] تجد لفظة يصطرخون « وهي بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك ، الذي يكاد يخترق صماخ الأذن ، تمثل الموقف أدق تمثيل . فإن الصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدوٍ يختلط بعضه ببعض - بدءاً ونهاية - ويملأ المكان صخباً ورنيناً »[٢] .

ولا يمكن الشعور بذلك الإحساس لو وضعت كلمة (يدعون) مكانها، لرقتها وهدوئها .

فكلمة (يصطرخون) « تلقي إليك ظلَّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه ، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه »[٣] .

---

(١) فاطر / ٣٧ .

(٢) خصائص التعبير القرآني ١ / ٢٦٣ .

(٣) التصوير الفني في القرآن / سيد قطب / دار الشروق / ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م / ٩٢ .

جـ - الأفعال المتقاربة الدلالة :

تتقارب بعض الأفعال في دلالتها حتى يعتقد أنها تحمل المعنى ذاته ، فيحاول البعض تفسير أحدها بذكر مرادفه ، مع أن هنالك فروقاً دقيقة بينها، وهي فروق تظهر في سياقات هذه الأفعال ، فكل فعل له دلالته الخاصة به حتى أن غيره ينبو به المكان إن حلَّ به نحو ما نرى في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾[١] فالفعلان (اغفر وكفِّر) قد يتبادر إلى الذهن فور سماعهما أنهما يؤديان المعنى ذاته ، مع أنه لو كان الأمر كذلك لما خولف بين مفعوليهما ، حيث جعل الغفران للذنوب ، والتكفير للسيئات .

وعند تأمل هذين الفعلين نجد أن الغفران من الله « هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب »[٢] لذا جاء مناسباً (للذنوب) ، فالذنب « يستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً بذنب الشيء ولهذا سمي الذَّنْبُ تبعة اعتباراً لما يحصل من عاقبته »[٣] . أمَّا التكفير وهو الستر والتغطية[٤] فقد ناسب (السيئات) حيث إن السيئة « الفعلة القبيحة ، وهي ضد الحسنة »[٥] والسيئة أخف من الذنب . فالغفران للذنوب لأنها أعظم ، ومتى ما وقع الإنسان فيها فهو في حاجة إلى الوقاية والحماية من الوقوع في عاقبتها - العذاب - فنراه يطلب من الله غفرانها .

---

(١) آل عمران / ١٩٣ .

(٢) مفردات الراغب / مادة (غفر) / ٣٦٢ .

(٣) مفردات الراغب / مادة (ذنب) / ١٨١ .

(٤) مفردات الراغب / مادة (كفر) / ٤٣٥ .

(٥) مفردات الراغب / مادة (سوأ) / ٢٥٣ .

أمّا السيئات فلأنها أخف فطلب سترها وتغطيتها كفيل بأن يصيّر الإنسان بمنزلة من لم يعمل سيئة . وأيضاً كما قال الطيبي : « لأن الغفران مختص بفعل الله والتكفير قد يستعمل في العبد كما يقال كفَّر عن يمينه وهو مقتضى أنَّ الثاني أخص من الأول »[١] .

ومما تقاربت دلالته الفعلان (مس – وأصاب) وقد وردا في غير الدعاء في قوله تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾[٢] . وفي الدعاء ورد الفعل (مسَّ) دون (أصاب) وذلك لأن السياق اقتضى هذا الفعل . ولا يمكن القول إن الفعلين مترادفان . يظهر ذلك في قول أيوب عليه السلام : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[٤] . فهو لم يطلب الشفاء من ربه صراحة بل تعرضاً ، وليس ذلك فحسب بل إن الفعل (مسني) الذي ذكره في دعائه ناسب حالته الرافضة لدعاء الله – ليس تكبراً والعياذ بالله بل لشعوره بضآلة مصابه في مقابل النعيم الذي كان فيه وحياءً منه – فالفعل (مسني) من المس وهو : « الإصابة الخفيفة والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله إذ جعل ما حلَّ به من

(١) حاشية الشهاب ٣ / ٩١ .

(٢) آل عمران / ١٢٠ .

(٣) الأنبياء / ٨٣ .

(٤) ص / ٤١ .

الضر كالمس الخفيف »[(١)] .

أيضاً من الأفعال التي تقاربت دلالتها الفعلان (أعطى - وآتى) .

وقد ورد الإيتاء في الدعاء دون الإعطاء في آيات عِدَّة[(٢)] . ويُلحظ صعوبة التفريق بينهما عند الكثيرين ، لكن بتأمل السياقات القرآنية لهما يمكن القول بأن الإيتاء أقوى من الإعطاء ، ويدل على عظم المأتي على نحو ما صرح به الجويني[(٣)] في قوله : « [الإتيان][(٤)] أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله ، لأن الإعطاء له مطاوع .... والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له »[(٥)] . وحين تتأمل ما طلبه الداعون من ربهم وإيثارهم الفعل (آتي) دون (أعطي) الذي نجد فيه مزية أخرى غير القوة والعظمة تكمن في خفته على اللسان وسرعة انطلاقه وفيه كذلك دلالة على أنَّ الإيتاء كالهبة المحضة بلا طلب على خلاف الإعطاء الذي لابد أن يسبقه طلب . تجد أنَّ المطلوب كان عظيماً فناسبت عظمته استخدام

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٦ .

(٢) البقرة / ٢٠١ ، آل عمران / ١٩٤ ، يونس / ٨٨ ، يوسف / ١٠١ ، الكهف / ١٠ ، الأحزاب / ٦٨ ، الأعراف / ٣٨ .

(٣) أبو المعالي ركن الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، الملقب بإمام الحرمين : أعلم المتأخرين ، من أصحاب الشافعي ، ولد في جوين سنة ٤١٩ هـ وتوفي بنيسابور سنة ٤٧٨ هـ ، له مصنفات كثيرة منها : البرهان في أصول الفقه ، الإرشاد ، الشامل في الدين .

انظر ترجمته في : الأعلام ٤ / ١٦٠ .

(٤) لعلهاء (الإيتاء) فيكون في الكلمة تصحيفاً بدليل قوله في السطر الأخير من نصه « فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء » راجع البرهان ٤ / ٨٥ .

(٥) البرهان في علوم القرآن ٤ / ٨٥ .

الفعل (آتي) ويتجلى ذلك بوضوح على ألسنة أصحاب الكهف في قولهم : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ... ﴾[١] ، وألسنة المعذبين في النار : ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[٢] وقوله : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[٣] . فطلب الرحمة على ألسنة أهل الكهف ناسبه استخدام الفعل آتي ، فرحمة الله لهم وهم في هذا الكرب والضيق مطلبٌ مهم وعظيم . كذلك طلب مضاعفة العذاب لمن أضل هؤلاء المعذبين في الدنيا هو نوع إنتقام ، فهم تحملوا وزرهم ووزر هؤلاء الذين أضلوهم فاستحقوا مضاعفة العذاب لهم . وهذا أمرٌ مهم كذلك بالنسبة لهؤلاء المعذبين .

ولعلك أيها القارئ الكريم من خلال ما تقدم تكون على يقين بأن الدعاء القرآني - كآيات القرآن كلها - بلغ الغاية في إيثار أفعالٍ دون غيرها لما تؤذن به من أسرار بلاغية ، ومن خلال ما سبق وجدنا أنه لا ترادف في القرآن حيث لكل فعلٍ معناه المستقل الذي يؤديه في قوة وجمال ، وكيف أن بعض الأفعال تتقارب دلالتها ولا يستطيع القارئ التفريق بينها إلاَّ بدراسة سياقاتها ، وتلَمُّس معانيها الخفية . وهذا نمطٌ فريدٌ معجز من القول لا نكاد نظفر على مثله إلاَّ في هذه المعجزة الخالدة .

(١) الكهف / ١٠ .

(٢) الأعراف / ٣٨ .

(٣) الأحزاب / ٦٨ .

المبحث الخامس

دلالات إنما والنفي والاستثناء

النفي والاستثناء وإنما طريقان من طرق القصر كان يفترض دراستهما معاً في مبحث مستقل يحمل عنوان القصر ، لكونهما من أبرز طرقه الدالة عليه ، إلى جانب الطرق الأخرى ، كالتقديم ، والعطف ونحوهما ، إلاّ أنَّ طبيعة البحث اقتضت تقسيم الموضوع الواحد ، ودراسة كل جزئية منه على حده ، بحيث نفرد مبحثاً لدراسة إنما والنفي والاستثناء ودلالاتها البلاغية ، ومبحثاً آخر نفرد فيه التقديم بحديث مستقل[1] لكونه ليس دالاً في كل حالاته على القصر ، بل نرى البلاغيين ينصون على أن التقديم يكون للعناية والاهتمام بالمقدَّم ، وقد أشار سيبويه[2] إلى هذه الدلالة عند حديثه عن الفاعل والمفعول قائلاً : « كأنهم يقدِّمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يُهمَّانهم ويعنيانهم »[3] .

هذا ما يتعلق بالتقديم ، أمَّا العطف بلا وبل ولكن ، فمن خلال تتبع الآيات نجده لم يرد في آيات الدعاء .

وترك دراسة العطف بهذه الأدوات ضمن موضوع القصر يرجع إلى أمرين :

---

(١) راجع المبحث الأول / الفصل الأول ص ٩٥ .

(٢) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه ولد سنة ١٤٨ هـ وتوفي سنة ١٨٠هـ. انظر الأعلام ٥ / ٨١ .

(٣) دلائل الإعجاز / ١٠٧ .

أولاً : عدم ورودها في آيات الدعاء .

ثانياً : عدم دلالتها على القصر أخذاً برأي الإمام بهاء الدين السبكي[١] الذي قال فيه : « العطف بلا فأي قصر فيه ، إنما فيه نفي وإثبات فقولك زيدٌ شاعر لا كاتب لا تعرض فيه لنفي صفة ثالثة والقصر إنما يكون بنفي جميع الصفات .... ، وأما العطف ببل فأبعد .... »[٢] .

ولو تركنا التقديم والعطف جانباً ، فإنه لا يتبقى لدينا من طرق القصر سوى طريقي إنما والنفي والاستثناء .

وهذان الطريقان قد وردا في آيات القرآن الكريم كثيراً ، وكان للدعاء نصيبٌ منهما ، وسنتناولهما بالدراسة والتحليل في الصفحات التالية :

دلالة إنما :

إنما أداة رقيقة ناعمة ، تتكون من « إنَّ التي للتأكيد ، وما المؤكدة لا النافية »[٣] وتستعمل في الأمر الذي لا ينكره المخاطب ولا يجهله أو ما ينزل منزلته، وهي في رأي الشيخ عبد القاهر : « أقوى ما تكون وأعلق ما تُرى بالقلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه »[٤] .

---

(١) بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي ، فاضل ولي قضاء الشام ولد سنة ٧١٩ هـ وتوفي سنة ٧٦٣ هـ مجاوراً بمكة . ومن مصنفاته : عروس الأفراح ، شرح تلخيص المفتاح .
انظر ترجمته في : الأعلام ١ / ١٧٦ .

(٢) عروس الأفراح / بهاء الدين السبكي / ضمن شروح التلخيص / دار الكتب العلمية / بدون / ٢ / ١٨٧ .

(٣) الإيضاح / م ١ / ج٢ / ٢٨ .

(٤) دلائل الإعجاز / ٣٥٤ .

إذاً فأقوى دلالاتها القصر الذي تدل عليه في أصل وضعها يليه التعريض.
وقد وردت في القرآن الكريم مائة وسبعاً وثلاثين مرة[١] ، كان نصيب الدعاء منها آية واحدة ، جاءت على لسان يعقوب عليه السلام حينما شعر أنَّ حزنه على يوسف قد بلغ مبلغه وأطبق على صدره ، فبثه قائلاً : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٢] أي « إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه ، فخلوني وشكايتي »[٣].

فيعقوب عليه السلام صوّر ما ألمَّ به من شجنٍ وحزن نتيجة فقد ولده ، وعبر عن ذلك أداة هادئة ناسبت الجو العام للآية الذي يمتاز بهدوء الجرس ، ومرد هدوئه ناتج عن يقينه بأنَّ الله هو الواحد القادر على تفريج ما به من كربٍ وهمٍّ لذلك قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٤] « أي من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب »[٥] .

وإنما في الآية لم تأتِ للتعريض ، إنما جاءت للقصر في أمرٍ لا ينكره المخاطب ولا يجهله فقد قصر يعقوب عليه السلام بثَّ حزنه وشكايته إلى الله دون غيره ، من باب قصر الصفة على الموصوف قصر حقيقياً .

---

(١) راجع معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم / للدكتور إسماعيل عمايره ، والدكتور عبد الحميد السيد / مؤسسة الرسالة / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٢٥ - ١٥٧ .

(٢) يوسف / ٨٦ .

(٣) الكشاف ٢ / ٤٨٠ .

(٤) يوسف / ٨٦ .

(٥) الكشاف ٢ / ٤٨٠ .

ولعل استعمال إنما في الدعاء مرة واحدة ، رغم كثرة ورودها في القرآن الكريم في غير الدعاء يثير تساؤلاً عن السر في ذلك ؟ مما يستوجب علينا معرفة المعاني التي دارت حولها إنما في الآيات كلها ، وبالرجوع إليها نجدها كالآتي :

(أ) جاءت مقررة لحقائق معينة، وهذا كثير جداً ، ومن هذه الحقائق ما يأتي:

١ - تقرير حقيقة الوحدانية والألوهية ، قال تعالى : ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾[١] وقوله: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾[٢] وغيرها[٣] .

٢ - تقرير حقيقة إيجاد الأشياء ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٤] وقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٥] .

٣ - تقرير حقيقة الرسل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾[٦] وقوله ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[٧] وقوله :

(١) الكهف / ١١٠ .
(٢) طه / ٩٨ .
(٣) راجع معجم الأدوات والضمائر / ١٢٨ / ١٢٩ / ١٣٩ / ١٤٠ .
(٤) النحل / ٤٠ .
(٥) آل عمران / ٤٧ .
(٦) الرعد / ٧ .
(٧) الحج / ٤٩ .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[١] وقولـــه : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[٢] .

٤ - تقرير حقيقة تعلق الهداية والضلال ، قال تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[٤] وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ ﴾[٥] .

٥ - تقرير حقيقة الشكر ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾[٦] وقوله : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾[٧] .

٦ - تقرير حقيقة مثل الحياة الدنيا : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[٨] .

٧ - تقرير حقيقة الجزاء والحساب وأنه يوم القيامة : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ﴾[٩] .

---

(١) فصلت / ٦ .

(٢) الغاشية / ٢١ .

(٣) الإسراء / ١٥ .

(٤) الزمر / ٤١ .

(٥) سبأ / ٥٠ .

(٦) النمل / ٤٠ .

(٧) لقمان / ١٢ .

(٨) يونس / ٢٤ .

(٩) آل عمران / ١٨٥ .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾[١] وقوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٢] .

(ب) جاءت لتوضيح مفاهيم عامة ، من هذه المفاهيم ما يأتي :

١ - مفهوم أهل الإيمان قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٣] . وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[٤] وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٥] .

٢ - مفهوم النجوى ومصدرها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ .. ﴾[٦] .

(جـ) جاءت لتوضيح جملة من الأحكام أو التنفير منها من ذلك :

١ - توضيح حكم النسيء[٧] ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ .. ﴾[٨] .

---

(١) المؤمنون / ١١٧ .

(٢) التحريم / ٧ .

(٣) النور / ٦٢ .

(٤) الأنفال / ٢ .

(٥) الحجرات / ١٠ .

(٦) المجادلة / ١٠ .

(٧) النسيء : هو تأخير حرمة شهر إلى آخر .

(٨) التوبة / ٣٧ .

٢ - التنفير من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾[١] .

٣ - التنفير من أكل أموال اليتامى ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا...﴾[٢].

٤ - توضيح مصارف الصدقات ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ...﴾[٣] .

٥ - حكم الأولاد والأموال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...﴾[٤] .

٦ - التنفير من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ...﴾[٥] .

(د) جاءت جواباً لسؤال ، نحو قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٦] .

---

(١) المائدة / ٩١ .

(٢) النساء / ١٠ .

(٣) التوبة / ٦٠ .

(٤) التغابن / ١٥ .

(٥) النحل / ١١٥ .

(٦) الأحزاب / ٦٣ .

(هـ) جاءت في أسلوب المحاورات تأكيداً لحجة كل فريق قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[١] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ... ﴾[٢] .

هذه أبرز المعاني التي دارت حولها إنما ، وهي في مجملها « معانٍ مأنوسة قريبة من النفوس ، فلا تدخل على الحقائق الغريبة ، والأفكار البعيدة ، هذا هو الأصل فيها .. »[٣] « ونجد الكلام السابق عليها في أكثر الأساليب كأنه تهيئة للفكرة التي دخلت عليها ، وتمهيد لها ، ونجد هذا التمهيد يقوى حتى لتكاد النفس اليقظى والفهم المتسارع يدرك الفكرة التي دخلت عليها قبل قراءتها أو سماعها »[٤] .

ولو نظرنا إلى إنما في آية الدعاء لوجدناها - والله أعلم - قد وقعت جواباً لسؤال ، يؤيده ما رواه الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية حيث يقول : « قيل : دخل على يعقوب جارٌ له فقال : يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك ! فقال : هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي ؟ قال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي ، فغفر له ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله »[٥] .

(١) هود / ٣٣ .

(٢) طه / ٩٠ .

(٣) دلالات التراكيب / ١٤٨ .

(٤) المرجع السابق / ١٥٠ .

(٥) الكشاف ٢ / ٤٨٠ .

دلالة النفي والاستثناء :

النفي والاستثناء أسلوب كثير الورود في بيان العربية شعرها ونثرها ، ولعل من أقدم الإشارات التاريخية في تراثنا إلى النفي والاستثناء ما ذكره أبو علي الفارسي[١] في الشيرازيات عند حديثه عن (إنما) موضحاً أنها متضمنة معنى ما وإلاّ ، ثم جاء بعده الشيخ عبد القاهر الذي استثمر هذا النص ، وبيّن ما بين النفي والاستثناء وبين إنما من اختلاف في الدلالة . بأنَّ هناك فرقاً بين « أن يكون في الشيء معنى الشيء ، وبين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق »[٢] .

وفي حديثه عن أوجه الاختلاف بين إنما ، وبين النفي والاستثناء ، أشار الشيخ عبد القاهر إلى - أنَّ الخبر بالنفي والإثبات يكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، أمَّا إنَّما فهي للأمر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل هذه المنزلة[٣] .

والنفي والاستثناء يدخل على معانٍ يُحتاج فيها إلى مزيد توكيد وتقرير فلا « تلقاك هذه الأداة إلاّ حين تلقاك النبرة العالية والنغمة الحاسمة والتعبير الشديد »[٤] .

---

(١) أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل ، أحد الأئمة في علم العربية ، ولد في فسا في سنة ٢٨٨ هـ وتوفي في بغداد سنة ٣٧٧ هـ . وتجوَّل في كثير من البلدان ، وله عدة مصنفات منها : المسائل الشيرازية ، والتذكرة في علوم العربية .
انظر ترجمته في : الأعلام ٢ / ١٧٩ - ١٨٠ ، وقد تحدث عن تلك المسألة مشيراً إلى كلام الزجاج والنحاة والمفسرين .

(٢) دلائل الإعجاز / ٣٢٩ .

(٣) يراجع المصدر السابق / ٣٣٠ - ٣٣٢ .

(٤) دلالات التراكيب / ١٠٥ .

وعدَّه البلاغيون طريقاً من طرق القصر الاصطلاحية ، وقد أجمعوا على ذلك إلاَّ بهاء الدين السبكي . وقد بسط شُرَّاح التلخيص القول في ذلك عند شرحهم طرق القصر ، وبخاصة عند شرحهم لقول القزويني[١] : « ومنها النفي والاستثناء » وكيف أنه لم يقل الاستثناء ؟ يقول ابن يعقوب[٢] : « لأن الاستثناء من الإثبات كقولك جاء القوم إلاَّ زيداً ليس من طرق القصر إذ الغرض منه الإثبات ، والاستثناء قيد فكأنك قلت : جاء القوم المغايرون لزيد، ولو كان من طرقه ، لكان أيضاً من طرقه نحو قولك: جاء الناس الصالحون ، بخلاف ما قُدِّم النفي فيه، ثم أتى بالاستثناء سواء ذكر المستثنى منه أم لا فإن الغرض منه النفي ثم الإثبات المحققان للقصر ... »[٣] .

إلاَّ أن السبكي – كما ذكرنا – قد خالفهم في ذلك قائلاً : « الاستثناء قصرٌ سواءٌ كان مع النفي أم الإيجاب كقولك قام الناس إلاَّ زيداً فإنك قصرت عدم القيام على زيد ، لا يقال لو قصرت عدم القيام على زيد لكان

---

(١) أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق ، ولد بالموصل سنة ٦٦٦ هـ وولي القضاء في ناحية بالروم ثم قضاء دمشق فقضاء القضاة بمصر ، من مصنفاته ، تلخيص المفتاح ، والإيضاح ، والسور المرجاني من شعر الأرجاني ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٩ هـ .
انظر ترجمته في : الأعلام ٦ / ١٩٢ .

(٢) ابن يعقوب هو محمد بن يعقوب المغربي ولد عام ١١١٠ هـ من أهل مكناس بالجزائر لا نعلم له تاريخ وفاة . ينظر تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها / أحمد مصطفى المراغي ، ط١ ، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م ، شركة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر / ص ١٩٠ .
وقيل هو : أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولائي المغربي المتوفى سنة ١١٢٨ هـ . ينظر من أسرار البلاغة في القرآن / تأليف د. محمود السيد شيخون / ص ٢٤٥ .

(٣) مواهب الفتاح / لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ٢ / ١٩١ .

في قولك قام الناس إلاَّ زيداً نفي لقيام غير الناس لأنَّا نقول هو قصر لعدم القيام بالنسبة على الناس إلى زيد ... فقولهم من طرق الحصر النفي والاستثناء لا يظهر فيه مناسبة للتعرض للنفي »[١] .

وقد شاع استخدام أسلوب النفي والاستثناء في النص القرآني ووظِّف في آيات الدعاء في إحدى عشرة آية ، وردت جميعها مستثناة بإلاَّ على الرغم من تنوع أدوات الاستثناء ما بين حرف واسم وفعل[٢] .

وجاءت كل هذه الآيات في مواقف الشدة ، وصورت في معظمها قوة الصراع بين الحق والباطل ، وعبَّرت عن نفسيات قاست الألم والظلم ، لذا كثر هذا الأسلوب في تلك المواقف ، لقدرته على إبراز الأحداث في صورة قوية مرعدة لا يمكن لأداة أخرى أن تقوم بأدائها على هذا النحو .

ومعلوم أنَّ الأنبياء أشد الناس تعرضاً للأذى والظلم من قبل أقوامهم ، فقد جاء على لسان نوح عليه السلام قوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[٣] وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾[٤] فنوح عليه السلام آثر في دعائه أسلوب القصر ، ولم يقل : رب زد الظالمين ضلالاً ، وزد الظالمين تباراً . ولعل هذا التعبير يكشف شدة غيظ نوح منهم فهو لم يدع بهذين الدعائين السابقين إلاَّ بعد أن مكث يدعو قومه إلى الحق ألف سنة إلاَّ خمسين ، مستخدماً خلالها كل وسائل الإقناع غير أنه لم يؤمن به إلاَّ

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٩١ .

(٢) راجع النحو الوافي / باب الاستثناء ٢ / ٣١٥ .

(٣) نوح / ٢٤ .

(٤) نوح / ٢٨ .

القليل ، وحينما أوحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من آمن ، دعا عليهم . ونراه في دعائه آثر وصفهم بالظالمين و لم يقل قومي « وفي العدول إلى الظالمين اشعارٌ باستحقاقهم الدعاء عليهم وإبداءٌ لعذره عليه السلام، وتحذيرٌ ولطف لغيرهم، وفيه أنه بعض ما يتسبب من مساويهم »[١].

ونلحظ تكرار مجيء الفعل (زاد) بصيغه المختلفة في أحداث قصة نوح ، وفي أكثر من أسلوب قصر ، لمناسبة التزايد في زمان القصة وأحداثها[٢] .

وفي الآيتين نجد أن النفي والاستثناء قد أفاد القصر وهو من قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً ، حيث قصر الزيادة المدعو بها على الظالمين ، على كونها زيادة في الضلال والتبار .

« والمراد بالضلال المدعو بزيادته إما الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم .... وإما الضلال بمعنى الهلاك كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[٣] وهو مأخوذ من الضلال في الطريق لأن من ضل فيها هلك فيكون المعنى أهلكهم وفسره ابن بحر بالعذاب ، وهو قريب مما ذكر .. »[٤] .

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٩ / ٧٨ .

(٢) راجع أساليب القصر / د. صبّاح عبيد / مطبعة الأمانة بمصر / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) القمر / ٤٧ .

(٤) روح المعاني / ٢٩ / ٧٨ ، ٧٩ .

أما التبار فهو الهلاك والخسار . وقد عدَّ الطاهر ابن عاشور الاستثناء في الآية الثانية منقطعاً بقوله : « واستثناء إلا تباراً منقطع لأن التبار ليس من الزيادة المدعو بنفيها ... »[١] ولم أجد ذلك عند غيره من المفسرين .

ومن الأنبياء الذين لقوا ما لقيه نوح عليه السلام من ظلم وقهر من قبل أقوامهم ، موسى عليه السلام ، فقومه بنو إسرائيل جبلوا على العناد والكبر ، وبلغ من ضلالهم وتعنتهم أنهم عبدوا العجل من دون الله بعدما أنعم عليهم وأكرمهم بالنجاة من فرعون ، ثم لم يكتفوا بذلك بل عصوا أمر ربهم حينما طلب منهم موسى القتال معه وقالوا : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا هاهنا قاعدون .. »[٢] حينها بث حزنه وشكواه إلى الله قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى .. ﴾[٣] .

قال موسى ذلك القول ولم يعتد بمن آمن معه وكانا رجلين ، « لما رأى من تلون القوم وتقلب آرائهم فكأنه لم يثق بهما ولم يعتمد عليهما »[٤] .

« وقيل : ليس القصد إلى القصر بل إلى بيان قلة من يوافقه تشبيهاً لحاله بحال من لا يملك إلاَّ نفسه وأخاه ... »[٥] .

بيد أنه - والله أعلم - يمكن أن يكون في الآية قصرٌ وهذا لا يتعارض

---

(١) التحرير والتنوير / محمد الطاهر ابن عاشور / ٢٩ / ٢١٥ .

(٢) المائدة / ٢٤ .

(٣) المائدة / ٢٥ .

(٤) روح المعاني / ٦ / ١٠٨ .

(٥) روح المعاني ٦ / ١٠٨ .

أبداً مع كون المراد بكلامه قلة من يوافقه . فالقصر في الآية قصر صفة الملك على موصوف هو أخوه، قصراً حقيقياً غير تحقيقي لأنه كان معه رجلان غير هارون . فهذه اللحظات الشديدة القوية جعلت سيدنا موسى عليه السلام لا يعتد بمن معه غير هارون ، فجاء القصر بالنفي والاستثناء مناسباً لقوة الموقف وشدته . تلك الشدة التي نراها أيضاً عندما ذهب موسى عليه السلام مع سبعين رجلاً من قومه إلى الجبل ليعتذروا عن عبادة العجل .. فلما صعدوا الجبل ، وسمعوا كلام الله لموسى يأمره وينهاه قالوا : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[١] .

فكان نصيبهم أن أخذوا بالرجفة ، فماتوا فقام موسى في شدة الموقف وهوله وقال : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ... ﴾[٢] « ابتلاؤك حين سمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية ، أو أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به »[٣] . فقصر الفتنة أو الابتلاء على كونه من الله عز وجل لا من غيره قصراً حقيقياً تحقيقياً، قصر صفة على موصوف ، ولعل مجيء الآية مبنية على القصر مما زاد المعنى قوة فصاحب قوة المعنى قوة في المبنى ، وأظهر الجو العام للحدث الذي كان مشحوناً بالخوف ، (والخبر في قوله : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ مستعمل في إنشاء التمجيد بسعة العلم والقدرة والتعريض بطلب استبقائهم وهدايتهم)[٤].

---

(١) البقرة / ٥٥ .

(٢) الأعراف / ١٥٥ .

(٣) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٤ / ٢٢٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٩ / ١٢٦ ، ١٢٧ .

ويستمر الصراع بين الحق والباطل ، يقود دَفَّة الخير الأنبياء وأهل الإيمان الذين كان لهم نصيب وافر من الأذى والتنكيل ، فقد أكرهوا على الرجوع عن دينهم ، بالتهديد تارة ، وبالتعذيب أخرى ، وخير مثال يصور الصراع القائم بين الحق والباطل ما لقيه أتباع شعيب عليه السلام من قومهم من بلاء وشدة وكرب ومع ذلك لا يحفلون بذلك التهديد ، فقوة إيمانهم أكسبتهم قوة استطاعوا من خلالها ، الرد عليهم بقول فيه من القوة والإيجاز ، الشيء الكثير ، فقد قالوا في صدق وعزيمة رافدهما الإيمان الذي فاضت أنواره في قولهم : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[١] .

فالضمير في قولهم : (فيها) إمَّا أن يعود إلى القرية ، وإمَّا إلى المِلَّة .

فمشيئة الله نافذة في الخير والشر « والمعنى : أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلاَّ أن يشاء الله ذلك »[٢] .

وهذا قول أهل السنة ، وحينها يكون الاستثناء منقطعاً[٣] . والقصر في الآية الكريمة - والله أعلم - من باب قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً تحقيقاً ، حيث قصروا رجوعهم إلى الملة أو القرية على مشيئة الله عز وجل ، وهذا مما يطابق الواقع ، فلا يمكن لأي عمل أن يتم دون أن ترعاه مشيئة الله . فثقتهم القوية بالله هي التي دفعتهم إلى هذا القول ، وكذلك حسن الظن به فحملت الأداة (ما وإلاَّ) هذا المعنى وعبرت عنه أحسن تعبير، وأكدت بذلك قوة اعتقادهم وبينت مدى رسوخ عقيدتهم . ولا يقل

---

(١) الأعراف / ٨٩ .

(٢) فتح القدير ٢ / ٢٢٥ .

(٣) راجع المرجع السابق / ٢٢٥ .

عنهم في ذلك سحرة فرعون الذين آمنوا برب موسى عليه السلام ، حينما عرفوا أن ما كان من موسى عليه السلام لم يكن سوى الحق من ربهم ، لا ما كانوا يفعلونه هم من خداع الناس وتعمية أبصارهم ، حينها دخل نور الإيمان قلوبهم ، حيث جابهت بقوةٍ خوفها من فرعون وبطشه رغم معرفتهم المسبقة بمصيرهم ، وما سيكون من نقمة فرعون عليهم وذلك - والله أعلم - ليس لأنهم عجزوا عن مباراة موسى عليه السلام والانتصار عليه في تلك المناظرة الحاسمة التي جُمع لها سحرة المدينة كلهم ، ولا لأنهم لم ينتظروا الإذن من فرعون ليؤمنوا بموسى عليه السلام إنما هو لإيمانهم برب موسى عليه السلام لا بشيء غيره : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[١] .

فهو قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً قصر إفراد ، حيث قصروا انتقامه منهم على كونهم آمنوا برب موسى عليه السلام لا غير .

ثم إن أحداث القصة تبين أن قولهم هذا كان كشفاً لما انطوت عليه نفس فرعون من الظلم ، وفيه إظهار لقوة تمسكهم بهذا الدين رغم حداثة إيمانهم ، وهول عقابهم المنتظر ، مما يدل على صدق دعوة موسى عليه السلام ، وإلاّ لما آمن به السحرة ، وهم ما هم من حيث المكانة والتقدير في ذلك العهد ، وقد طلبوا من الله إفراغ الصبر عليهم فهم في حاجة ماسة إليه ، يتسلحون به لمواجهة ما ينتظرهم من عذاب . وهو مطلب جند طالوت حيث قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا

(١) الأعراف / ١٢٦ .

﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(١)] . مع ما بين الدعائين من اختلاف في ختامهما . فقد دعا السحرة وحرصوا على الوفاة على الإسلام ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فهم أيقنوا أنه لا حياة لهم بعد أن يصب عليهم فرعون غضبه ، ووفاتهم على الإسلام خير جابرٍ لهم . أما جند طالوت ، فهم في أرض معركة ، والصبر وثبات القدم أمران مطلوبان ، ومعلوم أن الحرب سجال ، ولابد فيها من وجود منتصر في النهاية ، سواء أكان النصر حليفاً للفئة القليلة أم للفئة الكثيرة .

لذا طلبوا النصر من الله على القوم الكافرين . وغير خاف أن أنصار الحق لا يمكن زحزحتهم عن اعتقادهم ، كيف لا ؟ وهم أتباع الأنبياء ، وحملة مشعل الهداية بعدهم ، فصبرهم وثباتهم في أكثر المواقف شدة لهو دليل على صدق دعوتهم نجدهم في كل أمة خلا فيها نذير ، منهم الربيون الذين وقفوا مع الحق ونصروه ، و لم يضعفوا رغم ما تعرضوا له من الأذى ، فصوَّر القرآن حالهم قولاً وفعلاً ، صور أفعالهم وزباطة جأشهم وجهادهم وصبرهم على الأهوال . ونراه يصور أقوالهم ، وكيف أنها ناسبت أفعالهم فكوَّنتا معاً قدوة يجب أن تحتذى .

و لم يكن موقف الجزع والهلع الذي هم فيه ليجعلهم ينطقون بقولٍ غير قولهم : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٢)] .

---

(١) البقرة / ٢٥٠ .

(٢) آل عمران / ١٤٧ .

« فقصر قولهم في تلك الحالة التي يندر فيها صدور مثل هذا القول ، على قولهم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ﴾ إلى آخره ، فصيغة القصر في قوله ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ قصر إضافي لرد اعتقاد من قد يتوهم أنهم قالوا أقوالاً تنبئ عن الجزع، أو الهلع ، أو الشك في النصر ، أو الاستسلام للكفار »[١] . وفي هذا القصر تعريض « بما أصابهم[٢] من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ، وبضعفهم عند ذلك من مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم ، حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبيّ في طلب الأمان من أبي سفيان »[٣] .

ويمكن أن يكون القصر في الآية حقيقياً إذا أردنا حصر أقوالهم في تلك الحالة في قولهم هذا[٤] .

وحين نتأمل الآيات السابقة نجد أنه قد روعي فيها حال المخاطب ، إمّا لإزالة شكه وإنكاره أو تردده أو لقلب اعتقاده . غير أن هنالك آيات جاء القصر فيها ليس لمراعاة حال المخاطب ، كما في قوله تعالى على لسان يونس عليه السلام حينما دعا ربه في بطن الحوت : ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٥] . كان يونس عليه السلام في حالة نفسية أظهر قوله السابق شدتها وعبّر عنها خير تعبير ، فجاء القصر في دعائه ذائباً

(١) التحرير والتنوير ٤ / ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) أي المؤمنين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٣) الكشاف ١ / ٤١٦ .

(٤) راجع التحرير والتنوير ٤ / ١٢٠ .

(٥) الأنبياء / ٨٧ .

في معنى التوحيد وشهادته الخالدة ، فقصر صفة الألوهية على الله الـذي عبَّر عنه بالضمير (أنت) وأتبعه بـ(سبحانك) تنزيهاً له عن أن يكون له شريك في هذه الصفة ، فقوله هذا مـن قصـر الصفـة علـى الموصـوف قصـراً حقيقيـاً تحقيقياً ، لأن الألوهية صفة لا يمكن إدعاؤهـا لغير الله . فقـول يونـس عليـه السلام جاء ضراعة وابتهالاً إلى الله « فلا يعقل فيه مراعاة حال المخاطب جل جلاله ، وإنما هو حال المتكلم وحسه بالمعنى ، وأنه متقرر في نفســه ، مؤكـد في ضميره ، وتجد هذا في توكيد الخبر بـ(إنّ) في قولـه : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فالتوكيد فيها لا وجه له إلاَّ الذي قلنـاه ، ولـو أنـك قلـت : « لا إله إلاَّ أنت سبحانك فأنـا مـن الظـالمين » لكـان كلامـاً سـاقطاً وتراخيـاً مفاجئاً في سياق متوتر مشدود »[1] نتيجة ندمه على ما فعـل ، ولهـذا وصـف نفسه بالظلم .

ونجد ذلك أيضاً في شهادة التوحيد التي كثر مجيؤها « خطاباً لنبي الإسلام ﷺ في عنائه الطويل مع أشد شعوب الأرض عناداً ، فكانت تتنزل الآيـات في مواقف الشدة تسري عن الرسول الكريم وتمده بالثقة ، وتشد أزره ، وتـأمره بالفزع إلى الله والاعتماد عليـه والمضي علـى نـهج الدعـوة مكثراً مـن ذكـر الله متبعاً للوحي ، داعياً بشـهادة التوحيـد والهـاً ، كمـا في قـول الله تعـالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[2] »[3] المقصور عليه في الآيتين السـابقتين واحـد هـو الله سـبحانه

(١) دلالات التراكيب / ١٠٨ .

(٢) التوبة / ١٢٩ .

(٣) أساليب القصر / ١٩١ .

وتعالى ، وقد عُبِّر عنه فيهما بطريقتين مختلفتين ففي الآية الأولى جاء لفظ الجلالة بالضمير المتصل (أنت) ، ذلك لأن القول صدر عن يونس عليه السلام مخاطباً به ربه ، أمَّا في الآية الثانية فقد جاء المقصور عليه فيها بضمير الغائب (هو) لأن الآية تعليم من الله لرسوله كيفية الدعاء وقت الشدة .

من الآيات التي كان القصر فيها قوياً مناسباً لقوة أحداثها ما كان على لسان زكريا عليه السلام في قصته التي وردت في عدة مواضع من القرآن ، وحظيت سورتا الأنبياء ومريم بنصيبٍ عظيمٍ منها ، حين اشتاق عليه السلام للولد والذرية الطيبة . فدعا ربه بنداء خفي ، طالباً منه أن لا يتركه وحيداً ، ومعبراً عن شدة حاجته لولد من صلبه قائلاً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[١] . فكانت رحمة الله التي ظهرت في سرعة استجابته له ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ... ﴾[٢] ففرح عليه السلام بذلك فرحاً عظيماً فطلب من الله عز وجل علامة تدل على تحقق مطلوبه بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ... ﴾[٣] أي « علامة أعرف بها الحَبل لأستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة الانتظار »[٤] ، فكان جواب ربه له : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾[٥] ، وفي سورة مريم بقوله : ﴿ قَالَ

---

(١) الأنبياء / ٨٩ .

(٢) الأنبياء / ٩٠ .

(٣) مريم / ١٠ .

(٤) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٣ / ٢٥ .

(٥) آل عمران / ٤١ .

ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ... ﴾[١] فقد حقق له الله طلبه - سبحانه - وجعل له العلامة التي أراد ، وأصبح لا يكلم الناس ، وهذه معجزة . والقصر في الآية قصر إضافي من قصر الموصوف على الصفة قصر تعيين ، وقيل : إنه استثناء منقطع فلا قصر فيه إنما سيق للتأكيد فقط[٢] .

وبين الآيتين تباين بسيط مع أن الأحداث واحدة ، وهذا على عادة القرآن فإنه إذا ذكر القصة في مكان ، وأعاد ذكرها في آخر ، نجد إضافة جديدة لا نجدها في التي قبلها ، ونلمح سراً دقيقاً وراء الاكتفاء بذكر الأيام في سورة آل عمران والليالي في سورة مريم ، وللعلماء آراء عديدة حول هذا الأمر ، فقد نظر لها بعضهم من حيث وقت النزول ومكانه ، رابطاً إيّاها بترتيب الأيام والليالي أيهما أسبق ، ومعروف عند العرب أن الليالي عندهم تسبق الأيام فهم يتبعون الأهلة ، ولمّا كانت الليالي أولاً في الترتيب فقد ذكرت في سورة مريم لكونها مكية أمّا الأيام فذكرت في آل عمران لأنها مدنية ، فأُعطي السابق[٣] للسابق ، وهناك من العلماء من حاول النظر إلى الآية ذاتها متتبعاً مفرداتها وسياقها ، من ذلك ما ذكره الإمام الغرناطي[٤]

---

(١) مريم / ١٠ .

(٢) انظر روح المعاني ٣ / ١٥٠ .

(٣) راجع تفسير البيضاوي ٦ / ١٤٨ بهامش حاشية الشهاب .

(٤) أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، محدث مؤرخ من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس ، انتهت إليه الرياسة بها في العربية ورواية الحديث والتفسير والأصول ولد سنة ٦٢٧ هـ في جيان وتوفي سنة ٧٠٨ هـ في غرناطة ، من مصنفاته : ملاك التأويل في المتشابه اللفظ في التنزيل ، البرهان في ترتيب سور القرآن .
انظر ترجمته في : الأعلام ١ / ٨٦ .

حيث قال : « في آية آل عمران يذكر الأيام ليناسب قوله : ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ إذ الرمز ما يفهم المقصود دون نطق كالإشارة بالعين وباليد وقال مجاهد بالشفتين وكيفما كان فإنما يدرك بالعين ، ولما لم يذكر الرمز في آية مريم ذكر فيها الليل »[1] .

ولعله – والله أعلم – ذكر الأيام في آل عمران لأنه كان في بداية التكليف بعدم الكلام ، وذكر الليالي بعد ذلك إعلاناً بانتهاء الوقت المحدد للسكوت حيث قال في الآية بعدها : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ... ﴾[2] .

(١) ملاك التأويل (القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) للإمام أحمد بن إبراهيم الغرناطي / تحقيق : سعيد الفلاّح / دار الغرب الإسلامي ، ط١ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / ١ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٢) مريم / ١١ .

المبحث السادس

أسرار الإفراد والجمع في آيات الدعاء

ضمَّتْ دراسة الإفراد والجمع في القرآن الكثير من النكات والأسرار البلاغية . وقد حظيت بعناية العلماء واهتمامهم وخاصة علماء التفسير ، الذين كانت لهم اليد الطولى في إظهارها إلى حيز الوجود ، ووضع لبنتها الأولى ، كاشفين من خلالها عن أسرار الإعجاز ومواطن الإبهار . مظهرين تلك الأسرار والنكات في أسلوب يكشف عن سر إفراد لفظة وجمع أخرى . ناظرين في ذلك كله إلى السياق الذي وردت فيه تلك اللفظة ، وما يكون بينها وبين أخواتها من وشائج قربى وعلاقات صلة ، اقتضت ذكرها على ذلك الوجه .

ثم امتدت تلك الدراسات وتفرعت ، متجاوزة دراسات المفسرين إلى الدراسات التي تتصل بعلوم القرآن . حيث كان لعلمائها[١] جهودهم المشكورة في هذا المجال .

ونرى آيات الدعاء قد حظيت كغيرها من الآيات في الذكر الحكيم بنصيب من تلك الألفاظ ، فجاءت بعض ألفاظها إمَّا مفردة أو مجموعة . ولها في كل حالة من تلك أسرار بلاغية وفرائد أسلوبية نبينها على النحو الآتي :

---

(١) كالسيوطي في كتابه الاتقان ٢ / ٢٩٩ ، والزركشي في كتابه البرهان ٤ / ٣ .

أولاً : الإفراد :

حمل الإفراد في آيات الدعاء نمطاً معيناً ، ذلك أن اللفظة المفردة جاء إفرادها إفراداً عاماً ، أي أنها لم ترد في القرآن – عامةً – إلاَّ مفردة . أو أنها تأتي مفردة ومجموعة ووردت في الدعاء بصيغة الإفراد دون الجمع . وسنذكرها كالآتي :

أ – الألفاظ المفردة – عامة – في الدعاء وغيره .

(١) الصراط :

وردت لفظة الصراط في القرآن الكريم بأربع صيغ هي (الصراط – صراطاً – صراطي – صراطك) . وجاءت في الدعاء مرة واحدة بصيغة (الصراط) الذي يقصد به الطريق ، وطريق الحق بالذات ، وقد ورد الصراط موصوفاً بالاستقامة في أكثر مواضعه في كتاب الله العزيز[١] . وذلك لوضوحه وسهولة السير فيه .

ولعل السر في إيثار القرآن التعبير (بالصراط) مفرداً دون الجمع (سرط) لأن الحق واضح المعالم دائماً ، وطريقه واحدٌ خلافاً لطرق الباطل والغواية ، فهي متعددة ، متشعبة لتعدد ألوان الضلال وتشعبها[٢] . لذا كان دعاء الداعين أن يهديهم الله لبلوغه ، حتى تطمئن نفوسهم ، وتأمن الانزلاق في دروب الغواية والضلال وما أكثرها اليوم !!

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / ٥١٧ .

(٢) راجع الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن / د. محمد الأمين الخضري / مطبعة الحسين الإسلامية / الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م / ٣٦ – ٣٧ .

(٢) النور :

ورد النور في القرآن الكريم مفرداً ، وجاء في الدعاء مرة واحدة بلفظة (نورنا)[١] .

وذلك على ألسنة المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآ ﴾[٢] . فالمؤمنون يطلبون من ربهم أن يتم لهم نورهم ، وهو نور الحق الذي اتبعوه ، وساروا في طريقه ، ذلك الطريق الموصل إلى الجنة ، حيث أضاء هذا النور قلوبهم ، وأنار عقولهم ، فهم بدونه لا محالة يتعثرون ويتخبطون . لذا أفرد النور هنا اعتباراً لمرجعه المنبثق عنه وهو الحق .

(٣) النَّار :

جاءت النار في القرآن مفردة وقد ذكرت في الدعاء ست مرات ، ثلاثٌ منها في سياق الدعاء والأخرى في صلبه . وقد طلب الداعون الوقاية من عذابها في قوله تعالى : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٣] . فلفظة النَّار إفرادها راجعٌ إلى أصلها ، فهي ذات أصل واحد ، ومادتها واحدة فناسبها الإفراد[٤] .

---

(١) راجع المعجم المفهرس / ٨٩٥ .

(٢) التحريم / ٨ .

(٣) البقرة / ٢٠١ ، آل عمران / ١٦ وقوله كذلك ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ آل عمران / ١٩١.

(٤) راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ٣٠١ .

وقيل : « إنما أفردت باعتبار الجنس ، ولما كانت النار تعذيباً ناسب إفرادها ، نظير إفراد الريح في العذاب وهي دار حبس والغاضب يجمع جماعة من المحبوسين في موضع واحد أنكد لعيشهم فالنار إذاً لكل مذنب لذا لم تُجمع »[١] .

ب - الألفاظ التي جاءت بالإفراد والجمع وذكرت في الدعاء مفردة :

(١) الرحمة :

الرحمة لفظ رقيقٌ دالٌ على معناه ، ورد في القرآن بالجمع والإفراد ، وكان نصيب الدعاء أن ذكرت فيه مفردة . ذلك لأنَّ الدعاء في حد ذاته رحمة عظيمة ، ومن يوفق لإجابة دعوته فقد عمَّه الله بفضله وإحسانه .

ونرى لفظ الرحمة يتردد في آيات الدعاء خمس مرات ، اثنتان منها بلفظ (رحمة) وذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[٣] .

فالداعون فيما سبق يطلبون من ربهم رحمة عظيمة ، لا تماثلها رحمة ، تفيض عليهم ويغمرهم أثرها . فهي من لدن الله - سبحانه وتعالى - لذلك هي رحمة عامة شاملة . وهي حقٌ مشروع للجميع يطلبونها من ربهم . ويحرصون على الاستجابة .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤ / ١٤ بتصرف .

(٢) آل عمران / ٨ .

(٣) الكهف / ١٠ .

أمّا الثلاثة الأخرى فقد جاءت بلفظي (برحمتك - في رحمتك) وذلك في قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[١] . وقوله تعالى على لسان من آمن بموسى عليه السلام: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢] فالإدخال في عباد الله الصالحين لا يكون إلاّ برحمة الله ، وكذلك النجاة من القوم الكافرين ، فرحمته سبحانه هي الوسيلة الحقيقية للنجاة من بطش الجبابرة .

أمّا لفظ (في رحمتك) فقد ورد على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٣] حيث طلب عليه السلام دخوله وهارون عليهما السلام في رحمة الله المراد بها (الجنة) فتحيط بهم من كل جانب ويتنعمون فيها .

وبالإضافة لما سبق فإن إفراد الرحمة فيه دلالة « على أنّ رحمة من الله كافية لما يطلبه العبد ومحققة كل ما تصبوا إليه النفس »[٤] .

(٢) النعمة :

جاءت النعمة في القرآن مفردة عدا ثلاثة مواضع جمعتْ فيها . وذكرت مفردة مرتين في آيات الدعاء ، في سياقين متشابهين في الصياغة ، أولها ورد على لسان سليمان عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

---

(١) النمل / ١٩ .

(٢) يونس / ٨٦ .

(٣) الأعراف / ١٥١ .

(٤) بلاغة الدعاء في الحديث النبوي / ص ٢٦ .

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾[١] .

حينما أحس بعظم جود الله عليه ، وحُسْن تفضله وكرمه معه ، حيث أنعم عليه بنعم عظيمة منها ، الملك الذي لن يتكرر لأحدٍ بعده ، ونعمة تسخير الجن والإنس والطير والرياح ، ونعمة إفهامه كلام النملة ، وإسماعه لحديثها قبل ذلك ، فلا شك أنَّ وراء هذه النعم جميعاً مبدعٌ قادرٌ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فنراه عليه السلام في دعائه السابق ينسب تلك النعمة إلى الله عز وجل تأدباً منه واعترافاً بالفضل لصاحبه .

وثانيها ورد على لسان الإنسان حين بلغ أشده في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾[٢] . فالسياق سياق تعداد النعم على الإنسان ، بدايةً بحمله في بطن أمه تسعة أشهر وانتهاءً ببلوغه سن الرشد والشدة . ومع تعدد النعم وتنوعها في الآيتين إلاَّ أن لفظ (نعمة) ذكر بالإفراد . ولعل السر في ذلك الإفراد يرجع إلى أنَّ نعم الله ذات نمط فريد ، حيث يصعب عدُّها كنعم المخلوقين . بل يستحيل إحصاؤها لقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٣] . فإفرادها فيه تعظيمٌ لشأنها وكذلك إضافتها إلى الله تعالى قد كستها ثوباً من التعظيم « مما يجعل تذكر واحدة منها كافياً في أن يخر المنعم عليه ساجداً لربه شكراً عليها ، فكيف بتذكر نعمه كلها أو بعضها ؟ كما يومئ الإفراد إلى أن الإنسان مهما أطاع ربه وانقطع له ، وأوغل في عبادته لا يستطيع أن يؤدي

---

(١) النمل / ١٩ .
(٢) الأحقاف / ١٥ .
(٣) النحل / ١٨ .

حق الشكر على نعمة واحدة ، إذ أن التوفيق للطاعة والعبادة ، هو في حد ذاته نعمة تستدعي الشكر عليها . وأين الإنسان من معرفة كل ما أنعم الله تعالى عليه ، وهو يجهل من نعم الله في نفسه أكثر مما يعلم حتى يمكنه الشكر على كل النعم ؟ »[١] .

(٣) الحسنة :

ذكرت الحسنة في الدعاء ثلاث مرات بالإفراد ، عندما طلب الداعون من ربهم إيتاءهم الحسنة وكتابتها لهم في الدنيا والآخرة على نحو ما نراه في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[٣] . ولا يخفى أن طلبهم إيتاء الحسنة وكتابتها لهم يدل على شدة حرصهم لنيل هذه المثوبة ، وتعلقهم بها ، وكان مقتضى السياق أن يعبر القرآن بصيغة الجمع (حسنات) لكنه آثر التعبير بالإفراد للإشارة إلى قناعتهم الكاملة بأنَّ ما جاء من عند الله فهو عظيم البركة ، قليله كثير ، وكثيره فيض موفور .

(٤) آية :

الآية هي العلامة الواضحة والبرهان الساطع ، وذكرت في الدعاء مرتين على لسان سيدنا زكريا عليه السلام عندما طلب من ربه دليلاً على حدوث

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ / ٧٩ .

(٢) البقرة / ٢٠١ .

(٣) الأعراف / ١٥٦ .

الحمل في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾[١] . ولعل سر إيثار (آية) بالإفراد والعدول عن الجمع (آيات) – مع أنَّ الموقف يستدعيه – لأن الطلب غير مألوف لما ذكره من عقر زوجته وكبر سنه ، فكان تبشيره بالولد معجزة عظيمة ذُهل منها عقله البشري ، لذا كان طلبه عليه السلام للآية – لا لعدم تصديق ذلك – بل ليقابلها بالشكر اللازم ، فإفرادها لأن طلبها كان لمجرد الإبانة عن زمن وقوع المعجزة ولو ذكرها بالجمع كانت دلالة على عدم تصديقه عليه السلام لهذا الأمر ، وهذا لم يكن منه فقد كان واثقاً من إجابة الله له ، شديد الإيمان بخالقه عز وجل .

(٥) إماماً :

ذكر لفظ (إماماً) مرة واحدة في الدعاء على لسان عباد الرحمن في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[٢] . حيث قالوا : إماماً بالإفراد دون الجمع (أئمة) مراعاة لما جاء قبلها (المتقين) ولعل السر في إيثارهم الإفراد ليجعلوا كل فردٍ منهم إماماً يُقتدى به أو « لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقهم واتفاق كلمتهم »[٣] أو « للإشارة إلى أنَّ مرتبة الإمامة قليل عديدها »[٤] .

---

(١) آل عمران / ٤١ ، مريم / ١٠ .

(٢) الفرقان / ٧٤ .

(٣) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٦ / ٤٣٨ .

(٤) دلالات التراكيب / ٣٧٥ .

ثانياً - الجمع :

جاءت ألفاظ عديدة في الدعاء بصيغة الجمع دون الإفراد وهي في كل موضع من مواضعها تلك تؤدي معناها المراد الذي اقتضاه السياق . من تلك الألفاظ :

(١) همزات :

وردت لفظة (همزات) في الدعاء مرة واحدة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾[(١)] تعليماً لنبيه عليه السلام كيفية التخلص من وساوس الشياطين ونزغاتهم . فذكرت همزات بالجمع دون الإفراد (همزة) لبيان أن الشياطين متنوعوا المداخل التي يلجون من خلالها إلى أهل الإيمان ، وفيه لفت نظر المؤمنين إلى ضرورة التيقظ والحذر في كل الأمور التي قد تكون مداخل لهؤلاء الشياطين فكما أخبر الرسول ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » فهمزات توحي بأن خطر هؤلاء الشياطين يحيط بالمؤمن من كل جانب ، فتعدد الجهات ناسبه جمع همزات ، وإذا كان الخطر لا يُعلم مصدره كان ذلك أدعى لأخذ الحذر والترقب الدائم بخلاف لو كان مصدره معروفاً ، واتجاهه محدداً فإن هذا مدعاة إلى أن يركن الإنسان إلى الدعة ويقل حذره . وربما كان الجمع هنا في همزات لتعدد المضاف إليه وهم الشياطين[(٢)] .

---

(١) المؤمنون / ٩٧ .

(٢) راجع تفسير أبي السعود ٦ / ١٥٠ .

٢ – الثمرات :

جاء هذا اللفظ في الدعاء مرتين على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجه وابنه في وادٍ غير ذي زرع قائلاً : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ .. ﴾[(١)] وفي موضع آخر : ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[(٢)] .

فمع أنَّ الوادي مقفرٌ لا زرع فيه ولا ماء إلاَّ أنَّ إبراهيم عليه السلام آثر في دعائه صيغة الجمع (ثمرات) دون الإفراد (ثمرة) ليظهر شدة عطفه وشفقته على أهله ، لأنه متيقن من كرم الله وعطائه فطمع أن يكون رزقهم متنوع الطعوم والأشكال والألوان ، ولعل ذكرها بالجمع لإفادة التنوع فيها على حسب الفصول المختلفة ، مما يدل على حرصه بأن يكون هذا الرزق مستمراً طوال العام بلا انقطاع وقد لبىَّ الله طلبه .

وأرجع الألوسي[(٣)] الجمع إلى كونه للقلة إظهاراً للقناعة[(٤)] . وقد يكون هذا صحيحاً لكن قد يذكر جمع القلة مراداً به الكثرة ، والذي يحدد ذلك السياق ، ولو نظرنا إلى موقف إبراهيم عليه السلام ودعائه ، لوجدنا أنَّ

---

(١) البقرة / ١٢٦ .

(٢) إبراهيم / ٣٧ .

(٣) أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، مفسر ومحدث وأديب من أهل بغداد مولده ووفاته بها حيث ولد سنة ١٢١٧ هـ وتوفي ١٢٧٠ هـ ، من مصنفاته : روح المعاني في التفسير ، دقائق التفسير ، وله شرح كشف الطرة عن الغرة شرح به درة الغواص للحريري .

انظر ترجمته في : الأعلام ٧ / ١٧٦ .

(٤) راجع روح المعاني ١ / ٣٨٢ .

الدلالة على الكثرة هي المرادة من ذلك لفظ (الثمرات) فتعليله بأنَّ القناعة هي سبب جمع القلة لا يتفق مع الأمور التالية :

١ - إنَّ إبراهيم عليه السلام قد رزق ولده على كِبَر ، وهو أبٌ عطوفٌ حليم ، فكيف يقنع بقليل من الثمار لغذاء ولده وزوجته .

٢ - إنَّ المنطقة التي نزل فيها مقفرة لا طعام فيها ولا ماء ، فالدعاء بالكثير أمرٌ واردٌ لخوفه على ذريته من الهلاك ، بحكم الطبيعة البشرية .

فهذا مما يجعله يُخْرِجُ دعاءه على إرادة الكثرة باعتبار أنَّ (من) للتبعيض أي ارزقهم بعض الثمرات ، ولو كانت الثمرات للقلة لأصبحت مع (من) التبعيضية ثماراً قليلة جداً لا تناسب المقام الذي بيناه سابقاً .

(٣) أعين :

جاءت أعين في الدعاء مرتين ، مرة في صلب الدعاء وأخرى في سياقه أما التي في صلب الدعاء فقد وردت على ألسنة عباد الرحمن في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾[1] فقولهم أعين دون عيون، نظراً لكون عيون المتقين قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم استناداً على قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[2] . هذا ما قاله الزمخشري[3] .

(١) الفرقان / ٧٤ .

(٢) سبأ / ١٣ .

(٣) راجع الكشاف ٣ / ٢٨٨ .

وقد اعترض على ذلك كُلٌّ من ابن المنير وأبي حيَّان والشهاب[١] ، لأنهم ينظرون إلى الجمع باعتبار نفسه لا باعتبار إضافته إلى غيره[٢].

(٤) ذرياتنا :

جاء (ذريات) بالجمع دون الإفراد (ذرية) « لأن المراد امتداد صفة التقوى في أجيالهم ، وهذه وصية إبراهيم عليه السلام لبنيه ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٣] »[٤] .

٥ – الذنوب والسيئات :

جاءت الذنوب أربع مرات مجموعة على وزن فعول في آيات الدعاء ، وكان مراداً بها الكثرة ، في طلب الداعين غفرانها لهم قائلين : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾[٥] . وفي اعترافهم بها في قوله تعالى :

---

(١) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري ، قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة ، ولد ونشأ بمصر سنة ٩٧٧ هـ ، رحل إلى بلاد الروم ، نفي إلى مصر توفي سنة ١٠٦٩ هـ ، له العديد من المؤلفات منها : ريحانة الألبا – عناية القاضي وكفاية الراضي حاشية على تفسير البيضاوي – طراز المجالس .

انظر ترجمته في : الأعلام ١ / ٢٣٨ .

(٢) راجع الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٣ / ٢٨٨ في حاشية الكشاف ، البحر المحيط ٨ / ١٣٣ ، حاشية الشهاب ٦ / ٤٣٨ .

(٣) البقرة / ١٣٢ .

(٤) دلالات التراكيب / ٣٧٦ .

(٥) آل عمران / ١٤٧ ، وقوله تعالى : ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ آل عمران / ١٩٣ .

﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾[١]. أمَّا السيئات فجاءت مرتين في الدعاء مجموعةً جمع قلة في طلب الداعين تكفيرها عنهم قال تعالى : ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾[٢] . جاءت أيضاً في طلب الملائكة وقاية أهل الإيمان منها في دعائهم لهم : ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ ﴾[٣] .

ولو تأملنا سر مجيء (ذنوبنا) بالكثرة دون الإفراد أو دون جمع القلة لوجدنا أن ذكرها بالجمع فيه دليلٌ على حرص الداعين على استعطاف ربهم بذكر أسوأ ما لديهم وأعظمها ، ليقابلها الله عز وجل بكرمه وإحسانه فيغفرها لهم . وهنالك سبب آخر حيث إنَّه لا يأتي جمع القلَّة منه بل إن الجمع منه (ذنوب وذُنُوباتٌ جمع الجمع)[٤] .

أمَّا ذكر السيئات بجمع المؤنث فلأنه دالٌ على القلة نظراً لأن الذنب أعظم من السيئة فاستعمل القرآن للأول الكثرة وللثاني القلة ، لأنهم يريدون التقليل من السيئات والتكثير من الذنوب هضماً لأنفسهم ورغبة في أن يغفر لهم الله جميع الذنوب ويزيلها من صحائفهم لا أن يكفرها أي يسترها ويغطيها .

وفي جمع الذنوب بالكثرة ما يشير إلى أنها مما يجب الحذر منه والاحتياط له ، أما السيئات فتقليلها ليس لتهوين أمرها بل لبيان أنها أقل من الذنوب ، وأنها مما يكثر وقوع الإنسان فيه بخلاف الذنب .

---

(١) غافر / ١١ .

(٢) آل عمران / ١٩٣ .

(٣) غافر / ٩ .

(٤) اللسان ٥ / ٦٢ مادة (ذنب) .

الفصل الثاني

دراسة تركيب الجمل

ويضم أربعة مباحث :

١ – **المبحث الأول** : علاقات الجمل .

٢ – **المبحث الثاني** : ترتيب الجمل وأسراره .

٣ – **المبحث الثالث** : مظاهر الإيجاز والاطناب .

٤ – **المبحث الرابع** : فواصل آيات الدعاء .

المبحث الأول

علاقات الجمل

يقصد بعلاقات الجمل ما يكون بينها من فصل ووصل . فمعلوم أن بين الجمل علاقات نسب ووشائج قربى ، ينظمها السياق الذي تأتي فيه والمعنى الذي تدور حوله كل جملة في ترابط رائع ، ونظام محكم .

وتعد دراسة الفصل والوصل من أصول البلاغة بل هي حدُّها الأعلى فقد قيل للفارسي : « ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل »[١] . فمعرفة الفصل والوصل فن « عظيم الخطر ، صعب المسلك دقيق المأخذ لا يعرفه على وجهه ، ولا يحيط علماً بكنهه ، إلاَّ من أوتي في فهم كلام العرب طبعاً سليماً ورزق في إدراك أسراره ذوقاً صحيحاً »[٢] . « وذلك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحدٌ إلاَّ كمل لسائر معاني البلاغة »[٣] .

وقد عدَّ الشيخ عبد القاهر معرفته معرفة تامة من صفات العرب الخُلَّص ومن طبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام[٤] هم بها أفراد وقد قيل : « البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلى بلا نظام »[٥] .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١ / ٨٨ ، الصناعتين لأبي هلال العسكري / تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم / المكتبة العصرية بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / ٤٣٨ .

(٢) الإيضاح ٣ / ٩٧ .

(٣) دلائل الإعجاز / ٢٢٢ .

(٤) المصدر السابق / ٢٢٢ .

(٥) الصناعتين / ٤٣٨ .

والمراد بالوصل هو : « عطف بعض الجمل على بعض ، والفصل تركه »[١] . والذي فتح الكلام في أسرار الوصل والفصل عند العلماء ، النظر في عطف المفردات أولاً ثم النظر في عطف الجمل التي لها محل من الإعراب باعتبار أنها كالمفرد ووضعوهما في علم النحو وقد بيَّن الشيخ عبد القاهر ذلك بقوله : « لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد . وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جارياً مجرى عطف المفرد على المفرد ، وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهراً والإشراك بها في الحكم موجوداً »[٢] .

وهذا العطف أمره جلي ، أما الذي يشكل أمره فهو عطف الجمل التي لا محل لها من الإعراب إذ العطف حينها لا يقتضي التشريك لأنه لا حكم للأولى . لذلك لابد أن يكون وراء هذا العطف أسرار ودقائق ، وقد خص البلاغيون الواو بالدراسة دون غيرها من حروف العطف كالفاء ، وثم ، وأو ، لأداء كل حرف منها معنى زائداً على التشريك ، فالفاء توجب الترتيب من غير تراخٍ ، وثم توجبه مع تراخٍ ، و (أو) تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه وعند العطف بأحد هذه الأحرف تظهر فائدة هذه المعاني[٣] . أمَّا الواو فتفيد معنىً واحداً هو الإشراك في الحكم . ومن الضرورة أن يكون بين المعطوفين نوعٌ من المناسبة حتى « يكون المعنى في الجملة لفقاً لمعنى في الأخرى ومضامَّاً له »[٤] .

---

(١) الإيضاح ٣ / ٩٧ .

(٢) دلائل الإعجاز / ٢٢٣ .

(٣) راجع المصدر السابق / ٢٢٤ .

(٤) راجع المصدر السابق / ٢٢٥ .

ويظهر للمتأمل في آيات الدعاء أن الوصل فيها كثير جداً ، بسبب اقتضاء مقام الدعاء ذاته ، لأن الداعي إذا انطلق في دعائه ، وتوجَّه صوب خالقه بالمناجاة تغلب عليه طبيعته البشرية الطامعة ، فيُظهر الدعاء في صورة جمل متعاطفة قد تبلغ في بعض الأحيان ثلاث أو أربع جمل كما في دعاء إبراهيم عليه السلام[١] .

فحاجات الداعين المتنوعة والمتغايرة استوجبت الوصل بين جمل الدعاء ، ومع ذلك لم يمنع هذا من ورود بعض الجمل المفصولة وذلك لأسباب سنعرض لها خلال الدراسة .

ومع كثرة العطف بالواو ، نرى أيضاً بعض الجمل تعطف بالفاء ، وذلك لإفادة معنى التعليل والسببية وكذلك الترتيب والتعقيب والتنويع ، وهي معاني الفاء المعروفة .

ومما جاء العطف فيه بالفاء لإفادة التفريع[٢] قوله تعالى : ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٣] . فقد تفرعت جملة ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ عن جملة ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ وعطفت بالفاء ، لكونه مولى ومن شأن المولى أن ينصر مولاه ، فولاية الله للمؤمنين من صفاتها نصرتهم ، وهذا دعاء جامع لأن نصرهم على الأعداء يجمع كل أنواع الخير ، من ظهور الدين ودخول الناس فيه بطمأنينة وطيب العيش والسلامة من

---

(١) البقرة / ١٢٥ - ١٢٩ ، الشعراء / ٨٣ - ٨٧ ، إبراهيم / ٣٥ - ٤١ .

(٢) أي أن يترتب أمرٌ على آخر ويتفرع عنه .

(٣) البقرة / ٢٨٦ .

الفتنة[١] . وقد قيل : إن الفاء هنا للسببية ، « لأن الله تعالى لما كان مولاهم ومالكهم ومدبراً أمورهم تسبب عنه أن دعوه بأن ينصرهم على أعدائهم فهو كقولك أنت الجواد فتكَرَّمْ عليَّ ، وأنت البطل فاحم الجار »[٢] .

ومما جاء منه للتفريع قوله تعالى : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾[٣] فكونه ولياً من شأنه المغفرة والرحمة بعباده . وإن كانت كذلك تحمل معنى الترتيب ، فإنه يترتب على هذه الولاية تحقق المغفرة المطلوبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾[٤] . حيث مهد الداعون لدعائهم بذكر سعة علم الله ورحمته وعطفوا على ذلك جملة ﴿ فَٱغْفِرْ ﴾ بالفاء وذلك للتفريع على سعة علمه ورحمته فهو بعلمه الواسع وإحاطته الشاملة أعلم بمن تاب من عباده ، واتبع سبيله ، وهو برحمته الواسعة كفيل بأن يغفر ذنوبهم التي اقترفوها .

ومن المعاني التي تفيدها الفاء الدلالة على الترتيب والتعقيب وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[٥] . فطلب كتابتهم مع الشاهدين جاء

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير ٣ / ١٤٢ .

(٢) روح المعاني ٣ / ٧١ .

(٣) الأعراف / ١٥٥ .

(٤) غافر / ٧ .

(٥) آل عمران / ٥٣ .

معطوفاً بالفاء وذلك لما تظهره الفاء من سرعة الكتابة دونما تراخٍ أو تأخير لأنهم آمنوا بما أُنزل إليهم واتبعوا الرسول فجزاء ذلك السرعة في كتابتهم مع الشاهدين لسرعة استجابتهم وهذا ترتيب طبعي فالنفس تميل إلى استعجال الخير .

ومنه كذلك قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾[1] الفاء ذكرت هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فمع ذكره للأسباب المانعة لحصول الولد من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة نراه عليه السلام لم يقطع رجاءه بالله خاصة وهو يرى إنعام الله وتفضله على مريم ، فما كان منه إلاَّ أن رتب استيهاب الولد على كونه هبة خالصة من عند الله عز وجل وعطف بالفاء دون الواو لإظهار شدة حاجته لهذا الولد ورغبته الملحة في سرعة حصوله دونما تأخير ومما يوحي بهذه السرعة كذلك حروف الفعل (هب) فهي تنطلق من اللسان دفعة واحدة بلا تباطؤ .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾[2] « دلّت الفاء في جملة (فقالوا) على أنهم لما أووا إلى الكهف بادروا بالابتهال إلى الله »[3] . ففي العطف بفاء التعقيب إشعارٌ بصدور هذا الدعاء منهم مباشرة فور دخولهم الكهف نظراً لشدة خوفهم من بطش الكفار بهم ، فهم في أمس الحاجة إلى سرعة عون الله ورحمته . ومثله

---

(١) مريم / ٥ .

(٢) الكهف / ١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ١٥ / ٢٦٦ .

قولـــه تعـــالى : ﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] . فقد جاءت جملة (فقالوا) معطوفة بفاء التعقيب على ما قالـــه موســـى : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[2] وفي ذلك إشارة إلى مبادرتهم وسرعة استجابتهم لما طلبه موسى منهم . فعلى الفور جاء قولهم : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[3] . وفي هذا العطف مخالفة للأسلوب الغالب في حكاية جمل الأقوال الجارية في المحاورات حيث تأتي غير معطوفة ، ولكن خولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة[4] .

ومما جاء فيه العطف بالفاء دالاً على التعقيب والتفريع معاً في آية واحدة قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾[5] .

فقوله : ﴿ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ « مؤذن بتعجيل القبول وتسبيب الإيمان عن السماع من غير تراخٍ ، والمعنى : فآمنا بك أو بربنا »[6] .

---

(١) يونس / ٨٥ .

(٢) يونس / ٨٤ .

(٣) راجع نظم الدرر ٣ / ٤٧٤ ، والتحرير والتنوير ١١ / ٢٦٣ .

(٤) راجع التحرير والتنوير ١١ / ٢٦٣ .

(٥) آل عمران / ١٩٣ .

(٦) البحر المحيط ٣ / ٤٧٣ ، حاشية الشهاب ٣ / ٩١ .

ويظهر من الآية مبادرتهم وسبقهم للإيمان فور سماعهم النداء وفي ذلك دلالة قوية على سلامة فطرتهم من العناد وشوائب الانحراف « وقد توسموا أن تكون مبادرتهم لإجابة دعوة الإسلام مشكورة عند الله تعالى ، فلذلك فرَّعوا عليه قولهم : ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ لأنهم لَمّا بذلوا كل ما في وسعهم من اتباع الدين كانوا حقيقين بترجي المغفرة »[1] .

أمَّا إفادة الفاء لمعنى السببية ففي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[2] فجملة ﴿ فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ جاءت معطوفة على ما قبلها بالفاء وذلك لبيان أن طلبهم مضاعفة العذاب بسبب إضلالهم ، الذي ترتب عليه دخولهم النار وخلودهم فيها . ومثله قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾[3] .

مما سبق نجد أن العطف بالفاء في آيات الدعاء كان تعبيراً عن معاني التعليل والسببية والتعقيب والتفريع . أمَّا العطف بالواو الوصل موضوع دراستنا فهو لكثرته يحتاج إلى إفرادٍ بالبحث والدراسة لكونه يمثل ظاهرة قرآنية حريَّة بالدراسة المفصلة المتأنية التي تحيط بكل دقائقه ، وتُظهر مكنونات أسراره ، وسنعرض لشيء منه في آيات الدعاء من ذلك ما جاء على لسان نوح عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ

---

(١) التحرير والتنوير ٣ / ١٩٩ .

(٢) الأعراف / ٨٣ .

(٣) ص / ٦١ .

بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾[1] . فقد جاء الوصل بالواو بين قوله ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ وجملة ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ وهذا من عطف المفردات وفيه تظهر رغبته عليه السلام في شمول المغفرة لكل من دخل بيته متصفاً بصفة الإيمان . أمَّا الجملة التي عطفت على ما قبلها في الآية ذاتها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ حيث عطفت على جملة ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى .. ﴾ فبعدما طلب المغفرة له ولمن يحب من أهله والمؤمنين عامة عطف بدعاء آخر طالباً من ربه القضاء على الظالمين بزيادة هلاكهم . فالوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين لاتحادهما في الإنشائية لفظاً ومعنى . وقد جاء الوصل محققاً الغرض في بيان شدة غضبه على هؤلاء الكفرة حيث أردف دعاءه للمؤمنين بالمغفرة بالدعاء على الكافرين بالهلاك والدمار . فالوصل هنا فيه مزيد عناية بهؤلاء المؤمنين الذين يريدون أن يعرفوا مصير هؤلاء الكافرين ، ماذا سيكون نصيبهم من دعاء نوح ، وقد دعا عليهم قبل ذلك بقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[2] فقد عطفت جملة ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ على جملة ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ وقد وقع خلاف حول هذه الآية مرجعه أنه لا يعطف الإنشاء على الخبر ، بل لابد من التناسب بين الجمل في الإنشائية والخبرية . فالزمخشري أرجع العطف إلى قوله : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ « على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد (قال) وبعد الواو

---

(١) نوح / ٢٨ .

(٢) نوح / ٢٤ .

النائبة عنه ومعناه قال رب إنهم عصوني وقال : لا تزد الظـالمين إلاَّ ضـلالاً . أي قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا قال »[١] .

في حـين يُرجـع أبـو حيَّـان العطـف في قولـه : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ على ﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ ﴾ « إذ تقديره : وقال وقد أضلوا كثيراً ، فهي معمولـة لقـال المضمـرة المحكي بـهـا قولـه : ﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ ﴾ ولا يشـترط التناسب في عطف الجمل ، بـل قـد يعطـف جملـة الإنشـاء علـى جملـة الخبر والعكس خلافاً لمن يدعي التناسب »[٢] . وقد تبع أبو السعود الزمخشـري في رأيه[٣] . أمَّا الشهاب فقد علَّق على الآية بقوله : « والظـاهر أن قولـه : رب إنهم عصوني ... الخ ليـس المقصـود بـه إخبـار عـلام الغيـوب بـل الشـكاية والإعلام بعجزه ويأسه منهم فهو طلب للنصرة عليهم كما في قولـه : ﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ ولو لم يقصد هذا . تكرر مع ما مر فحينئذ يكـون كناية عن قوله أخذلهم وانصرني وأظهر دينك ونحوه فهو من عطـف الإنشـاء على الإنشاء وما مرَّ كله تكلف ويشهد له أن الله سمى مثله دعاء حيث قال : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾[٤] فتدبر »[٥] .

وقـال ابـن عاشـور : « يجـوز أن تكـون جملـة ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا

---

(١) تفسير الكشاف ٤ / ٦٠٧ .

(٢) تفسير البحر المحيط ١٠ / ٢٨٧ .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٩ / ٤٠ .

(٤) الدخان / ٢٢ .

(٥) حاشية الشهاب ٨ / ٢٥٣ .

ضَلَٰلًا ﴾ غير متصلة بحكاية كلامه في قوله : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ بل هو حكاية كلام آخر له صدر في موقف آخر ، فتكون الواو عاطفة جملة مقولة قول على جملة مقولة قول آخر ، أي نائبة عن فعل كما تقول : قال امرؤ القيس قفا نبك ، والأعم صباحاً أيها الطلل البالي . وقد نحا هذا المعنى من يأبون عطف الإنشاء على الخبر »[1] .

وفي قوله عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] . جاء عطف جملة ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على جملة ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ . لأنهما اتفقتا في الإنشائية لفظاً ومعنى فبين الجملتين التوسط بين الكمالين ، ولأن الواو تقتضي المغايرة ، فقد طلب أولاً الفصل والقضاء بينه وبينهم قضاءً يستحقونه جزاء تكذيبهم ، ثم ثانياً طلب النجاة ، له ولمن آمن معه فكأنه يريد بالجملة الثانية فصلاً وخلاصاً يختلف عن الفصل والخلاص في الجملة الأولى لذلك عطف لإرادة المغايرة بين الخلاصين .

وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾[3] نرى في هذا الدعاء أكثر من جملة انتظمت

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٢١٠ .

(٢) الشعراء / ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) الشعراء ٨٣ - ٨٧ .

وتتابعت وعطفت بالواو لأن بينهما التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الإنشائية لفظاً ومعنى ، ولكونها صادرة عن إبراهيم عليه السلام فقد ظهر فيها حرصه على نيل السعادتين الدنيوية والأخروية ، فهو لشدة حاجته لاستجابة الله لهذه الدعوات نراه يجمع بين كل دعوة ودعوة رابطاً بينها بحرف العطف الواو كأنَّ كل دعوة منها تستدعي التي تليها . فنراها تبدأ بطلب الحكم أي العمل المتقن بالعلم ثم بطلب اللّحاق بالصالحين وهم الأئمة المتقون في الدنيا والآخرة . وأن يكون له ذكراً جميلاً وثناءً حسناً فيمن يأتي بعده من الناس ولما طلب سعادة الدنيا التي لا نفع لها مجردة عن سعادة الآخرة عطف على ما سبق بقوله : ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فالجنة هي المطلب الأسمى الذي لا يناله إلاَّ من مَنَّ الله عليهم بالقبول والرضا فهي لا تُنال بالعمل فقط لذا جعلها كالإرث « يحصل بغير اكتساب من الوارث وهو أقوى أسباب الملك »[1] . وهو في دعائه هذا لا ينسى والده فيدعو له رغم كفره طالباً من ربه أن يغفر له وأن لا يجعله سبباً لخزيه عليه السلام يوم القيامة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[2] . فقد عُطف بالواو بين هاتين الجملتين لاتفاقهما في الإنشائية لفظاً ومعنى فبين الجملتين التوسط بين الكمالين ، ويُظهر لنا العطف حرصَ هؤلاء الداعين على الخلاص وذلك بأن دعوا الله أن يسخر لهم ولياً نصيراً ينقذهم من هذا الظلم و لم يقولوا : « **اجعل لنا من لدنك ولياً نصيراً** » ، بل

---

(١) نظم الدرر ٥ / ٣٧٠ .

(٢) النساء / ٧٥ .

جعلوا الولي في جملة والنصير في أخرى ووصلوا بينهما رغبةً في المغايرة وطمعاً في تكثير سبل الخلاص ، وزيادة في الضراعة والابتهال . فكـأن الـولي شـيء والنصير شيءٌ آخر .

الفصل في آيات الدعاء :

لم يبلغ الفصل في جمل الدعاء القرآني ما بلغه الوصل من الكثرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١] وقوله : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٢] وقوله : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٣] وقوله : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٤]. وقوله : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٥] .

فقد فصلت آخر الآيات السابقة عمَّا قبلها حيث « وقعت تذييلاً مؤكداً لمضمون الجملة » والجمل المؤكدة لما قبلها حقها الفصل[٦] لأن بينها رابطة داخلية أقوى من رابطة الواو ، ولأنها لم تأت بمعنى جديد مغاير لسابقه فهي جزء من الكلام السابق ولو عطفت لكانت كعطف الشيء على نفسه . لكن - والله أعلم - دلالة الآيات على التعليل أقوى إذ المعنى « هب لي ملكاً لأنك أنت الوهاب ، واغفر لنا لأنك على كل شيء قدير ، واغفر لأبي لأنه كان من الظالمين » فيكون الفصل حينها لشبه كمال الاتصال ، ذلك أنَّ الجملة الثانية هي تعليل للجملة الأولى .

---

(١) البقرة / ١٢٧ .

(٢) آل عمران / ٨ .

(٣) ص / ٣٥ .

(٤) التحريم / ٨ .

(٥) الشعراء / ٨٦ .

(٦) وهو الفصل لكمال الاتصال .

ونرى الفصل بين الجمل لكون الجملة المفصولة مبنية على الاستئناف البياني[١] حيث تثير الجملة الأولى سؤالاً يُفهم من السياق فتقع الجملة الثانية جواباً عنه . وهذا كثير جداً في لفظ « قال »[٢] ومما جاء منه في آيات الدعاء قوله تعالى : ﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[٣] فجملة يقولون « استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع القرآن كأنه قيل : ماذا يقولون ؟ فقيل : يقولون : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾[٤] ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ ﴾[٥] وقوله : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٦] . فكأنه قيل في الآية الأولى بماذا أجابه ربه عندما طلبه هذا الطلب ؟ فقيل : قال « آتيك ... » وفي الثانية كأن سامعاً قال : ماذا قال زكريا حينما دعا ربه ، فقيل : قال : « رب هب ... » فالدعاء القرآني كثر فيه لفظ (قال) ، ذلك أن الدعاء عبارة عن أقوال صدرت عن الداعين وحكاها القرآن عنهم .

---

(١) وهو الفصل لشبه كمال الاتصال .

(٢) راجع دلائل الإعجاز / ٢٤٠ .

(٣) المائدة / ٨٣ .

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢ .

(٥) آل عمران / ٤١ .

(٦) آل عمران / ٣٨ .

وقد يأتي الفصل لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً[١] . وقد جاء منه في الدعاء قوله تعالى : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢] فقد فصل بين جملة ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ وبين جملة ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا ﴾ لأن الأولى خبرية والثانية إنشائية ولا مناسبة للوصل بينهما فإخبار سليمان عليه السلام بأن الله وليه في الدنيا والآخرة لا علاقة له بطلب الوفاة على الإسلام لذلك ترك العطف .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٣] . ففصلت جملة ﴿ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا ﴾ عمَّا قبلها لكونها خبرية وما قبلها طلبي إنشائي ولأن بين طلب العفو والمغفرة والرحمة تناسباً جاءت موصولة بالواو ، أمَّا جملة ﴿ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا ﴾ فهي إقرار منهم بأن الله هو المالك والسيد وهو يختلف عمَّا قبله .

من ذلك كله نجد أن الفصل والوصل مبحث عظيم لا يمكن تتبعه بجلاء إلاَّ من خلال دراسة مفصلة له ، ولكن مما سبق يمكن القول :

١ - إن الوصل في الدعاء فاق الفصل في الكثرة . ذلك أن الدعاء احتياجٌ تظهر فيه لهفة الداعي لتحقيق مراده ، فنراه يحاول أن يصل بين جمل الدعاء ، حتى لا يفوته ذكر شيء منها .

---

(١) وهو ما يعرف بالفصل لكمال الانقطاع .

(٢) يوسف / ١٠١ .

(٣) البقرة / ٢٨٦ .

٢ - إن أكثر صور الوصول مجيئاً (التوسط بين الكمالين) حيث تتفق الجملتان في الإنشائية، ذلك لأن أكثر أساليب الدعاء وروداً (الأمر والنهي).

٣ - إن أكثر صور الفصل وروداً في الدعاء (الفصل لشبه كمال الاتصال) لأن الدعاء أقوال صدرت عن الداعين عبروا فيها عن حاجاتهم فحكاها القرآن عنهم .

٤ - إن سياق الدعاء هو الذي يُظهر لنا المعاني الخفية والمناسبات الدقيقة التي تربط الجمل وتفصلها عن بعضها ، غير ما قرره علماء البلاغة من أسباب الفصل والوصل المعروفة .

وهذه المعاني غالباً ما تكون للمغايرة أو عدم المناسبة أو لرغبة الداعي في الاستزادة من الخير ، وإظهار حاجاته كطلب الرزق والولد والجنة والوقاية من النار وغيرها .

المبحث الثاني

ترتيب الجمل وأسراره

حظيت جمل الدعاء كغيرها من جمل القرآن بنصيب من الدراسة ، على أيدي المتقدمين والمتأخرين من علماء التفسير والبلاغة ، الذين نظروا إليها من حيث تقديم بعض الجمل على بعض أو تأخير بعضها عن بعض ، وفصل بعضها ووصل الآخر ، أو حذف بعض الجمل طمعاً في الإيجاز وبسط الأخرى رغبةً في الإطناب .

ولنا في هذا المبحث وقفة يسيرة نشير من خلالها إلى جهود علمائنا – خاصة المفسرين – في دراستهم للجمل وذلك عند دراستهم للكتاب العزيز الذي لا تنقضي عجائبه فقد كانوا أصحاب فكر واعٍ مستنير ، وقفوا وقفات مباركة حول جمل القرآن محللين ومعلقين عليها ، وهذا بابٌ من البلاغة الغائبة « قد اعتراه الإغفال زمناً »[1] .

ولعل أول من أشار إليه ودعا لولوجه الشيخ عبد القاهر أثناء حديثه عن النظم فقد بيَّن أن اتحاد أجزاء الكلام ، وتداخل بعضها في بعض ، وارتباطها فيما بينها ، وتكاثرها ، مسلك دقيق ينبع من توخي معاني الكلام ذاته ، وملاحظة الفروق الدقيقة بين جمله حيث قال : « واعلم أنَّ مما هو أصلٌ في أن يَدِقَّ النظر ، ويَغْمُض المسلك ، في توخي المعاني التي عرفت : أنْ تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأولٍ ، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً ، وأن يكون حالك فيها حال

---

(١) دلالات التراكيب / ٣٥٤ .

الباني يضع بيمينه هاهنا في حالٍ ما يضع بيساره هناك . نعم ، وفي حال ما يُبْصر مكانٌ ثالثٌ ورابعٌ يضعهما بعد الأوَّلين . وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حَدٌّ يحصره ، وقانون يحيط به ، فإنه يجيءُ على وجوه شتَّى ، وأنحاءٍ مختلفة »[1] وقوله كذلك : « وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام ، وهو ما تتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعاً واحداً ، فاعلم أنه النمط العالي والباب الأعظم ، والذي لا ترى سلطان المزيَّة يعْظُم في شيء كعِظَمه فيه »[2]. وقد عرض الشيخ لنماذج شعرية من هذا الباب بالشرح والتوضيح .

وهو بكلامه هذا قد فتح باباً عظيماً لدراسة تراكيب الكلام وتكوينات الجمل .

وقد ألحَّ الدكتور محمد أبو موسى في كثير من كتبه على قيام دراسات واعية تدور حول تكوينات الجمل حيث يقول في كتابه دلالات التراكيب : « قد كتبت هذا الكتاب في طبعته الأولى وأنا أفكر في موضوع تكوينات الجمل واختلاف هذا التكوين من كاتب إلى كاتب كما نبهت في الطبعة الأولى ، وكنت أقول في نفسي : لماذا عُني البلاغيون بعلاقات الجمل وأهملوا تكويناتها ونسجها الداخلي من حيث طولها وقصرها ؟ لأنهم عنوا بها ولا شك عناية فائقة من حيث التقديم والتأخير والحذف والذكر .. إلى آخره . وكنت أقرأ مع الطلاب أبواباً من صحيح البخاري ، وكان اهتمامي متجهاً إلى البنية التركيبية المتماسكة في كلامه ﷺ ، وأكثر كلامه ﷺ من الكلام الذي ترى فيه الجمل تتداخل وتتنامى ، ويلتحم بعضها ببعض حتى تكون

---

(١) دلائل الإعجاز / ٩٣ .

(٢) المصدر السابق / ٩٥ .

كالجملة الواحدة توضع في النفس وضعاً واحداً ... »[1] وقد شرح طرائق القرآن في تشابك الجمل وتداخلها في دراسته لآية عباد الرحمن من سورة الفرقان[2] . فدل بذلك على الطريق ومهد السبيل .

ونحن في هذا المبحث نتلمس الطريق الذي عُبِّد ونلج الباب الذي فُتح ، حيث ندرس بعض الآيات الدعائية للوقوف على سر ترتيب جملها على النحو الذي جاءت عليه ، معتمدين في ذلك على السياق القرآني الواردة فيه تلك الآيات .

ومن تلك الآيات ما جاء على لسان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[3] .

---

(١) دلالات التراكيب / ٣٥٥ .

(٢) المرجع السابق / ٣٦٦ .

(٣) إبراهيم ، الآيات من ٣٥ - ٤١ .

الدعاء السابق جاء في سبع آيات ضمت جملاً مترابطة متشابكة بينها وشائج صلة ويتعلق بعضها ببعض ، فبعد أن ذكر في الآيات قبلها ظلم الإنسان وتبديله النعمة بالكفر ، أمر الله رسوله أن يُذكِّر هؤلاء المعاندين الكافرين بالأيام السابقة، أيام أبيهم إبراهيم عليه السلام وذلك ليريهم حالهم من تبديل الشكر بالكفر من عبادة الأصنام ، مع ما وهبهم الله إيّاه من النعمة والخير . فقد دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه قائلاً : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ خلاف ما في البقرة ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[1] وذلك لأن الدعاء في البقرة كان أولاً بعد أن أسكن زوجته وولده ، وقد كانت مكة خالية من السكان لذا طلب من الله أن يجعلها بلداً موصوفاً بالأمن فدعا لها بالبلدية[2] أولاً ، أما ما في الآية هنا فإنه دعاء لها بعد أن صارت بلداً ، طالباً لها الأمن . لذا نكّر بلداً في البقرة وعرَّفها هنا .

ولما فرغ من طلب الأمن المكاني لها أتبع دعاءه بجملة ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ طالباً لسكانها الأمن النفسي ، وهو أمن من فساد العقيدة بأن يُعبد في هذا البلد غير الله كالأصنام التي كانت عبادتها منتشرة في عهده . لذا طلب الله أن يجنبه وبنيه عبادتها وعبَّر بالمضارع للدلالة على أن هذا المطلب متجدد في كل الأزمان وليس خاصاً بعهده هو بل مستمر في ذريته من بعده ، ثم يواصل دعاءه في تضرع وخشوع منادياً ربَّه ، فتأتي جملة ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لتوضيح سبب دعوته اجتناب عبادة الأصنام ، حيث أنها السبب وراء غواية كثير من الناس ، ثم يأتي تمام الآية

---

(١) البقرة / ١٢٦ .

(٢) أي أن تكون بلداً عامرة مأهولة بالسكان .

مبيناً أنه عليه السلام قد بلَّغ الدعوة فما على الناس سوى الاتباع والاهتداء لطريق الحق ، وبذلك يكونون من أتباعه ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ أما من قابل دعوته بالرفض والعصيان ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث دعا ربه أن يغفر له والتقدير (اغفر له فإنك غفور رحيم) .

وبعدما انتهى عليه السلام من طلب الأمن المكاني والنفسي لهذه البقعة المباركة وجعلها مهيئة للسكن الموجب للبقاء فيها ذكر سبب ذلك وبينه بقوله : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ فقد جاءت هذه الجملة مؤكدة لتظهر شدة الشفقة والرأفة على ذريته التي أسكن بعضاً منها وهما « هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام » في هذا الوادي الذي وصفه بأنه خالٍ من الزرع الأمر الذي يُدرك منه خلوه من الماء كذلك . ثم أتبع ذلك بالظرف ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ زيادة في البيان لأمر هذا الوادي فهو في موضعٍ عظيم كونه بيتاً لله ووصفه بالمحرم ، وفي ذلك دلالة على كون من نزله في حمى الله ومنعته لا يتعرض له أحدٌ فيه .

ثم يكرر لفظ ﴿ رَّبَّنَآ ﴾ زيادة في الضراعة ثم تأتي جملة ﴿ لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ مبينة السبب في إسكان ذريته هذا الوادي إذ أنه مما لا يكاد يصدقه أحد . فهو أسكنهم في هذا الوادي تنفيذاً لأمر الله عز وجل له حيث أمره بذلك كما جاء في الحديث ، عندما قالت له هاجر عليها السلام : « يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آالله أمرك بهذا ؟

قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا »[1] . فهو أسكنهم في هذا القفر المجدب لكي يقيموا الصلاة ، وقد خصَّها دون غيرها من العبادات لمكانتها في الدين فهي العهد والحد الفاصل بين الكفر والإيمان ، وهم من أجل إقامتها في هذا المكان يحتملون الجدب والحرمان . وفي التعبير بالمضارع (يقيموا) دلالة على أنها عبادة عظيمة يجب أن تستمر وتتجدد في كل عصر وأن يحرص كل جيل على إقامتها كاملة تامة .

ونظراً لنزولهم في هذا الوادي البلقع وانشغالهم بإقامة شعائر الدين ، فإن ذلك مدعاة لانشغالهم عن الكدح وطلب أسباب العيش لذا عقَّب بجملة : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ وعطف عليها بجملة ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ حيث طلب من ربه أن يأنسهم في هذا المكان بأن يجعل القلوب تهوي إليهم رفَّافة مجنَّحة مسرعة في شوق ومحبة ، قلوب تحمل معها الخير والحب لتقيم مع ذريته أمر الدين في تلك البقعة الطاهرة . لذا قال (إليهم) أي إلى ذريته . فتأنس قلوبهم بتردد الزائرين على هذا المكان . ولأن وفود هذه الجموع يترتب عليه قيام الحضارات ونشوء المعاملات فدعا أن يرزق الله ذريته من أنواع الثمرات المختلفة عن طريق هذه الجموع ، ولم يخص هنا المؤمنين كما جاء في البقرة : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾[2] وذلك للاكتفاء بذكر إقامة الصلاة في سورة إبراهيم في قوله : ﴿ لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ .

---

(١) البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء ٣ / ١٢٢٦ من حديث ابن عباس .

(٢) البقرة / ١٢٦ .

فينشأ عن ذلك الشكر منهم على هذه النعم الجليلة ، من هنا يمكن القول « إن هدفه من إسكان ذريته بجوار البيت هو إقامة الصلاة كاملة تامة ، وهدفه من الدعاء للذرية بإهواء القلوب إليهم ورزقهم من ثمرات الأرض شكر الله المنعم الوهاب »[١] .

« فالآية لتذكير قريش بهذه النعم الجليلة عليهم ببركة أبيهم الأعظم الذي نهى عن عبادة الأوثان »[٢] . ثم نراه عليه السلام يواصل تضرعه لله معترفاً بسعة علمه سبحانه وتعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ . فهذه الجملة جاءت بعد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ لتبين أن هذا الشكر وهذا الدعاء المعلن منه والمخفي هو في علم الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وفي هذا « تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النية إليه »[٣].

فالشكر مهم لاستمرار النعم ولهذا نراه عليه السلام يتبع كلامه بجملة : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق » . مطلقاً الحمد والثناء لله عز وجل الذي أنعم عليه بالذرية وهو في سن لا يولد فيها لمثله ، ثم جاء بالجملة التي تليها ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ مؤكداً فيها أنَّ هذه النعم هي استجابة منه سبحانه وتعالى لدعائه عليه السلام الذي قال فيه :

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١٣ / م٤ / ٢١١٠ .

(٢) نظم الدرر ٤ / ١٩٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٣ / ٢٤٣ .

﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[١] . ثم نراه يدعو بطلب الاستمرار على الأعمال الصالحة بعدما فرغ من الدعاء للذرية وحمده الله عز وجل وشكره على نعمة الولد ، وقد خصَّ الصلاة لما سبق فنراه يقول : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ ﴾ فهذه الجملة تدل على حرصه عليه السلام على إقامة أمر الدين وعموده والإقبال إلى الله بالأعمال الصالحة كنوعٍ من الشكر والعرفان وقد أفرد الضمير في ربّ – واجعلني ثم اتبع بقوله ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ ﴾ ليكون هو القدوة لهم وهم الأتباع يسيرون على نهجه في تحقيق الإيمان الكامل وعبَّر بالاسم (مقيم) ليدل على ديمومة هذه الإقامة وثباتها فيه وفي ذريته من بعده . ثم يطلب من ربه أن يتقبل دعاءه الذي كان منه ، فعطف على طلب إقامة الصلاة تقبل الدعاء ، ولعل ذلك راجع إلى العلاقة الوثيقة بين الصلاة والدعاء . ولما فرغ من دعائه السابق المتعلق بأمور الدنيا جاء بخاتمة دعائه لأمر متعلق بالآخرة ، وهو طلب الغفران من الله مبتدئاً بنفسه ثم والديه ثم عامة المؤمنين لذا جاءت الآية مصدَّرة (ربنا) مضافة لضمير الجمع . ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ .

وعند تأمل الجمل في الدعاء السابق نرى تآلفاً بين هذه الجمل وارتباطاً وثيقاً بينها ، تأخذ إحداهما بعجز الأخرى ، فهي مترتبة عليها ، منبثقة عنها، وكأن هذه الجمل جملةٌ واحدةٌ . أعطت القارئ صورة متكاملة لحال إبراهيم وذريته في تلك البقعة ، وجعلت الدعاء صورة شاخصة أمامنا نحس فيها بما

(١) الصافات / ١٠٠ .

يحسه عليه السلام ، من الخوف الممزوج بالشفقة والعطف على ذرتيه . فنقلتنا هذه الجمل إلى أجواء ذلك الوادي المقفر وطافت بنا بين جنباته ، وجعلت صدى هذا الدعاء يتردد في مسامعنا[(١)] .

وهذا التناغم بين الجمل نجده في دعاء سيدنا موسى عليه السلام في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[(٢)] .

فبعد أن جاءه أمر الله عز وجل في قوله : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[(٣)] ، بأن يتجه لدعوة فرعون إلى عبادة الله عز وجل ، دعا عليه السلام بذلك الدعاء فبدأ أولاً بقوله : ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ فهذه الجملة الدعائية جاءت لتبين أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى انشراح صدر الداعي

(١) راجع الآيات السابقة في :
١ - الكشاف ٢ / ٥٣٦ - ٥٤٠ .
٢ - الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٣٦٨ - ٣٧٥ .
٣ - تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ، وحاشية الشهاب ٥ / ٢٧٠ - ٢٧٤ .
٤ - تفسير أبي السعود ٥ / ٥٠ - ٥٤ .
٥ - نظم الدرر ٤ / ١٨٩ - ١٩٣ .
٦ - روح المعاني ١٣ / ٢٣٣ - ٢٤٤ .
٧ - التحرير والتنوير ١٣ / ٢٣٧ - ٢٤٤ .
٨ - في ظلال القرآن / جـ١٣ / مجلد ٤ / ٢١٠٩ - ٢١١١ .

(٢) طه / ٢٥ - ٣٢ .

(٣) طه / ٢٤ .

ليقوم على أمر الدعوة ويقبل على حمل تلك المسؤولية وأدائها على الوجه المطلوب ، فإذا ما حدث هذا وعلت الهمة وأقبل الداعي لتبليغ ما أُمر به ، تظهر الحاجة إلى تيسير أمره ، لذا جاءت جملة ﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ معطوفة على سابقتها ، لأن التيسير من مقتضيات الانشراح ويكون ذلك بإزالة كل العقبات التي تقف في طريق الداعي ، ولم تكن أمام سيدنا موسى عليه السلام سوى عقبة عدم الإفهام ، نتيجة ما حصل له وهو صغير من أكله للجمرة مما أحدث رتّة في لسانه . ولما كانت هذه هي العقبة الوحيدة نراه في الجملة التالية يعطف على الجملتين السابقتين داعياً الله عز وجل بقوله : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ أي أن يحل عقدة لسانه المانعة من الإفهام ، لا عقدة لسانه مطلقاً لذلك نكّرها . وقال عقدة من لساني ولم يقل عقدة لساني ، لأن المراد عقدة من عقد لساني . ثم جاءت الجملة التي تليها تعليلاً لهذا الطلب حيث قال : ﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ أي حتى يفقهوا ما أدعوهم إليه من الخير .

وبعد أن فرغ من طلب العون الداخلي المتمثل في إصلاح ذاته لحمل الرسالة إلى فرعون اتجه إلى طلب الإصلاح الخارجي لأمر الدعوة المتمثل في أمداده بالمعين الصادق الذي يتحمل معه أعباء هذه الأمانة ويكون من أهله مبيناً لشخصه وهو هارون عليه السلام . أخوه الذي سيكون له خير ناصر وخصّ أن يكون الوزير من أهله ليكون أشفق عليه وأحرص .

وتأتي جملة ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ وبعدها جملة ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ معطوفة عليها لبيان أثر هذا الوزير وفائدته التي تعود على موسى فبين أن هذا الوزير الأخ ، سيشد أزره ويزيد قوته . ليس ذلك فحسب بل

سيشاركه في أمر الدعوة ومهمة التبليغ . ولذا جاء بالجار والمجرور (في أمري) أي بعضاً من أمور الدعوة التي أكلفه بها .

فالجمل السابقة جاءت مرتبة « حسب ترتيبها في الواقع »[١] متداخلة تداخلاً منحها صفة التّوحد والترابط حتى لكأنها جملة واحدة سبكت في قالبٍ دعائي واحد .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٢] .

فالآية السابقة آية واحدة ، ولكنها جاءت تحمل خمس جمل مترتبة كل واحدة منها مرتبطة بالأخرى آخذة بعضها برقاب بعض فجملة ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ذُكرت بعدما دعا عليه السلام طالباً من ربه جعله وذريته من المسلمين ولما كان معلوماً أن الإسلام لا يتحقق إلاَّ بإرسال الرسل قال : ﴿ وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ . وقد جعل البعث فيهم والمراد به البعث في الأمة المسلمة لذا قدَّم الجار والمجرور (فيهم) لاهتمامه بأمر هذه الأمة ولما كان بعث الرسل في الأمم يقتضي أحياناً أن لا يكون الرسول المبعوث إليهم منهم ختم عليه السلام هذه الجملة بالجار والمجرور (منهم) حرصاً منه عليه السلام أن يكون الرسول منهم ، ليكون ذلك أدعى لاتباعه وإجابة دعوته ، وليكون « أرفق بهم وأشفق عليهم ويكونوا هم أجدر

---

(١) التحرير والتنوير ١٦ / ٢١٠ .

(٢) البقرة / ١٢٩ .

باتباعه والترامي في نصره »[١] .

ثم تأتي الجمل الأربع المتعاطفة مبينة عمل الرسل في هذه الأمة ، فالجملة الأولى قوله تعالى : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ فتبدأ مهمة الرسول بتبليغ أمر الدعوة إلى الناس ويكون ذلك بتلاوة آيات الله - القرآن - فإذا تمَّ له ذلك اتجهت الحاجة إلى تعلم معانيه لذا عطف بجملة ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ على ما سبق . حيث يأتي تعلم القرآن أولاً ثم تعلم الحكمة (السنة) ثانياً لذا أُخِّرتْ الحكمة . ولما كان البعث مراداً به البعث في الأمة المسلمة فإن الجملة الثالثة ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ جاءت مؤخرة ، ذلك أن التزكية أصلها موجود بالإسلام ، وإنما هم في حاجة إلى تعليم ما ذُكر أكثر من حاجتهم إليها[٢] . في حين أنه في سورة الجمعة عندما ذكر بعثه في الأميين عامة اقتضى المقام تقديم جملة ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ تلك التزكية التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر ، ليقبلوا على ما جاءهم من العلم ، وأمَّا تقديمها في آل عمران مع ذكر البعث للمؤمنين فلأن الحال اقتضت ذلك ، كونها حال معاتبة على الإقبال على الغنائم مما سبب الهزيمة لهم[٣] . ثم تأتي الخاتمة لهذا الدعاء بالجملة المؤكدة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ « وفي ذلك إظهار عظيمٌ لشرف العلم وطهارة الأخلاق، وأن ذلك لا ينال إلاَّ بمجاهدات لا يطيقها البشر ولا تدرك أصلاً إلاَّ بجدٍ تطهره العزةُ وترتيب أبرمته الحكمة »[٤].

---

(١) نظم الدرر ١ / ٢٤٣ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٢٤٤ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٤٤ .

(٤) المرجع السابق ١ / ٢٤٤ .

ومن الآيات التي جاءت جملها مرتبة ترتيباً روعي فيه السبب ما جاء على لسان جنود طالوت في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1] . فالصبر سبب لتثبيت الأقدام وكلاهما سبب للنصر ، ففي الآية السابقة جاءت خمس جمل وضعت كل واحدة منها في موضعٍ لا يكون إلاَّ لها وفي نسق من الكلام ترتب ترتيباً لا يؤدي غيره معناه .

فالجملة الأولى ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ جاءت كاشفة لحال هؤلاء الداعين مصورة جو المعركة وكيف أنهم في فضاءٍ من الأرض دلَّت عليه كلمة (برزوا) وهم على ما هم عليه من الضعف والقلة التي أخبروا عنها قبل ذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[2] . ويعنون بالفئة القليلة أنفسهم والفئة الكثيرة جنود جالوت . ثم إن بروزهم أمام هذه الفئة الظالمة بكثرتها وقوتها ، ترتب عليه التجاؤهم إلى الله بقلوبهم وألسنتهم حيث دعوه سبحانه وتعالى ، لذا جاءت جملة (قالوا) وتلتها ثلاث جمل متعاطفة لتبين قولهم الذي قالوه والذي بدأوه بجملة ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ وتصديرها بـ(بربنا) تذللاً وتضرعاً لله عز وجل طالبين منه عز وجل إفراغ الصبر عليهم وسكبه في قلوبهم ، والإفراغ يكون دائماً من علو ودفعة واحدة ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم يريدون الصبر فيضاً ينزل

---

(١) البقرة / ٢٥٠ .

(٢) البقرة / ٢٤٩ .

عليهم من الله مباشرة فيحيط بهم من كل جانب ، وقد قدموه على تثبيت الأقدام والنصر حتى لا يعتريهم الخوف من هذا الجيش فيكون ثباتهم من الداخل أولاً ، وقد صوروا الصبر كالماء الذي يُسكب عليهم فيغنيهم عن الماء الذي منعوا منه . ثم إذا ثبتت قلوبهم بالصبر احتاجوا إلى ثبات أقدامهم فجاءت جملة ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ فلا تزيغ ولا تنحرف في ساحة القتال . ثم إنهم لما تمكنوا من ثبات داخلهم وخارجهم ، امتلأت نفوسهم ثقةً بنصر الله ، لذا ختموا دعاءهم بجملة ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١] معتمدين على الله في تحقق هذا النصر ثم على إيمانهم، وفي نعتهم القوم بالكافرين ، زيادة استعطاف لله عز وجل ، وبيان أنهم أحق منهم بالنصر لإيمانهم بالله عز وجل . الذي لا يُغْلَب ولا يرد من دعاه من عباده المؤمنين .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٢] نرى ثلاث جملٍ كان ترتيبها في غاية الإحكام ، حيث جاءت الجملة الأولى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مقدَّمة على الجملة الثانية ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ذلك « أن العبادة تقرُّب للخالق تعالى فهي أجدر بالتقديم في المناجاة وأما الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه فناسب أن يقدم المناجي ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك »[٣]

---

(١) راجع الآية في تفسير أبي السعود ١ / ٢٤٤ ، فتح القدير ١ / ٢٦٦ ، تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب ٢ / ٣٣١ ، نظم الدرر ١ / ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٢) الفاتحة / ٥ - ٦ .

(٣) التحرير والتنوير ١ / ١٨٦ .

ولأن العبادة « لا تتم ولا تحصل إلاَّ بمعونة الله »[١] ثم لما قدَّم العبادة وتلاها بما يعين عليها ، جاءت الجملة الثالثة لتبين كيفية هذه الإعانة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فكأنه قيل كيف أعينكم ؟ فقالوا : اهدنا وأرشدنا إلى الحق وملة الإسلام ، ومعنى طلبهم الهداية وهم مهتدون ، زيادة في الهدى أو بمعنى ثبتنا أي طلب الاستمرار على هذا الحق وعدم الانحراف عنه[٢] .

وقد يأتي ترتيب الجمل في الذكر مخالفاً لترتيبها في الوجود من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِى مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِى مُخۡرَجَ صِدۡقٍ ﴾[٣] . فجملة ﴿ أَدۡخِلۡنِى مُدۡخَلَ صِدۡقٍ ﴾ يراد بها الإدخال إلى المدينة وجملة ﴿ وَأَخۡرِجۡنِى مُخۡرَجَ صِدۡقٍ ﴾ الإخراج من مكة . فالمقدم في الذكر مؤخر في الوجود ، لأن الإخراج يكون أولاً ثم الإدخال يأتي بعده . ولكن جاء الترتيب على هذا الوجه لأن المقدم هو الأهم بالنسبة للداعي ، فالإدخال للمدينة أهم للرسول عليه السلام[٤] .

فمما سبق يمكن القول إن ترتيب جمل الدعاء القرآني كان في معظمه ترتيباً يراعى فيه الترتيب الواقعي للأحداث . وإن بعض الآيات تتكاثر فيها الجمل وتُبنى على بعضها في نسق محكم تتآزر فيه جمله وتتداخل ويلحق بعضها بعضاً . وبعضها الآخر تقل فيه الجمل ويكون الترتيب بين جملتين

---

(١) تفسير البيضاوي ١ / ١١٠ .

(٢) انظر الكشاف ١ / ٢٥ .

(٣) الإسراء / ٨٠ .

(٤) انظر البحر المحيط ٧ / ١٠٢ ، تفسير أبي السعود ٥ / ١٩٠ .

فقط نحو قوله : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[١] حيث جاءت جملة ﴿ سَمِعْنَا ﴾ مقدمة على جملة ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ لأن السمع يقع منهم أولاً ، وهو طريق الدعوة في الوصول إلى الناس ثم تظهر نتيجته إمّا بالإجابة والطاعة ، وإمّا بالرفض والعصيان .

(١) البقرة / ٢٨٥ .

المبحث الثالث

مظاهر الإيجاز والإطناب

يعدُّ الإيجاز والإطناب من أبواب البلاغة المهمة ، وقد تناولها الدارسون بالتفصيل والإيضاح ، مع العلم أن مسألة الإيجاز في الكلام - بالحذف أو بالقصر - والإطناب فيه مسألة يحددها المتكلم ، وتكون حسب الحاجة ، ووفق ما يقتضيه المقام ، فكل منهما مطلوبٌ في موضعه ، وله بلاغته ، فلا الإيجاز أبلغ من الإطناب ، ولا الإطناب أبلغ من الإيجاز ، بل كما قال أبو هلال العسكري[١] : « الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضع ، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ »[٢] .

ويلحظ المتأمل للدعاء القرآني أنَّ الإيجاز والإطناب يتآزران معاً للإبانة عن المعاني الواردة على ألسنة الداعين ، في أسلوب يفيض بروائع البلاغة في البيان المعجز ؛ وقد ناسب كل واحدٍ منهما موضعه الذي وضع فيه ، وأدَّى معناه كما يجب ، وكما يقتضيه السياق في تجانس بديع ونظم معجز ،

---

(١) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، عالم بالأدب، له شعر وتوفي بعد ٣٩٥ هـ ، ومن كتبه : التلخيص في اللغة ، وجمهرة الأمثال ، وكتاب الصناعتين : النظم والنثر .

انظر ترجمته في : الأعلام ٢ / ١٩٦ .

(٢) الصناعتين / ١٩٠ .

وسنعرض لصور الإيجاز والإطناب الواردة في الدعاء القرآني على النحو الآتي:

أولاً : الإيجاز :

الإيجاز هو : « أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط »[١] ، وهو ضربان : أحدهما إيجاز القصر ويراد به : « تقليل الألفاظ وتكثير المعاني »[٢] . ومما ورد منه في آيات الدعاء قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾[٣] . وقوله : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾[٤] ، فالحسنة في الآيتين فيها من الإيجاز الشيء الكثير ، فهي كلمة جامعة لكل خير كالزوجة الصالحة ، والعلم النافع ، والولد الصالح ، والرزق الطيب ، والمال ، والفهم لكتاب الله[٥] فالحسنة لفظة واحدة حملت في مضمونها معانٍ عديدة متنوعة .

ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[٦] . فقوله : ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ قول موجز ، أي أنَّ ابني من صلبي فردَّه إليَّ ونجّه من العذاب فهو من أهلي الذين

---

(١) الإيضاح للخطيب القزويني ٣ / ١٧١ .

(٢) الصناعتين / ١٧٥ .

(٣) البقرة / ٢٠١ .

(٤) الأعراف / ١٥٥ .

(٥) راجع تفسير الطبري ٢ / ٣٠٠ .

(٦) هود / ٤٥ .

أمرتني بحملهم إلاَّ من سبق عليه القول كامرأتي لكفرها[١] .

فعبَّر عليه السلام عن لهفته على ولده وحبه له بهذا القول الموجز لأن المقام مقام شدة وكرب وقلق على الأهل والذرية .

ونجد من شواهد إيجاز القصر في قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾[٢] فقد عبَّر إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ عن خلو هذا الوادي من مقومات الحياة ، أي أن هذا الوادي الذي أنزل فيه زوجته هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام وادٍ لا يصلح للسكن ، ذلك لأنه مفتقر لأهم ما يحتاجه الإنسان ليحيا، وهو الماء الذي ترتب على خلوه من هذا الوادي أن خلا أيضاً من النبات وأنواع الزروع المختلفة التي منها ما يكون غذاءً للإنسان . وجاء قوله : ﴿ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ في وصف هذا الوادي ، ليدفع ما قد يتوهمه السامع من أن يكون هذا الوادي وادياً خصباً فيه ماء ونبات ، لأن منها ما هو كذلك ، وفي ذكره الزرع والاكتفاء به دون الماء للدلالة على قفر هذا الوادي وجدبه بلاغة رائعة ، لأن الماء قد يوجد في المكان ولا ينبت فيه نبات، لكن لا نبات دون ماء .

ومن ذلك أيضاً ما جاء على لسان الخليل عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[٣] فقوله : ﴿ مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ يحمل عدة

(١) راجع نظم الدرر ٣ / ٥٣٥ .

(٢) إبراهيم / ٣٧ .

(٣) إبراهيم / ٤٠ .

معان فهو أراد أن يجعله الله مقيماً للصلاة على أكمل وجهٍ ، مؤدياً لها في وقتها ومتماً لركوعها وسجودها على الوجه المطلوب كما يحب سبحانه ويرضى .

ومنه كذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾[1] فقوله : ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ عبارة موجزة، أي ظلمتها بإقدامي على ما لم يؤذن لي فيه من قتل القبطي انتصاراً للإسرائيلي .

ونلمح هذا الإيجاز في قول نوح عليه السلام : ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[2] أي أن قومي غلبوني بكفرهم ، ولا حيلة لي في هدايتهم ، فقد بالغت في دعوتهم بكل الطرق والوسائل دونما جدوى ، حيث قابلوا دعوتي بالكفر والإعراض ، فعاقبهم يا رب وانتصر لدينك .

وفي قوله تعالى تعليماً للإنسان الدعاء لوالديه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[3] يظهر الإيجاز في معنى التربية ، فالتربية اسم جامع شامل لصنوف الرعاية والاهتمام المقدمة للولد ، من عناية بطعامه وشرابه ولباسه وتهذيب أخلاقه ، وتعليمه وكل ما فيه رحمة بهذا الصغير . فحمل لفظ التربية كل هذه المعاني وأظهرها في الكلام كأنها مذكورة فيه .

---

(١) القصص / ١٦ .

(٢) القمر / ١٠ .

(٣) الإسراء / ٢٤ .

- أمَّا الضرب الثاني من الإيجاز فهو إيجاز الحذف وهو « ما يكون بحذف والمحذوف إما جزء جملة أو جملة أو أكثر من جملة »[١] ، وقد جاء هذا الضرب بأنواعه المختلفة في الدعاء القرآني ومن نماذجه :

أ - حذف جزء من أجزاء الجملة :

(١) حذف أداة النداء :

التزم القرآن الكريم حذف أداة النداء (الياء) مع كلمة (رب) خاصة في كل موضع وردت فيه إلاَّ في موضعين :

الأول قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[٢] .

والثاني قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٣] .

وقد علل الكرماني هذا الحذف بأنه للتنزيه والتعظيم بقوله : « كثر حذف (يا) في القرآن مع الرب تنزيهاً وتعظيماً ، لأن في النداء طرفاً من الأمر »[٤] . فقد أرجع النداء إلى أصل معناه من طلب الإقبال الدال على الأمر ، لذلك عند توجيهه لله حذفت الأداة تنزيهاً وتعيظماً له من أن يؤمر ، وقد رُدَّ عليه بأن « حذف أداة النداء لا يعني حذف النداء ، وإلغاء معناه ،

---

(١) الإيضاح ٣ / ١٨٥ .

(٢) الفرقان / ٣٠ .

(٣) الزخرف / ٨٨ .

(٤) العجائب للكرماني نقلاً عن الإتقان للسيوطي ٣ / ١٨٩ .

ومن ثم فلا معنى لتعليل الحذف بأنه كان لتنزيه الله تعالى وتعظيمه من أن يتوجه إليه ما هو على صورة الأمر ، لأن دلالة النداء على الطلب (طلب الإقبال) ثابتة ذكرت الأداة أو حذفت »[١] .

وللشاطبي[٢] تعليل حول هذا الحذف ، فقد جعل الحذف هنا لأن الأداة تدل على التنبيه والله منزه عن ذلك ، ولأنها تستخدم لنداء البعيد مع أن الله قريب من عباده ، والداعين خاصة حيث يقول : « حرف النداء للتنبيه في الأصل ، والله تعالى منزه عن التنبيه ، وأيضاً فإن أكثر حروف النداء للبعيد ، ومنها (يا) التي هي أم الباب ، وقد أخبر الله - تعالى - أنه قريب من الداعي خصوصاً ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾[٣]. ومن الخلق عموماً لقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾[٤] »[٥] وقد رُدَّ عليه بأنَّ التنبيه هنا حمل معنى الدعاء لله عز وجل ، ليقبل على الداعي بالخير الذي يطلبه ، وأن المراد بالبعد هنا ليس بعد المكان وإنما بعد المكانة والمنزلة[٦] .

(١) بلاغة الدعاء في الحديث النبوي / ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ ، أصولي حافظ من أهل غرناطة ، من مؤلفاته : الموافقات ، والمجالس ، والاتفاق في علم الاشتقاق .

انظر ترجمته في : الأعلام ١ / ٧٥ .

(٣) البقرة / ١٨٦ .

(٤) المجادلة / ٧ .

(٥) الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي نقلاً عن بلاغة الدعاء في الحديث النبوي / ٢٤٤ .

(٦) راجع بلاغة الدعاء في الحديث النبوي / ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

وممن علل حذف الأداة أيضاً الدكتور أحمد بدوي بقوله : « لعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه »[١] . وبعضهم أرجعه « لكثرة الاستعمال والإحساس بالقرب الداني والإيناس بهذا المقرب »[٢] . وقيل أيضاً : « إن كلمة رب أكثر استعمالاً من غيرها في الدعاء ، فروعي فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع في الألسنة وأسهل في مجاري الحديث »[٣] ، وهو لكثرته غني عن التمثيل[٤] .

(٢) حذف المضاف :

يحذف المضاف من الكلام لأنه معلوم لدى السامع ، فهو يقدره دون حاجة إلى ذكره ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[٥] ، فقوله : ﴿ عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ فيه حذف للمضاف قدّره الطبري وابن عطية على ألسنة رسلك[٦] ، وقدّره الزمخشري بقوله : « ما وعدتنا على تصديق رسلك ... ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف ، أي ما وعدتنا منزلاً على رسلك ، أو محمولاً على رسلك ... وقيل على ألسنة رسلك »[٧] . ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

(١) من بلاغة القرآن / أحمد أحمد بدوي / ١٦٨ .

(٢) الأساليب الإنشائية / د. صبّاح عبيد دراز / ٦٦ .

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية / د. عبد العظيم المطعني ٢ / ٨ .

(٤) راجع المعجم المفهرس (٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤) .

(٥) آل عمران / ١٩٤ .

(٦) البحر المحيط ٣ / ٤٧٤ .

(٧) الكشاف ١ / ٤٤٥ .

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١] .
فقد حُذف المضاف وقُدّر بالعقوبات - أو جزاء السيئات[٢] .

(٣) حذف المضاف إليه :

كثر حذف المضاف إليه في الدعاء خاصة إذا كان المضاف إليه (ياء المتكلم) والمضاف (رب) والسر في ذلك : « أن كلمة (رب) لا تحتاج في نسبتها إلى المتكلم إلى تلك العلامة اللفظية (الياء) فهو رب كل شيء سواء أضيف أو لم يضف ، وقد حرص القرآن الكريم على أن يستعمل هذه الكلمة محذوفاً منها ضمير المتكلم المضاف إليه في أغلب مواضعها »[٣] .

وهنالك سبب لفظي يرجع إلى أن لفظة (ربَّ) لما كان يكثر استعمالها في النداء « روعي فيها وجه الخفة بحذف ما تضاف إليه إلاَّ أن يكون ما تضاف إليه اسماً ظاهراً غير ضمير المتكلم ... كقوله تعالى ﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٤] ، ولأن قوة القرينة مع الإضافة إلى ياء المتكلم ساعدت على أمر الحذف بخلاف غيره ... وهو فضلاً عن كونه من التوسع في اللغة فإن فيه فضيلة الإيجاز مع وفاء الدلالة »[٥] .

---

(١) غافر / ٩ .

(٢) انظر الكشاف ٤ / ١٤٩ - البحر المحيط ٩ / ٢٣٩ - البيضاوي وحاشية الشهاب ٧ / ٣٦٠ .

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢ / ٤٨ .

(٤) الشعراء / ٢٦ .

(٥) خصائص التعبير القرآني ٢ / ٤٨ - ٤٩ .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ﴾[١] وقولــه : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[٢] . وقولــه : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾[٣] .

(٤) حذف الفعل والفاعل :

ورد حذف الفعل والفاعل في الدعاء ، وذلك لدلالة ما قبله عليه ، فعندما أعيد حُذف رغبة في الإيجاز وذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[٤] ، فعندما عطفت جملة ﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ على الجملة قبلها حذف الفعل والفاعل (آتنا) لدلالة الفعل (آتنا) قبله عليه . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[٥] . أي اكتب لنا في الآخرة حسنة فحذف الفعل والفاعل من الجملة الثانية (وفي الآخرة) لدلالة الفعل قبلها (اكتب لنا) على المحذوف .

ويكثر في الدعاء القرآني حذف القول من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٦] . أي يقولان ، ومنه أيضاً قوله

(١) المائدة / ٢٥ .

(٢) المؤمنون / ٢٦ - ٣٩ .

(٣) الأحقاف / ١٥ .

(٤) البقرة / ٢٠١ .

(٥) الأعراف / ١٥٦ .

(٦) البقرة / ١٢٧ .

تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[١] . وقوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٢] . وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾[٣] . ففي الآيات السابقة محذوف تقديره (يقولون) ومن حذف الفاعل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[٤] أي « يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب عن ذكر الناس إذ كان مفهوماً معناه »[٥] .

(٥) حذف المفعول :

اهتم البلاغيون بحذف المفعول اهتماماً خاصاً ، فبحثوا في أسرار حذفه ، وأفردوا له مباحث خاصة ، لأنه كما قال عنه الشيخ عبد القاهر : تكثر لطائفه وتدق أسراره وكأن المزايا فيه أخلب وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب[٦] . وقد كثر حذف المفعول في الدعاء القرآني ، ومن نماذجه :

١ - حذف مفعول الفعل (اغفر) فقد ورد هذا الفعل في الدعاء ثمان عشرة مرة ذكر مفعوله في ثلاثٍ منها في سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى:

(١) آل عمران / ٨ .

(٢) آل عمران / ١٩١ .

(٣) غافر / ٧ .

(٤) إبراهيم / ٤١ .

(٥) الطبري ٨ / ٢٣٦ .

(٦) راجع دلائل الإعجاز / ١٥٣ .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾[1] . وقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا ﴾[2] وقوله كذلك : ﴿ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾[3] . حُذف في الآيات الأخرى منها قوله تعالى: ﴿ وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا ﴾[4] وقوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[5]. وقوله : ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ ﴾[6][7] . ويمكن تقدير المفعول لهذا الفعل من خلال تتبع مادة غفر في القرآن ، حيث يغلب أن يكون مفعولها (ذنوبنا أو خطايانا) وهذا الحذف جاء لقوة دلالة الحس على تقديره فهو من قوة تعلقه بالفعل أصبح كالمذكور معه ، يدل عليه حتى لو لم يذكر في الكلام ، وفي هذا نوعٌ من الإيجاز كون المحذوف معلوماً في ذهن السامع .

٢ - حذف مفعول الفعل (تقبّل) في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[8]. وقوله : ﴿ فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) آل عمران / ١٦ .

(٢) آل عمران / ١٤٧ .

(٣) آل عمران / ١٩٣ .

(٤) البقرة / ٢٨٦ .

(٥) الأعراف / ٢٣ .

(٦) الأعراف / ١٥١ .

(٧) راجع المعجم المفهرس (غفر) ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٨) البقرة / ١٢٧ .

ﭐلْعَلِيمُ﴾[١] وتقدير المفعول في الآية الأولى (دعاءنا) وذلك لأنه ذكره في سورة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾[٢] ، وقيل : (تقبل أعمالنا)[٣] . وتقديره في الآية الثانية (تقبل مني نذري) وقد حُذف كلاهما لدلالة السياق عليه ، وفيه إيجاز بليغ بحذف ما يمكن أن يُقدَّر تعويلاً على الحس .

٣ - حذف المفعول من (سمعنا - وأطعنا) في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٤] . أي سمعنا ما جاءنا وأجبناه وأطعنا أمرك .

٤ - حذف المفعول من قوله تعالى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[٥] أي اكتب لنا في الآخرة حسنة كذلك ، فنحذف المفعول به لدلالة المذكور قبله عليه . ومثله قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾[٦] فقد « ترك المفعول الثاني لتنزيل الفعل منزلة ما لا يتعدى إلى المفعول الثاني لعدم تعلق الغرض ببيانه أي أعطنا عطاءً في الدنيا ، أو يقدر المفعول بأنه الإنعام أو الجائزة ، أو محذوف لقرينة

---

(١) آل عمران / ٣٥ .

(٢) إبراهيم / ٤٠ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٦١٩ .

(٤) البقرة / ٢٨٥ .

(٥) الأعراف / ١٥٦ .

(٦) البقرة / ٢٠٠ .

قوله (حسنة) فيما بعد ، أي آتنا في الدنيا حسنة »[١] .

٥ - ومن حذف المفعول كذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾[٢] أي أرسل جبريل إليه بالوحي ، وحُذف رغبة في الإيجاز وكون الاهتمام منصباً على أمر الدعوة فالمقام مقام شدة وضيق واستعداد لمقابلة أمر عظيم أمر دعوة فرعون فهو في حاجة إلى هارون ليكون معيناً له .

٦ - وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٣] . حذف المفعول به (ولداً) وذلك « لدلالة الهبة عليه فإنها في القرآن وكلام العرب غلب استعمالها مع العقلاء في الأولاد »[٤] .

٧ - وقوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ... ﴾[٥] حذف المفعول به وتقدير الكلام : « إني أسكنت من ذريتي جماعة أو رجالاً أو قوماً ... »[٦] وذلك لدلالة الكلام على المراد وهو أسلوب يكثر استعماله مع من . وبهذا نرى أن حذف المفعول إمّا لضيق المقام ، وإمّا لدلالة ما قبله عليه .

---

(١) التحرير والتنوير ٢ / ٢٤٧ .

(٢) الشعراء / ١٢ - ١٣ .

(٣) الصافات / ١٠٠ .

(٤) حاشية الشهاب ٧ / ٢٧٩ وانظر (الكشاف ٤ / ٥٠ - البحر المحيط ٩ / ١١٥ - تفسير أبي السعود ٧ / ١٩٩) .

(٥) إبراهيم / ٣٧ .

(٦) تفسير الطبري ٨ / ٢٣٣ .

(٦) حذف المبتدأ :

قلّ حذف المبتدأ في آيات الدعاء ، إن لم يندر ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[١] . ففي الآية مبتدأ محذوف والآية خبره فكأنه « قيل من أولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين ... »[٢] .

(٧) حذف المصدر :

يحذف المصدر خاصة إذا كان مؤكداً للفعل ومما جاء منه في الدعاء قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾[٣] (أي حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا)[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾[٥] وقوله : ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾[٦] أي عملاً صالحاً وحذف هذا المصدر لوضوحه ودلالة الفعل عليه . ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[٧] . أي ارحمهما « رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي »[٨] .

---

(١) آل عمران / ١٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ / ١٦ - انظر فتح القدير ١ / ٣٢٤ .

(٣) البقرة / ٢٨٦ .

(٤) تفسير أبي السعود ١ / ٢٧٧ .

(٥) فاطر / ٣٧ .

(٦) الأحقاف / ١٥ .

(٧) الإسراء / ٢٤ .

(٨) تفسير أبي السعود ٥ / ١٦٧ .

ب - حذف الجملة :

حفل القرآن بكثير من نماذج هذا الحذف ومما ورد منه في الدعاء القرآني قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ مُّجۡرِمُونَ ﴾[١] « أي فانتقم منهم »[٢] .

ومن حذف الجملة حذف جواب الشرط إذا دَلَّ عليه دليل فيكون في حذفه نوع من الإيجاز من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[٣] . فإن أسلوب الشرط هنا حذف جوابه لدلالة جواب القسم عليه ، مع العلم أن القسم ذاته محذوف ، والتقدير : والله إن لم يغفر لنا لنكونن من الخاسرين[٤] . ومن حذف الجملة كذلك حذف جواب القسم نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[٥] . التقدير أقسم بما أنعمت عليَّ من المغفرة لأتوبن[٦] . فحذف جواب القسم كونه مفهوماً من السياق . ومنه كذلك حذف السؤال في الاستئناف البياني كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾[٧] ، ففي الكلام « استئناف مبني على سؤال ينساق إليه الذهن

---

(١) الدخان / ٢٢ .

(٢) البحر المحيط ٩ / ٤٠١ .

(٣) الأعراف / ٢٣ .

(٤) انظر البحر المحيط ٥ / ٢٩ - حاشية الشهاب ٤ / ١٥٩ .

(٥) القصص / ١٧ .

(٦) انظر الكشاف ٤ / ٣٨٥ - البحر المحيط ٨ / ٢٩٣ - تفسير أبي السعود ٧ / ٧ .

(٧) طه / ٢٥ - ٢٦ .

كأنه قيل : فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الأمر العظيم والخطب العسير ، فقيل : قال مستعيناً بربه عز وجل ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾[1] . وهذا النوع من الحذف يكثر في أسلوب القصص والمحاورات رغبةً في الإيجاز حتى لا تطول القصة بل يُكتفى منها بالأحداث البارزة ، ويُترك ما يُفهم من السياق ليقدره السامع فيكون وقعه أبلغ ولما فيه من تنشيط الذهن . وهذا الغرض أيضاً نجده في حذف الجمل والتي تكثر كذلك في أسلوب القصص ومنه قوله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] « أي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى في الظلمات »[3] .

مما سبق يتضح لنا أن الإيجاز في الدعاء القرآني يقع إمَّا بتقليل الألفاظ وتكثير المعاني – إيجاز القصر – وإمَّا بالحذف كحذف حرف أو كلمة أو جملة أو عدة جمل وكان أكثر أنواع الحذف في آيات الدعاء حذف المفعول .

وتقف خلف هذا الحذف ثلاث مزايا (الأولى الإيجاز ... والثانية صيانة الجملة من الثقل والترهل اللذين يحدثان من ذكر ما تدل عليه القرينة ، والثالثة إثارة الفكر والحس بالتعويل على النفس في إدراك المعنى[4] .

أمَّا حذف الجمل فيغلب وروده في سياق القصص الطويلة حيث تقتطع

---

(١) تفسير أبي السعود ٦ / ١٢ .

(٢) الأنبياء / ٨٧ .

(٣) تفسير أبي السعود (٦ / ١٢) وانظر تفسير البحر المحيط ٩ / ١٢٤ .

(٤) خصائص التراكيب / ١١٨ .

أجزاء من أحداث القصة إمَّا لأنها معلومة ، أو لأنه لا فائدة تعود على السامع من معرفتها ، أو لكونها قد ذكرت في موضع آخر - وبعامة فإن الدعاء القرآني يمتاز بالإيجاز سواء كان منشأ هذا الإيجاز القصر أو الحذف ، ولا بد أن يراعى في ذلك مقام الدعاء وحالة الداعي ، ولا يغني هذا أن الدعاء القرآني خلا من الإطناب . بل نرى صوراً للإطناب في مقامات الدعاء منها :

١ - الإيضاح بعد الإبهام :

كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾[١] . « ففي زيادة كلمة لي مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولاً وتفسيرها ثانياً »[٢] . ففي الكلام زيادة بيان وإيضاح وتفخيم للأمر وتعظيم له[٣] . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾[٤] . فمن الجائز أن يقال : « قواعد البيت » على الإضافة ، ولكن قولهما : (القواعد من البيت) إيضاح بعد إبهام وعدل عن الإضافة إلى ما هو مذكور « لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين »[٥] .

---

(١) طه / ٢٥ - ٢٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٦ / ١٢ .

(٣) انظر الإيضاح / شرح محمد عبد المنعم خفاجي ٣ / ١٩٧ ، البحر المحيط ٧ / ٣٢٨ - الكشاف ٣ / ٥٩٥ ، التحرير والتنوير ١٦ / ٢١١ .

(٤) البقرة / ١٢٧ .

(٥) الكشاف ١ / ١٨٧ ، انظر تفسير البيضاوي والشهاب ٢ / ٢٣٨ .

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ ﴾[1]. فقولهم : (سمعنا منادياً) إبهام بينوه بقولهم : (ينادي للإيمان) وفي هذا (أسلوب بديع يصار إليه للمبالغة في تحقيق السماع والإيذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل إلى تفصيله واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن المسموع منه بالمنادي ثم وصف بالنداء للإيمان على طريقة قولك سمعت متكلماً يتكلم بالحكمة ، لما أنَّ التفسير بعد الإبهام والتقييد بعد الإطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول[2] .

٢ – ذكر العام بعد الخاص :

هذا الضرب من الإطناب نجده في الدعاء القرآني حيث يبدأ الداعي بذكر نفسه أولاً ثم من يهتم لأمرهم كالوالدين والأتباع وغالباً ما يكون على لسان الأنبياء .

---

(١) آل عمران / ١٩٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ١٣٢ .

وقولــــــــــــــــه : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[١]. وقولـــه كذلـــك : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[٢] . فالدعاء في الآيتين السابقتين بدأ فيه الداعي بنفسه وطلب لها المغفرة ثم أتبع ذلك بذكر من لهم صلة به كأبويه وأتباعه من أهل الإيمان .

---

(١) إبراهيم / ٤١ .

(٢) نوح / ٢٨ .

٣ – التكرير :

التكرار من صور الإطناب ، وقد كثر في الدعاء القرآني تكرار لفظ (ربنا) ومن أسراره : ١ – إظهار المبالغة في الضراعة والاستعطاف من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[١] . ففي هذه الآيات والتي قبلها نرى تكرار لفظ ربنا خمس مرات وهذا (من باب الابتهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة ، من احتمال المشاق في دين الله ، والصبر على صعوبة تكاليفه ...[٢]. وفيه « دلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها »[٣] . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ ... ﴾[٤] .

فالفائدة من تكرار النداء « (ربنا) إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل من هاته الدعوات مقصودة بالذات »[٥] . ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا

(١) آل عمران / ١٩٣ – ١٩٤ .

(٢) الكشاف ١ / ٤٤٧ .

(٣) تفسير البيضاوي ٣ / ٩٢ .

(٤) البقرة / ١٢٧ – ١٢٨ – ١٢٩ .

(٥) التحرير والتنوير ١ / ٧١٩ .

لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[1] فالنداء تكرر هنا « للإيذان بمزيد التضرع واللجأ إلى الله سبحانه »[2] .

٢ - وقد يكون تكرار النداء بـ(ربنا) لإظهار التأكيد من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[3] . ففي تكرار ربنا في الآية السابقة تأكيد وتنبيه « على أن المقصود عرض ضلالاتهم وكفرانهم تقدمةً لقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[4] « فتكريره للتأكيد وللإشارة إلى أنه المقصود وإن ورد في معرض العلة لأن ما قبله بث لسوء حالهم توطئة لما بعده »[5] .

ومن التكرار في غير لفظ النداء (ربنا) ، تكرار الفعل اجعل ومتعلقه في قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[6] فالتكرار هنا « للمبالغة في التضرع والابتهال »[7] . ومن صوره كذلك تكرار

---

(١) البقرة / ٢٨٦ .

(٢) فتح القدير ١ / ٣٠٨ .

(٣) يونس / ٨٨ .

(٤) تفسير البيضاوي ٥ / ٥٦ .

(٥) حاشية الشهاب ٥ / ٥٦ .

(٦) النساء / ٧٥ .

(٧) تفسير أبي السعود ٣ / ٢٠٢ .

الضمير في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[١] . دون أن يعطف الاستعانة على العبادة (إياك نعبد ونستعين) فقد جاء التكرار « للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب »[٢] . وقبل التكرار هنا لاختلاف القصر بين العبادة والاستعانة « فالقصر في (إياك نعبد) قصر حقيقي وفي (إياك نستعين) ادعائي فإن المسلم قد يستعين غير الله تعالى ، كيف وقد قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[٣] ولكنه لا يستعين في عظائم الأمور إلاّ بالله »[٤] .

٤ - الإيغال :

هو « ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها ... وهو لا يختص بالنظم »[٥] . منه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٦] . فإن « العدول عن ذكر القول إلى نطق المتكلم بما قاله المحكي عنه هو ضرب من استحضار الحالة قد مهَّد له الإخبار بالفعل المضارع في قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ ﴾ حتى كأن المتكلم هو صاحب القول وهذا ضرب من الإيغال »[٧] .

---

(١) الفاتحة / ٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ١ / ١٦ .

(٣) المائدة / ٢ .

(٤) التحرير والتنوير ١ / ١٨٦ .

(٥) الإيضاح / شرح محمد عبد المنعم خفاجي ٣ / ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٦) البقرة / ١٢٧ .

(٧) التحرير والتنوير ١ / ٧١٩ .

٥ – التذييل :

هو « تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد »[(١)] .

وهو أسلوب شائع في آيات الدعاء ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٢)] . ففيه تأكيد للجملة قبله وتقريب للإجابة « أي لأنك لا يغلبك أمر عظيم ولا يعزب عن علمك وحكمتك شيء »[(٣)] . ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾[(٤)] وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[(٥)] . وقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[(٦)] . وقوله كذلك : ﴿ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[(٧)] . فالآيات السابقة جميعاً جاء التذييل فيها مؤكداً ومقرراً لمضمون الجملة قبله – وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(٨)] يسأل إبراهيم عليه السلام ربَّه بلوغ أعلى الدرجات ، وهي درجات الرسل والشهداء والصالحين ، وفي التذييل بلفظ الصالحين ليعمهم جميعاً[(٩)] .

---

(١) الإيضاح / شرح محمد عبد المنعم خفاجي ٣ / ٢٠٥ .

(٢) الممتحنة / ٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١ / ٧٢٤ .

(٤) الأعراف / ١٥٥ .

(٥) الأعراف / ١٥١ .

(٦) الأعراف / ٨٩ .

(٧) المائدة / ١١٤ .

(٨) الشعراء / ٨٣ .

(٩) انظر التحرير والتنوير ١٩ / ١٤٥ .

٦ - الاحتراس :

هو « أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه »[١] وقد يأتي في وسط الكلام أو في آخره . ومما جاء منه في الدعاء القرآني في آخر الكلام قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] فقوله : ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ احتراس ، ذلك لأنه طلب قبله أن يحكم الله بينه وبين قومه حكماً شديداً أي يستأصلهم[٣] ، فاحترس أن يصيبهم شيء من غضب الله . ومما جاء في وسط الكلام قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾[٤] . فقوله : (مؤمناً) احتراس منه عليه السلام حتى لا يُفهم أن زوجته وابنه ضمن من يطلب لهم الرحمة لإنهم ممن دخلوا بيته ، فاحترس وبذلك يخرج كل مَنْ ليس مِن صفته الإيمان من هذا الدعاء[٥] .

٧ - الاعتراض :

هو « أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل

---

(١) الإيضاح ٣ / ٢٠٨ (ويسمى الاحتراس تكميلاً) .

(٢) الشعرا / ١١٧ - ١١٨ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ١٩ / ١٦٣ .

(٤) نوح / ٢٨ .

(٥) انظر فتح القدير ٥ / ٣٠٢ .

(الاحتراس) »[١] . ومن أغراض هذا الاعتراض أن يكون للتنزيه والتعظيم نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٢] . فقوله (سبحانك) « اعتراض للتنزيه من العبث وأن يخلق شيئاً بغير حكمة »[٣] .

أو أن يكون للتأكيد نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ .. ﴾[٤] . « فإعادة النداء من خلال جمل الدعاء اعتراض للتأكيد بزيادة التضرع »[٥] .

ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ .. ﴾[٦] فإعادة النداء ربنا اعتراضٌ لتأكيد التضرع رغبة في بعث الرسول فيهم .

هذه صور الإطناب التي وردت في آيات الدعاء ، ويمكننا القول إن الإيجاز في الدعاء لم يكن عاماً وكذلك الإطناب ، إلاَّ أن صور الإيجاز فاقت صور الإطناب قليلاً ، وأتت جميعاً في تآلف بديع ، بل قد يردان في الآية الواحدة معاً دون أن يخل أحدهما بالآخر بل يزيده وضوحاً وبلاغةً فتظهر

---

(١) الإيضاح ٣ / ٢١٤ .

(٢) آل عمران / ١٩١ .

(٣) الكشاف ١ / ٤٤٤ - انظر البحر المحيط ٣ / ٤٧١ - تفسير أبي السعود ٣ / ١٣١ - تفسير البيضاوي ٣ / ٨٩ .

(٤) غافر / ٨ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٤ / ٩٢ .

(٦) البقرة / ١٢٩ .

الآية في نمط فريد من الإعجاز ، وقد قيل وبضدها تتمايز الأشـياء ، فالقـارئ يقرأ الآية ويرى فيها إيجازاً وإطناباً معـاً ، يؤديـان المعنـى في توافـق وانسـجام فيعتقد أن الآية كلها إيجاز أو أنها كلها إطناب ، لشدة تآزرهما معاً لإيضاح المعنى على أكمل وجه وآكده .

المبحث الرابع

فواصل آيات الدعاء

الفواصل جمع فاصلة ، ويراد بها في اللغة عدة معانٍ منها : « الفصل : بون ما بين الشيئين والفصل من الجسد : موضع المفصل وبين كل فصلين وصل ، مثل ذلك : الحاجز بين الشيئين .

والفاصلة : الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام ... ومثله الفَصْل : القضاء بين الحق والباطل »[١] .

أما في الاصطلاح فقد تردد مصطلح الفاصلة في علوم العربية (كالنحو والعروض والترقيم وعلوم القرآن) . وقد حمل في كل علم منها معنى خاصاً يختلف به عن غيره[٢] .

وسنتناول في هذا المبحث الفاصلة في القرآن الكريم .

وفواصل القرآن يراد بها : « أواخر الآي »[٣] ، وقال عنها ابن منظور : « أواخر الآيات في كتاب الله فواصل ؛ بمنزلة قوافي الشعر ، جل كتاب الله عز وجل ، واحدتها فاصلة »[٤] ، « ونعني بها تلك الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن »[٥] .

---

(١) الفاصلة في القرآن / محمد الحسناوي / دار الأصيل / ١٩ .

(٢) راجع الفاصلة في القرآن / ١٩ - ٢١ .

(٣) مفردات الراغب / ٣٨١ .

(٤) لسان العرب مادة " فصل " .

(٥) من بلاغة القرآن / ٧٥ .

ويعد مصطلح الفاصلة ، مصطلحاً موغلاً في القدم حيث عُرف منذ بدايات التأليف في التراث الإسلامي عند الخليل بن أحمد[١] وتلميذه سيبويه ، وأُطلق على مقاطع القرآن ، وعند الفراء[٢] كذلك الذي « حاول أن يربط بين مراعاة الفواصل في القرآن وتناسب القوافي في الشعر ، واستباح تغيير النظم في رؤوس الآي لتحقيق هذا التناسب ، حتى أجاز العدول عن الواحد إلى التثنية في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ على أن المراد جنة واحدة وعدل عنه لمشاكلة رؤوس الآي »[٣] .

(١) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي ، من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض ، وهو أستاذ سيبويه النحوي ولد سنة ١٠٠ هـ وتوفي ١٧٠ هـ في البصرة وعاش فقيراً وصابراً ، من مؤلفاته : العين ، وتفسير حروف اللغة ، والنقط والشكل .

انظر ترجمته في : الأعلام ٢ / ٣١٤ .

(٢) يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي المعروف بالفراء ولد سنة ١٤٤ هـ وتوفي سنة ٢٠٧ هـ إمام الكوفيين في وقته وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب ، من آثاره : معاني القرآن ، والمقصور والممدود .

انظر ترجمته في : الأعلام ٨ / ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية / د. محمد الأمين الخضري / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م / ٦ .

وقد ردَّ عليه ابن قتيبة[(١)][(٢)] كما جاء في الإتقان للسيوطي[(٣)] .

وفي عصر الجاحظ نرى استقرار مصطلح الفاصلة على أنه أواخر الآيات.

وقد أسهم القدماء على اختلاف بيئاتهم الثقافية (من علماء كلام ولغة وتفسير وبلاغة) في دراسة الفاصلة وبسط القول فيها . وهم في دراساتهم تلك إمَّا أن يفردوا لها كتباً خاصة[(٤)] . وإمَّا أن يعقدوا لها فقرات[(٥)] في كتبهم ، تختلف طولاً وقصراً .

---

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفي سنة ٢٧٦ هـ ببغداد أحد أئمة العلم والأدب ، ولي قضاء دينور ، فترة من الزمن فنسب إليها ، من مؤلفاته : تأويل مختلف الحديث ، أدب الكاتب ، الشعر والشعراء ، ومشكل القرآن .
انظر ترجمته في : الأعلام ٤ / ١٣٧ .

(٢) رد عليه ابن قتيبة بقوله : « إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همز ، أو صرفٍ ، فأما أن يكون الله وعد بجنتين فيجعلهما جنة واحدة لأجل رؤوس الآي ، معاذ الله ! وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين ، قال : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ الرحمن : ٤٨، ثم قال : ﴿ فِيهِمَا ﴾ الرحمن : ٥٠ » تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / نقلا عن كتاب الإتقان للسيوطي ٣ / ٢٩٩ .

(٣) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) إمام حافظ مؤرخ أديب شارك في التصنيف في معظم العلوم ، ولد ومات في القاهرة ، له مصنفات كثيرة جداً منها : الإتقان في علوم القرآن ، والأشباه والنظائر ، وتفسير الجلالين .
انظر ترجمته في : الأعلام ٣ / ٣٠١ .

(٤) من تلك الكتب (بغية الواصل إلى معرفة الفواصل للطوفي ، وإحكام الراي في أحكام الآي لابن الصايغ ، ومنظومة في فواصل ميم الجمع للخروبي ، والقول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز للمخللاتي) راجع الفاصلة القرآنية / ٤٩ .

(٥) من هؤلاء العلماء (الرماني " في كتابه النكت في إعجاز القرآن " ، والباقلاني في كتابه " إعجاز القرآن " وهما من علماء الكلام أمَّا من النحاة فالفراء في كتابه " معاني القرآن " وأبو عبيدة في كتابه " مجاز القرآن " ومن المفسرين الزركشي في كتابه " البرهان في علوم القرآن " والسيوطي في كتابه " الاتقان في علوم القرآن " ومن البلاغيين ابن سنان في كتابه " سر الفصاحة " وابن قيم الجوزية في كتابه " الفوائد - المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ") . راجع الفاصلة القرآنية / ٤٧ .

ونرى جهود المحدثين في دراسة الفاصلة تعتمد على جهود القدماء ، حيث تناولوها إمَّا بالجمع والتنسيق أو بالمناقشة والترجيح ، وفي أحايين قليلة تأتي دراساتهم لتفتح أبواباً جديدة في مناحي الفاصلة الجمالية كالتصوير الذي لم يهمله القدماء أيضاً ، وهذا نجده عند سيد قطب[١] . وهنالك دراسة جادة للدكتور محمد الأمين الخضري[٢] ، اعتمد فيها على الاستماع لهمس السياق محاولاً الكشف عمَّا صاحب الفواصل من أسرار البيان .

وحين نتتبع جهود القدماء نرى أنه « لا خلاف بين العلماء في أن لفواصل القرآن إيقاعها الفريد وبلاغتها العليا ، لكن الخلاف في شأن هذه الفواصل هل هي من قبيل ما يعرف بالسجع في فنون البديع أو هي شيء آخر غيره »[٣] .

وفكرة القول بالسجع في القرآن ، لم تلق رواجاً حتى القرن الثالث للهجرة ، وإن كان قد قيل بها قبل ، فإن الحرج كان واضحاً في إطلاقها صراحة « وكأنما كان الحس المؤمن ينبو عن هذه الكلمة ، كثرة ما أطلقت عن قديمٍ على سجع الكهان »[٤] .

---

(١) سيد بن قطب بن إبراهيم : مفكر إسلامي مصري ، من مواليد قرية موشا في أسيوط ولد عام ١٣٢٤ هـ ، حُكم عليه بالإعدام سنة ١٣٨٧ هـ بسبب إنضمامه إلى الإخوان المسلمين وترأسه لنشر قسم الدعوة وتوليه تحرير جريدتهم ، وله كتب عديدة منها : التصوير الفني في القرآن ، في ظلال القرآن ، والإسلام ومشكلات الحضارة .

انظر ترجمته في : الأعلام ٣ / ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) في كتابه " من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية " .

(٣) الإعجاز البياني للقرآن / ٢٥٣ .

(٤) المرجع السابق / ٢٥٤ .

وقضية السجع في القرآن أصبحت قضية دائرة على ألسنة كثير من الفرق الإسلامية وامتد القول فيها ، ودخلت نطاق الجدل . وانقسم العلماء إزاء هذه القضية قسمين : « الأول : يمنع أن يكون في القرآن سجع . ولهم في ذلك حجج وأسباب ذكروها وبنو مذهبهم عليها .

والثاني : يرى جواز مجيء السجع في القرآن ، بل هو وارد فيه فعلاً . ولهم ردود على حجج وأسباب المانعين . وأسباب أخرى مهدوا بها لمذهبهم .. وبنوا فكرتهم عليها »[١] .

ولا نريد الخوض في هذه القضية ، فما يهمنا هو أن القرآن الكريم في سوره وآياته وفواصله جاء معجزاً لا يماثل قول البشر وسندرس فواصله في آيات الدعاء من حيث تناسبها مع الآية الواردة فيها ، ومع بقية الفواصل في السورة الواحدة ، آخذين في عين الاعتبار « أن تناسب الفواصل مقصد من مقاصد النظم وهو من جلى القرآن وروافد تأثيره ، لكننا ننزه القرآن عن أن يقهر المعاني - في سبيل تحقيق هذه الغاية - على ارتداء مالا يناسبها من الألفاظ أو يحدث في بناء العبارة ما يجعل توافد المعاني على الأذهان مخالفاً لترتيبها في الجنان »[٢] .

وقد ذكر ابن الصائغ[٣] في كتابه " إحكام الرّاي في أحكام الآي " أن

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ١ / ٢١٩ .

(٢) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة / ١٠ .

(٣) محمد بن عبد الرحمن بن علي شمس الدين الحنفي الزمردي ، ابن الصائغ : أديب ، من العلماء ، مصري ولي في آخر عمره قضاء العسكر وإفتاء دار العدل ودرّس بالجامع الطولوني ولد سنة ٧٠٨ هـ وتوفي سنة ٧٧٦ هـ . من كتبه : التذكرة في النحو ، والثمر الجني في الأدب .

انظر ترجمته في : الأعلام ٦ / ١٩٢ .

المناسبة بين الفواصل لها أهميتها وهي مطلوبة ، ويمكن من أجل تحقيقها ارتكاب ما يخالف الأصل حيث قال : « اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية ، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول ... وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاةً للمناسبة فعثرت منها على نيّفٍ عن الأربعين حكماً »[١] وقد أوردها السيوطي في الإتقان[٢] . ثم نراه يقول : « لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة ، فإن القرآن العظيم - كما جاء في الأثر - لا تنقضي عجائبه »[٣] . فهو بهذا القول لم يجعل المناسبة هي المحور الأساس الذي تأتي الفواصل مراعية له ، بل فتح المجال أمام الدارسين لمعرفة المزيد عن هذه الفواصل بقوله : « أمور أخرى » . وهذه الأمور هي ما نحاول الكشف عنها في دراستنا لفواصل الدعاء القرآني . والتي سنسير في دراستنا لها وفق التقسيم التالي :

١ - التقديم والتأخير في الفاصلة :

أ - التقديم في صفات الله عز وجل :

يكثر في آيات الدعاء أن تختم بذكر الله سبحانه وتعالى ، والثناء عليه ، وتأكيد صفاته العليا ، وفي هذا تقرب لله عز وجل ، وزيادة في الضراعة والابتهال ، ونجد في هذه الفواصل تقديماً لبعض صفاته على بعض . كتقديم السميع على العليم ، وبتتبع هاتين الصفتين في القرآن عامة نرى أن

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٩٦ .

(٢) المصدر السابق / ٣ / ٢٩٦ - ٣٠١ .

(٣) المصدر السابق ٣ / ٣٠١ .

(السميع) مقدمة دوماً على (العليم) [١] .

أمَّا في الدعاء فقد وردت هاتان الصفتان مرتين ، الأولى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٢] . والثانية على لسان امرأة عمران في قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٣] .

فقد طلب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الله عز وجل قبول دعائهما وإجابته ، لذا قُدمت صفة السمع « لأنها التي يترتب عليها إجابة الدعاء ، ولما كان الدعاء لا يُقبل إلاَّ إذا خرج من قلب صادق وعقيدة سليمة جاء الوصف بالعليم ، ليدل على إخلاصهما وصدق بواطنهما في توجهها إلى الله تعالى حتى يكونا جديرين بتقبل الله لأعمالهما »[٤] .

وكذلك القول في دعاء امرأة عمران وفي هذا الصدد يقول أبو حيان : « إن تأخير صفة العليم لعمومها إذا يشمل علم المسموعات وغير المسموعات »[٥] . ونجد في هذه الفاصلة قصراً ، حيث قصروا صفة السمع والعلم على الله عز وجل قصراً حقيقياً تحقيقياً .

ومن ذلك التقديم أيضاً ما كان بين (العزيز والحكيم) فمتى ما وردتا

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٢) البقرة / ١٢٧ .

(٣) آل عمران / ٣٥ .

(٤) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة / ٤٤ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٦٢٠ .

معاً تقدم صفة العزيز على صفة الحكيم[(١)] .

وفي الدعاء جاءت (العزيز الحكيم) فاصلة ثلاث مراتٍ . الأولى في قوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٢)] . والثانية في قوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٣)] . والثالثة في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٤)] .

وقد جاء هذا التقديم في الآيات السابقة لمناسبة المعنى في كل واحدة منها ، ففي الآية الأولى نرى أن « إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم لا تصدر إلاّ عمن اتصف بالعزة ، وهي الغلبة أو القوة ، أو عدم النظير ، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل ، فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه »[(٥)] .

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٢) البقرة / ١٢٩ .

(٣) غافر / ٨ .

(٤) الممتحنة / ٥ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٦٢٧ .

وكذلك نقول في الآيتين الأخرتين فهو الغالب ذو القوة والعزة بيده إدخال المؤمنين الجنة تحقيقاً لوعده ، وغفران الذنوب لمن طلب منه ذلك ، وهو كذلك الحكيم الذي تقتضي حكمته إرسال الرسل حتى تندفع حجج العباد ، ومقابلة المحسن بالإحسان .

وقيل إن التَّقدم بالسببية وذلك « لأن العزيز هو الغالب ولأنه تعالى لمَّا عزَّ في ذاته بالغلبة حكم على كل شيء ، فلم يخرج عن حكمة ملكه خارج »[١].

ونرى كذلك تقديم (التواب على الرحيم) ليس في الدعاء فحسب بل في القرآن كله عند اجتماعهما . وقد وردت في الدعاء في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢] . وقد « ناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة ، لمجاورة الدعاء الأخير في قوله : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ . وتأخرت صفة الرحمة لعمومها ، لأن من الرحمة التوبة »[٣] فقبول التوبة هو جزء من الرحمة بالعباد . وقيل إن الله « إذا قبل التوبة من العبد قرَّبه بالرحمة »[٤] .

ومن صور التقديم في صفات الله تقديم الرؤوف على الرحيم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥] .

---

(١) الطراز / ٢٣١ .

(٢) البقرة / ١٢٨ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٦٢٥ .

(٤) بصائر ذوي التمييز ٢ / ٣١٠ .

(٥) الحشر / ١٠ .

وقد فسَّر الراغب الرأفة بالرحمة[١] .

وقد علل الإمام محمد عبده[٢] التقديم في (رؤوف رحيم) بقوله : « وعندي أن الرأفة أثر من آثار الرحمة ، تشمل دفع الألم والضر وتشمل الإحسان ، فذكر الرحمة هنا فيه معنى التعليل والسببية ، وهو من قبيل الدليل بعد الدعوى فهو واقع في موقعه كما تحب البلاغة وترضى »[٣] .

ب – التقديم في المتعلقات :

تتقدم بعض المتعلقات على الفعل أو تتقدم على بعضها البعض في البيان القرآني ، بصفة عامة ، ويهمنا في هذا الموضع أن نقف على ما جاء منها في فواصل آيات الدعاء بصفة خاصة ، من ذلك تقديم المفعول كما في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٤] حيث قيل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ولم يقل (نعبدك ، ونستعينك) .

وقيل في تقديمه إمَّا : « لمشاكلة رؤوس الآي »[٥] على اعتبار ما قبله ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[٦] .

---

(١) مفردات الراغب / ٢٠٨ .

(٢) محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني ، مفتي الديار المصرية من كبار رجال الإصلاح والتجديد ، ولد في شنرا من قرى مصر ، توفي بالإسكندرية ودفن بالقاهرة (١٢٦٦ – ١٣٢٣ هـ) ، له عدة مؤلفات منها : رسالة التوحيد ، شرح نهج البلاغة .
انظر ترجمته في : الأعلام ٦ / ٢٥٢ .

(٣) تفسير المنار / محمد رشيد رضا نقلاً عن كتاب (من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة)/ ٤٣ .

(٤) الفاتحة / ٤ .

(٥) الطراز / ٢٣٤ .

(٦) الفاتحة / ٣ .

وإمَّا لأن التقديم هنا جاء للاهتمام أو التخصيص . وعلى القول الثاني « فإن ذوباً من إعجاز النظم يتفلت من الأذواق كما أن الوقوف على بيان الغرض من التقديم عند القول بالاختصاص أو الاهتمام دون البحث عن سر هذا الاهتمام والتخصيص قصور عن استكشاف أسرار النظم »[1] . ويمكن القول إن تقديم المفعول به فيه دلالة على القصر ، أي قصر الاستعانة عليه سبحانه وتعالى دون غيره قصراً حقيقياً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[2] . حيث تقدم الجار والمجرور ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وتأخر المفعول الثاني ﴿ إِمَامًا ﴾ . وفي ذلك عنايةٌ واهتمام بأمر المقدم وتخصيصٌ لهم دون غيرهم، فهم يطلبون من الله أن يكونوا أئمة لهؤلاء المتقين وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[3] وقوله : ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾[4] . وقوله : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾[5] . نرى تقديم الجار والمجرور ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ وتأخير المفعول به (نصيراً - سلطاناً نصيراً - ولياً) . وذلك ليس لمراعاة المناسبة بين الفواصل فقط بل لأن فيه قصراً ، حيث قصروا هذا السلطان أو النصير أو الولي على كونه صادراً من عند الله وحده لا من عند غيره ، وفيه أيضاً نوع من التشويق إلى المؤخر « فإن ما حقه

(١) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة / ٦٠ .

(٢) الفرقان / ٧٤ .

(٣) النساء / ٧٥ .

(٤) الإسراء / ٨٠ .

(٥) مريم / ٥ .

التقديم إذا أُخر تبقى النفس مستشرقة فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن »[١] .

أما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٢]. وقوله : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٣]. فالفاصلة في الآيتين ﴿ إِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي الرجوع بالموت والبعث إليك لا إلى غيرك وفي هذا دلالة على القصر ، وهو قصر حقيقي تحقيقي .

جـ - التقديم بين المتعاطفات :

جاء التقديم بين المتعاطفات في الفاصلة القرآنية في آيات الدعاء في موضعين فقط هما في قوله تعالى : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[٤] . حيث قدّم ﴿ بِنُصْبٍ ﴾ على ﴿ عَذَابٍ ﴾ . وليس هذا لمراعاة التناسب مع ما قبلها ﴿ حُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أو ما بعدها ﴿ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فقط ، بل إنه من باب الترقي حيث قدّم ﴿بِنُصْبٍ ﴾ وهو التعب لكونه أهون ثم أتبعه بالأشد وهو العذاب . فقد روعي فيه التدرج في الشدة بدءاً بالأضعف ثم الأقوى .

---

(١) تفسير أبي السعود ٥ / ٢٥٤ .

(٢) البقرة / ٢٨٥ .

(٣) الممتحنة / ٤ .

(٤) ص / ٤١ .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[1] . حيث تقدم الذل على الخزي ليس لمراعاة الفاصلة فقط، بل لمراعاة الترتيب الزماني ، ذلك أن الذل هو عذابهم في الدنيا والخزي عذابهم في الآخرة بدخول النار[2] ، فقدم الذل على الخزي لتقدم الدنيا على الآخرة .

---

(١) طه / ١٣٤ .

(٢) راجع تفسير أبي السعود ٦ / ٥٢ .

٢ - الحذف في الفاصلة :

يكثر في فواصل الدعاء حذف ياء الإضافة " ياء المتكلم " من ذلك ما جاء في الآيات التالية : في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾[1] وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[2] وقوله : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[3] وقوله أيضاً : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[5] وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾[6] وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾[7] وقوله : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[8] . فالحذف فيما سبق جاء مع مراعاته للتناسب معبراً عن أسرار بلاغية ، وبالرجوع إلى سياق الآيات السابقة ، نجدها (عدا الآية الأولى) جاءت في باب الخوف والرهبة ، خوفاً من التكذيب أو القتل أو حضور الشياطين أو حلول الأجل دون التزود للآخرة بالعمل الصالح .

---

(١) إبراهيم / ٤٥ .

(٢) المؤمنون / ٢٦ - ٣٩ .

(٣) المؤمنون / ٩٨ .

(٤) المؤمنون / ٩٩ .

(٥) الشعراء / ١٢ .

(٦) الشعراء / ١١٧ .

(٧) القصص / ٣٣ .

(٨) القصص / ٣٤ .

وحالة الخوف تلك تجعل اللسان ينطق بالكلمة سريعة مقتطعاً جزءاً منها غالباً ما يكون من الحروف الأخيرة في الكلمة .

أما في دعاء إبراهيم عليه السلام وقع مناسبته لما قبله (السماء - الدعاء) أفاد العموم أي عامة دعائي ، هذا الذي دعوت به وغيره . ولذلك نكَّر (دعاء) بحذف الضمير لأنه لو أبقاه لكان معرفة ودَلَّ على دعائه الذي قاله في تلك اللحظة فقط .

ومن الحذف في الفاصلة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] . فقد حذف المخصوص بالذم وتقديره هي[2] . وهذا الحذف جاء لدلالة ما قبله ﴿ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ عليه .

---

(١) البقرة / ١٢٦ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ١ / ٧١٧ .

٣ - بناء الفاصلة على كلمة قبلها :

عند تأمل فواصل الدعاء نجدها تختم في بعض الأحيان بكلمة تناسب ما قبلها ، حتى إن الفاصلة لشدة تمكنها في مكانها قد توحي بها الآيات قبل النطق بها .

وهذا التوافق يكون غالباً توافقاً لفظياً ، ومع ذلك فإن ورود الفاصلة على تلك الحالة لا يخلو من أسرار بلاغية نستشفها من السياق . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[1] . وقوله : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[2] .

وفي فاصلة هاتين الآيتين ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ مناسبة لما قبلهما ﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3] و ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾[4] . وكلمة ﴿ ٱلْوَهَّابُ ﴾ ناسبت كلمة ﴿ هَبْ ﴾ التي سبقتها ومهدت السبيل لأن تجيء فاصلة الآية الكريمة ﴿ ٱلْوَهَّابُ ﴾ وقد أطلق البلاغيون على هذا الفن الإرصاد والتسهيم ، أو رد العجز على الصدر[5] .

وفي الآيتين السابقتين نرى الداعين قد بالغوا في طلب الرحمة التي تمنعهم من الزيغ والإنحراف بعد الهداية ، وفي طلب الملك الذي من صفته أنه لا

(١) آل عمران / ٨ .

(٢) ص / ٣٥ .

(٣) آل عمران / ٧ .

(٤) ص / ٣٤ .

(٥) راجع الإيضاح ٦ / ١٠٢ .

يكون لأحدٍ غيره ، فناسب تلك المبالغة الإتيان بالفاصلة (وهّاب) على صيغة المبالغة . وفيها دلالة على « أنه تعالى يهب الكثير والعظيم »[١] .

وفيها قصرٌ ، أي « أنت القوي الموهبة لا غيرك ، لأن الله يهب مالا يملك غيره أن يهبه »[٢] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٣] وقوله : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٤] . وقوله كذلك : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٥] .

فالآيات السابقة جاء فيها طلب المغفرة مقدماً على طلب الرحمة ، وجاءت الفاصلة فيها مناسبة لكلمة الرحمة دون المغفرة . لأنَّ الداعين وإن طلبوا المغفرة رغم أنهم لم يفعلوا ما يستدعيها من عمل الذنب أو المعصية ، وهذا على عادة الصالحين نراهم يختمون بالرحمة لأنها أهم لديهم وهم لها أحوج خلافاً للمغفرة . التي نراها تختم بها الآية حينما يحدث ما يستوجب طلب المغفرة فتكون الفاصلة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ بدلاً من ﴿ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وذلك كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٦٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٦٣ .

(٣) الأعراف / ١٥١ .

(٤) المؤمنون / ١٠٩ .

(٥) المؤمنون / ١١٨ .

﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾[١] . فقد جاءت الفاصلة خلافاً لما سبق وذلك لأن « إقدامه عليه الصلاة والسلام على أن يقول إن هي إلاّ فتنتك الخ ، جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها ... وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام »[٢] فقد اُرتكب في هذه الآية ذنبٌ يستدعي طلب الغفران .

ويمكن لك أن تقيس على ذلك الآيات : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[٣] و ﴿ ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[٤] . وكذلك : ﴿ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[٥] .

فالآيات السابقة كانت الدلالة فيها على الفاصلة دلالة لفظية ، ولكن قد تأتي آيات تكون الدلالة فيها دلالة معنوية من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٦] . فقد جاءت الفاصلة ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ مع أنه لم يسبقها ذكرٌ للفظ الرحمة . ولكن عند تأمل السياق نجد أن طلب الرحمة جاء ضمناً في قوله :

---

(١) الأعراف / ١٥٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٢٧٧ .

(٣) المؤمنون / ٢٩ .

(٤) الأعراف / ٨٩ .

(٥) المائدة / ١١٤ .

(٦) الأنبياء / ٨٣ .

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ ذلك أن الضر « سوء الحال إمّا في نفسه لقلة العلم والفضل والعفة ، وإمّا في بدنه لعدم جارحةٍ ونقص ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلة مالٍ وجاهٍ وقوله ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ محتمل لثلاثتها »[١] .

وقيل الضر هو « المرض والوجع والعلة »[٢] . وفي مقابل هذا يُفهم أنه يطلب من ربه الرحمة ولذلك ختم بقوله : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فهو مفهوم من السياق وفيه أدب في الدعاء لأنه لم يطلب الرحمة صراحة من الله عز وجل بل عرَّض في دعائه .

ومثله قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[٣] فقوله : ﴿ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ « أي وحيداً بلا ولد يرثني ... ولو كان المراد بلا ولد يصاحبني ويعاونني لقيل وأنت خير المعينين »[٤] . ولما أراد بلا ولد يرثني جاءت الفاصلة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ مناسبة لذلك .

---

(١) مفردات الراغب / ٢٩٣ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣ / ٤٦٩ .

(٣) الأنبياء / ٨٩ .

(٤) روح المعاني ١٧ / ٨٧ .

٤ - من أسرار الصفات في الفاصلة :

جاءت الصفات في فواصل الدعاء القرآني وصفاً لكلمة (القوم) ، والإتيان بهذه الصفات فيه من الأسرار البلاغية الشيء الكثير ، حيث اقتضى السياق أن يكون الوصف كما ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[١] فقد جاءت الفاصلة ﴿ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ وصفاً للقوم ، وهي بذلك مناسبة لمعنى الآية ، حيث دارت الآية حول طلب النصر على أعداء الله عز وجل الذين يحاولون أن يغطوا الحقائق ويصرفوا الناس عن الإيمان بالله. ولأن الكفر بالله أمرٌ يوجب المجابهة مع هؤلاء المتصفين به حتى لا يتفاقم شرهم .

وكذلك في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[٢] .

فقد وصف قومه بالفاسقين ، وبالرجوع لمعنى فسق نجده يعني « خرج عن الحق وترك امتثال أمر الله »[٣] . وهذا ما حدث من قومه فعلاً ، فقد قالوا كما جاء في الآيات قبلها : ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[٤] وبقولهم هذا خرجوا عن الحق وتركوا امتثال أوامر الله فناسب وصفهم بالفاسقين .

---

(١) البقرة / ٢٥٠ ، ٢٨٦ ، آل عمران / ١٤٧ .

(٢) المائدة / ٢٥ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ٤ / ١٩٢ .

(٤) المائدة / ٢٤ .

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[1] حكاية عن لوط عليه السلام ، الذي نعت قومه بالمفسدين وطلب من ربه أن ينصره عليهم .

والفساد : « خروج الشيء عن الاعتدال »[2] ، وهذا ما كان من قومه حيث خرجوا عن حد الاعتدال في الفطرة السوية السليمة وذلك بتركهم إتيان النساء ، والإنصراف إلى الذكور . وفي عملهم هذا فساد وخروج عن طبيعة البشر . فناسب وصفهم بالمفسدين .

ومن ذلك أيضاً وصف الأقوام بالظلم ، وقد جاء هذا في قوله تعالى : ﴿ لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3] على لسان أهل الجنة عند رؤيتهم لأهل النار الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ، والظلم « وضع الشيء في غير موضعه المختص به »[4] وهذا ما فعله أصحاب النار حيث صرفوا الإيمان والعبودية لغير الله عز وجل . وجاء أيضاً على لسان موسى عليه السلام : ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5] . فإن قوم فرعون من الأقباط ظلموا بني إسرائيل وطغوا عليهم . وكذلك جاء على لسان امرأة فرعون في قوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[6] وتقصد بذلك قوم

---

(١) العنكبوت / ٣٠ .

(٢) مفردات الراغب / ٣٧٩ .

(٣) الأعراف / ٤٧ .

(٤) بصائر ذوي التمييز ٣ / ٥٤١ .

(٥) التحريم / ١١ .

(٦) التحريم / ١١ .

فرعون الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ، وظلموها بتعذيب أهل الإيمان والاستمرار في الغي والظلال . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] تعليماً منه لرسول الله ﷺ طلب النجاة وأن لا يكون في الزمرة الظالمة الخارجة عن الحق .

من خلال ما تقدم يمكننا القول : « إن الجمال الذي نراه في فواصل الآيات نابع من التوازن بين المقاطع وتوافقها في الروي ، حتى ليخيل لك أن القرآن عمد إليه وتوخاه ، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ وفقاً لثوابت المعاني وحركتها في الأذهان ، فمن أي جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز الذي يتجلى في هذه المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون ، ليتحقق بها التناسب بين الفواصل ، في نفس الوقت الذي يتحقق فيه التناسب بين المعاني »[2] .

(١) المؤمنون / ٩٤ .

(٢) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية (بتصرف) / ٨٠ .

الفصل الثالث

صور البيان والبديع في آيات الدعاء

الفصل الثالث

صور البيان والبديع في آيات الدعاء

يلحظ المتتبع لآيات الدعاء قِلّة ورود الصور البيانية والمحسنات البديعية فيه . وربما يعود هذا - والله أعلم - إلى أنَّ الدعاء يخرج عن الداعي في بساطة في لغة سهلة واضحة ، قريبة يفهمها العامة والخاصة .

أو لأنَّ ذكر الدعاء في القرآن يظهر فيه الجانب التعليمي ، في تعليم الأمة كيفية صرف هذه العبادة على أكمل وجه وأتم صورة . والتعليم لابد أن يأتي في أسلوب سهل واضح حتى يفهمه المتعلم .

أو لعل هذا راجع إلى أنَّ الدعاء غالباً ما يصدر عن نفسيات أضنتها الحاجة وأرهقتها الشِّدَّة ، أو غمرتها النعمة وشملتها الرحمة . وفي كلا الحالتين نرى الداعي ينصرف ذهنه كلياً لذات الدعاء .

أمَّا ما ورد فيه من صور بيانية ومحسنات بديعية فهو في مجمله بسيط واضح يدنو من الأذهان لا يلتوي على السامع أو القارئ في إدراك دلالاته ومراميه البلاغية .

وسنعرض في الصفحات القادمة نماذج متنوعة لصور البيان والبديع في آيات الدعاء ، وستكون على النحو الآتي :

أولاً : صور البيان .

أ – التشبيه :

« الشِّبْهُ والشَّبه والشَّبيه : المِثْلُ والجمع أشباه . وأشبه الشيء الشيء : ماثله »[١] .

وفي الاصطلاح يراد به : « مشاركة أمر لأمر في معنى »[٢][٣] .

وقد عدَّه الشيخ عبد القاهر من محاسن الكلام وذلك أثناء حديثه عن التشبيه والتمثيل والاستعارة حيث قال : « إن هذه أصول كبيرة ، كأنَّ جُلَّ محاسن الكلام – إن لم نقل كلها – متفرعة عنها . وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ، وأقطارٌ تحيط بها من جهاتها ... »[٤]. والتشبيه يعمل على (تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه فيستفاد من ذلك البلاغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه من مدح أو ذم أو ترغيب أو ترهيب أو كبر أو صغر أو غير ذلك من الوجوه التي يقصد بها التشبيه وتراد للإيجاز أيضاً والاختصار في اللفظ من تعديد الأوصاف الشبهية . وتراد للبيان والإيضاح أيضاً[٥] .

---

(١) اللسان / مادة شبه ٧ / ٢٣ .

(٢) التلخيص في علوم البلاغة / للقزويني / شرح عبد الرحمن البرتوفي / دار الكتاب العربي لبنان / ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ / ٢٣٨ .

(٣) راجع العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق : دار الجيل بيروت ، ط٥ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ١ / ٢٨٦ ، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان / ١٨٠ .

(٤) أسرار البلاغة / ٢٧ .

(٥) الطراز للعلوي / ١٣١ .

ونرى القرآن الكريم « يسير بأسلوب التشبيه إلى غاية بعيدة ، من الصدق والقوة ، وروعة التأثير ، وجودة التصوير ، وتقرير الشبه بين الأشياء وإبراز المعاني البعيدة في صورة حسية مألوفة ، ويبلغ في ذلك غاية الإيجاز ، ومنتهى الإعجاز »[١] .

والتشبيه في آيات الدعاء لم يرد كثيراً بل وردت فيه صور منها قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[٢] . ففي قوله (إماما) تشبيه أي اجعلنا للمتقين كالأئمة . حيث أطلق الإمام على القدوة تشبيهاً بالمثال أو القالب ، وغلب ذلك فصار الإمام بمعنى القدوة وجرى الكلام على التشبيه البليغ[٣] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾[٤] . فقد شبه الداعون الإصر[٥] الذي يخافونه بالإصر الذي حُمل على مَن قبلهم وهو أعم من الإصر السابق لتخصيصه بالتشبيه وعموم هذا[٦]. وفيه كذلك نوع من الاختصار حيث لم يذكر لنا ماهيات هذا الإصر ، وعلى من وقع ؟ أو ما هي أسبابه ؟ بل اكتفى بذكر مشابهه اختصاراً .

---

(١) ملحق على الجزء الرابع من كتاب الإيضاح للخطيب القزويني بقلم د/ محمد عبد المنعم خفاجي ٤ / ١٣٦ من كتاب الإيضاح .

(٢) الفرقان / ٧٤ .

(٣) راجع التحرير والتنوير ١٩ / ٨٣ .

(٤) البقرة / ٢٨٦ .

(٥) الإصر يراد به : العبء الثقيل أو التكليف الشاق .

(٦) راجع البحر المحيط ٢ / ٧٦٥ - ٧٦٦ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[١] .

فقد قيل : « الكاف للتعليل أي (رب ارحمهما) لتربيتهما لي وجزاءً على إحسانهما إليَّ حالة الصغر والافتقار »[٢] .

وهنالك من قال : « إنها من التشبيه الذي يعبر عنه النحاة بمعنى التعليل أي ارحمهما رحمة تكافئ ما ربياني صغيراً »[٣] . فقد دلَّ التشبيه في الآيتين السابقتين على الاختصار .

ففي الآية الأولى لم يذكر الداعون هذا الاصر الذي يخافونه ، ما هو ؟ وما هي أسبابه ؟ وإنما جعلوه شبيهاً بالإصر الذي سبق أن وقع على من كان قبلهم من الأمم . وفي تنكيره تعظيم وتهويل لأمره . لذا هم حريصون على عدم الوقوع فيه ، ليس هرباً من أمر الله وتكليفه ولكن خوفٌ من عدم تنفيذه كما يجب .

وفي الآية الثانية دعا الداعون بالرحمة للوالدين لقاء تربيتهما ، وفي ذلك دليل على أنَّ التربية في الصغر رحمة عظيمة بالمولود ، ومع اختصاره دلَّ كذلك على الشمول والتنوع ، فالرحمة عامة شاملة لها هيئات مختلفة وصفات متعددة وأحوالٌ متنوعة فأرادوا اختصارها بذكر ما يماثلها ، وهو رحمة الوالدين لولدهما حال الصغر .

---

(١) الإسراء / ٢٤ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ٣٩ .

(٣) راجع التحرير والتنوير ١٥ / ٧٣ .

ومثله قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[١] فقد شبه من لا ولد له بالمنفرد الذي لا قرين له[٢] . لجامع الوحدة ، وفي هذه الآية نرى حرص زكريا عليه السلام على أن تكون له ذرية طيبة ترثـه ، كمـا جاء في دعائه في سورة مريم بقولـه : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[٣] . أي يرثه « العلـم والديـن والنبوة ... وقيل يرثني الحبورة وكان عليه السلام حبراً »[٤] . ولكي يكون له ذكرٌ بعد مماته على عادة البشر حيث جبلوا علـى حـب الأولاد قـال تعـالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾[٥] . فالتشبيه كان قليـلاً جـداً ورد في أربـع آيـات فقط ذكرت الأداة (الكاف) في آيتين فقط .

أمَّا التشبيه التمثيلي وهو ما انتزع فيه وجه الشبه « من عدة أمـور يُجمـع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشـيئين يمـزج أحدهمـا بـالآخر ، حتى تحدث صورة غير مـا كـان لهمـا في حـال الإفراد »[٦] . وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى أنَّ المعنى بالتمثيل يَفْخُم وينبُـلُ ويشرف ويكمل . وله تأثيرٌ عظيم في النفس ذلك « أنَّ أُنْس النفوس موقوف

---

(١) الأنبياء / ٨٩ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ١٧ / ١٣٥ .

(٣) مريم / ٥ - ٦ .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ / ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٥) آل عمران / ١٤ .

(٦) أسرار البلاغة / ١٠١ .

على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنّى ، وأن تردَّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمَّا يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة ، يفضُل المستفادَ من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام »[١] .

وقد جاء التشبيه التمثيلي في آيات الدعاء في قوله تعالى : ﴿ هَـٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[٢] حيث جاء الكلام « تمثيلاً لهيئة المعين والمعان بهيئة مشدود الظهر بحزام ونحوه »[٣] . ومثله قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[٤] . فقد شبه عليه السلام حالته وهو يائس من إجابتهم لدعوته بحال الذي قاتل أو صارع فغلبه مقاتله. لجامع العجز في كلٍّ. وبهذا التعبير الموجز في الآيتين استطاع الداعون إظهار حاجتهم وتصويرها في صورة قريبة ملموسة حتى لكأنها ماثلة للعيان وقد جاء الدعاء في مقام الشدة والحاجة ، حاجة موسى عليه السلام لمن يعينه ، وحاجة نوح عليه السلام لمن ينصره ، فعبَّرا عن حاجتيهما عن طريق التمثيل لأنه كما قيل : « يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بُعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق . وهو يريك للمعاني

---

(١) المصدر السابق / ١٢١ .

(٢) طه / ٣٠ - ٣١ - ٣٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٦ / ٢١٣ .

(٤) القمر / ١٠ .

الممثَّلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ... »[١] .

ب - المجاز :

المجاز : مصدر (جزتُ مجازاً) من جزت الطريق ، وجاز الموضع : أي سار فيه وسلكه[٢] وهو : كل كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها ، لملاحظة بين الثاني والأول ... وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وضعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له ، من غير أن تستأنف فيها وضعاً ، لملاحظة بين ما تجوز بها إليه ، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها »[٣] . وقد عرَّفه السكاكي بقوله : « هو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها في ذلك النوع »[٤] . وللمجاز مكانة عظيمة عند العرب وكثيراً ما تستعمله ، بل « وتعده من مفاخر كلامها ؛ فإنه دليل الفصاحة ، ورأس البلاغة ، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات ... والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع ... »[٥] في حين أن عبد القاهر جعل كل شيءٍ في البلاغة يرجع إلى العقل وطبع الإنسان مشتركاً بين اللغات جميعاً وجعل الخاص بالعربية هو ما سماه (الاستعارة غير المفيدة) .

وقد قسَّم البلاغيون المجاز إلى قسمين :

---

(١) أسرار البلاغة / ١٣٢ .

(٢) راجع اللسان / مادة جوز ٢ / ٤١٦ - راجع الإيضاح ٥ / ١٦ .

(٣) أسرار البلاغة / ٣٥٢ .

(٤) التلخيص للخطيب القزويني / ٢٩٤ .

(٥) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

القسم الأول : المجاز اللغوي : وهو « أنَّ المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداءً في اللغة ، وأوقعها على غير ذلك ، إمَّا تشبيهاً ، وإمَّا لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه »[١] .

والقسم الثاني : المجاز العقلي (الحكمي) وهو : « إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأويل »[٢] . وهنالك فرقٌ بين المجازين اللغوي والعقلي وهذا الفرق « يكمن في أمرين : أ - طريق التجوز في المجاز اللغوي هو اللغة ، أمَّا المجاز العقلي فطريقه العقل والفكر . ب - المجاز اللغوي في اللفظ أمَّا المجاز العقلي ففي الإسناد »[٣] .

وقد قسم البلاغيون المجاز اللغوي بحسب العلاقة الجامعة بين المعنيين (المعنى الأصلي والمعنى المنقولة إليه الكلمة) إلى قسمين :

القسم الأول : **المجاز المرسل** هو : « ما كانت العلاقة الجامعة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه »[٤]. وسمي مرسلاً (أي مطلقاً) لأن الإرسال لغة الإطلاق ، فهو غير مقيد بعلاقة مخصوصة بل ردد بين علاقات بخلاف الاستعارة حيث قيدت بعلاقة واحدة هي علاقة المشابهة[٥] .

---

(١) أسرار البلاغة / ٤٠٨ .

(٢) الإيضاح ١ / ٨٢ .

(٣) من أسرار التركيب البلاغي / السيد عبد الفتاح حجاب / الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م / المكتبة التوفيقية ص ٣٣ .

(٤) الإيضاح ٥ / ٢٠ .

(٥) شرح عبد المنعم خفاجي بهامش الإيضاح ٥ / ١٧ .

ومما جاء منه في الدعاء القرآني قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ... ﴾[١] فالسماع مجاز عن القبول[٢] حيث عبر بالسبب الذي هو السماع عن المسبب الذي هو القبول فهو مجاز مرسل ، ذلك أنَّ القرآن فيه كثير من الآيات الداعية إلى عبادة الله وحده والإيمان به دون سواه ، فهو وسيلة الدعوة إلى الله عز وجل ، ومثله قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[٣] فقد دعا الداعون بالثبات على الإيمان بعد هداية الله لهم قائلين : لا تزغ ، أي لا تمل قلوبنا وتصرفها عن الحق . فعبروا بالجزء (القلوب) مع إرادة الجسد ككل ذلك لما للقلب من مكانة فبصلاحه يصلح الجسد وبفساده يفسد[٤] . فهو مفتاح الهداية وأساسها لذا طلبوا له الثبات على طريق الحق وعدم الميل أو الانحراف عنه .

ومنه قوله تعالى في دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[٥] . فقد طلب عليه السلام من ربه أن يجعل مكة بلداً عامرةً بالسكان عن طريق إتيان الناس لها وتهافتهم لزيارتها من كل فج عميق وذكر الجزء (الأفئدة) ومعلوم أن الأفئدة لا تأتي وحدها مفصولة عن أجسادها بل يأتي الإنسان بكليته . وفي تخصيص الأفئدة يظهر لنا جمال وروعة لغة القرآن ونظمه المعجز ذلك أنَّ القلب له مزية على غيره من أعضاء الجسم فهو موطن المشاعر (من حب وكراهية ونحوهما) وفي طلب إبراهيم (يتوافد الناس إلى مكة) نرى جانب المحبة يطغى فلا يعقل أن تسرع القلوب إلى مكان دون أن تحبه ودون أن يكون مقبولاً لديها ، ونلحظ أنه في الآية الأولى جاء التعبير بلفظ (قلوبنا) وفي الآية الثانية بلفظ (أفئدة) وفي ذلك ملمح بلاغي رائع يظهر لنا من معنى كُلٍّ منهما ، ومن السياق ذاته .

---

(١) آل عمران / ١٩٤ .
(٢) راجع البحر المحيط ٣ / ٤٧٣ .
(٣) آل عمران / ٨ .
(٤) راجع نظم الدرر ٢ / ٢٦ .
(٥) إبراهيم / ٣٧ .

فالقلب سمي بذلك (لكثرة تقلبه)[١] لذلك ناسب التعبير به للفظ (لا تزغ)[٢] الذي معناه « الميل عن الاستقامة »[٣] . أمَّا الآية الثانية فلفظ الأفئدة جاء دالاً على شدة تأجج الشوق في الفؤاد والرغبة الملحة لزيارة البلد الحرام وهذا مستفاد من معنى (الفؤاد) الذي هو (القلب) لكن « إذا اعتبر فيه معنى التَّفؤُّد أي التَّوقُّد »[٤] . والقلوب متوقدة متشوقة لزيارة مكة لذا ناسب ذكر الأفئدة هنا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٥] . نرى الداعين في هذه الآية الكريمة يتضرعون إلى الله ويرجونه تثبيت أقدامهم في أرض المعركة ، مخصصين هذا الثبات بالأقدام وحدها دون سائر الجسد ؛ مع أنَّ الجسد كله هو الذي يثبت لا الأقدام وحدها . ولكن بالنظر إلى السياق نرى وجه ما ذُكر فالسياق سياق شدة وضيق في معركة غير متكافئة، فكثرة العدو ، وقلتهم لهو مدعاة للهرب - عند ذوي النفوس الضعيفة - فعبروا بثبات الأقدام (أي بالجزء) مع إرادة الكل وذلك لأن الأقدام هي وسيلة الحركة والهرب ومن خلالها يكون التوجه في أرض المعركة إمَّا للأمام طلباً للنصر أو الشهادة وإمَّا للخلف تراجعاً وهروباً . ونرى تداخل علاقتي الجزئية والآلية في هذه الآية الكريمة .

---

(١) مفردات الراغب / قلب / ٤١١ .

(٢) ما ذكر الفعل (تزغ) إلاّ ذكر معه لفظ القلوب دون الأفئدة . راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٣) مفردات الراغب / زيغ / ٢١٧ .

(٤) مفردات الراغب / فأد / ٣٨٦ .

(٥) البقرة / ٢٥٠ .

ومما جاء منه كذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[١] . فقد دعا إبراهيم عليه السلام طالباً من ربه اللسان الصادق ويريد به الثناء والذكر الحسن[٢] . وعبَّر باللسان لأنه الوسيلة لهذا الذكر « القول » وآلته . فالعلاقة هي الآلية .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ﴾[٣] . وهذه الآية تُعدُّ من شواهد البلاغيين المعروفة في المجاز المرسل لعلاقة الحالية . فمعلوم أنَّ الرحمة لا يُحلُّ فيها إنَّما يُحلُّ في مكانها (الجنة) فاطلقت الحال هنا (الرحمة) وأريد بها محلها (الجنة) فالعلاقة هنا (الحاليَّة) فقولهم هذا يظهر رغبتهم الملحَّة في الحلول في هذه الرحمة لتحيط بهم من كل جانب كإحاطة الظرف بمظروفه .

القسم الثاني من أقسام المجاز اللغوي : الاستعارة .

الاستعارة في اللغة : « مأخوذة من العارية أي نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه . والعارية والعارة : ما تداولوه بينهم وقد أعاره الشيء وأعاره منه وعاوره إيَّاه . والمعاورة والتعاور شبه المداولة والتداول يكون بين اثنين . وتعوَّر واستعار ، طلب العارية ، واستعاره الشيء واستعاره منه طلب منه أن يعيره إيَّاه »[٤] . أمَّا في

(١) الشعراء / ٨٤ .

(٢) راجع نظم الدرر ٥ / ٣٧٠ .

(٣) الأعراف / ١٥١ .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١ / ١٣٦ .

اصطلاح البلاغيين فإنها تدل على أن (للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختصَّ به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية »[١] . وهي ضرب من المجاز اللغوي « علاقته تشبيه معناه بما وضع له »[٢] . فالفرق بين المجاز المرسل والاستعارة يكمن في نوع العلاقة . فإن كانت المشابهة فهي الاستعارة وإن كانت غير ذلك فهو المجاز المرسل .

وللاستعارة فوائد عدة وخصائص جمَّة وقد أفاض الشيخ عبد القاهر في إظهار هذه الخصائص ومن ذلك قوله : « هي أمدُّ ميداناً ، وأشدُّ افتناناً . وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، ...... من أن تجمع شعبها وشُعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها ... وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا ، وفضائل لها من الشرف الرتبة العليا .... ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً ... ومن خصائصها التي تذكر بها ، وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدّةً من الدرر ، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر »[٣] . ونراه يطنب في إبراز محاسنها وإظهار فوائدها وكيف أنها تحرك الأشياء وتبعث فيها الحياة بقوله : « فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخُرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جليَّة ... إنْ شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل ، كأنها قد جُسِّمت حتى

---

(١) أسرار البلاغة / ٣٠ .

(٢) الإيضاح ٥ / ٣٧ .

(٣) أسرار البلاغة / ٤٢ - ٤٣ .

رأتها العيون ، وإن شئت لطّفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلاّ الظنون »[١] .

وقد قسمها البلاغيون باعتبار أحد الطرفين إلى قسمين :

١ - استعارة تصريحية .

٢ - استعارة مكنية .

أمّا الاستعارة التصريحية فهي « ما صُرِّح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه »[٢] .

فقد جاءت في الدعاء القرآني في عدة مواضع منها :

قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٣] فقد استعير لفظ (الصراط) للدلالة على (ملة الحق ودين الله) حيث طلب الداعون الهداية لهذا الدين . والعرب تستعير الصراط « فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوج باعوجاجه »[٤] . فهم شبهوا ملة الحق بالصراط لأن كليهما يوصل سالكيه إلى الغاية المطلوبة وإلى بر النجاة وأدخل المشبه في جنس المشبه به حتى أضحى فرداً من أفراده على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . وفي التعبير بقولهم : (المستقيم) احتراس وتكميل لأن الصراط قد يكون ملتوياً فيستغرق السير فيه زمناً طويلاً

---

(١) المصدر السابق / ٤٣ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١ / ١٥٥ .

(٣) الفاتحة / ٦ .

(٤) تفسير الطبري ١ / ٧٤ .

ويلقى فيه السائر زيادة عناء ، ولدفع هذا التوهم جيئ بهذا الوصف (المستقيم) لتأكيد أن صراط الله مستقيم لا اعوجاج فيه[١] فأبرز المعقول في صورة المحسوس لزيادة الاعتناء بشأن هذا الطريق الذي يرجون الاهتداء إليه حتى لكأنه يُلمس ويُرى .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[٢] . فالضلال « مستعار لعدم الاهتداء لطرائق المكر الذي خشي نوح غائلته في قوله : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾[٣] . أي حُلْ بيننا وبين مكرهم ولا تزدهم إمهالاً في طغيانهم علينا إلاَّ أن تضللهم عن وسائله »[٤] . فجاء التعبير على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية[٥] . مظهراً مدى غضبه عليه السلام من إعراض قومه وصدهم عن دعوة الحق فطلب الزيادة لهم في الضلال والبعد عن إيذائهم عن طريق صرفهم وتضليلهم عن طرق الأذى كلها .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا ﴾[٦] حيث استعير (الإصر) للعهد والميثاق المؤكد الذي يصعب الوفاء به . والإصر في الأصل هو : ما يؤصر به أي يربط وتعقد به الأشياء ، ولكنه استعمل في

---

(١) راجع الترغيب والترهيب في القرآن الحكيم / يوسف بن عبد الله الأنصاري (رسالة دكتوراه) إشراف د/ عبد العظيم المطعني ١٤١٣ هـ ، ص ١٥٦ ، ١٧٠ .

(٢) نوح / ٢٤ .

(٣) نوح / ٢٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢١١ .

(٥) ويحتمل أن يكون في قوله : ﴿ ضَلَٰلًا ﴾ مجازاً مرسلاً حيث أطلق الضلال وأراد به العذاب المسبب عنه (أي مجاز علاقته السببية) .

(٦) البقرة / ٢٨٦ .

العهد والميثاق المؤكد ، وأطلق أيضاً على ما يثقل عمله والامتثال فيه[١] . فجاء التعبير على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . حيث أظهرت الآية حرص الداعين على تنفيذ أوامر الله على الوجه الأكمل دونما تكاسل أو تهاون . لذا دعوا الله أن لا يكلفهم أساساً بما يعجزون عن تنفيذه وما يشق عليهم الوفاء به حتى لا يقعوا في الإثم .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا ﴾[٢] فقد استعير لفظ العيد للسرور وأدخل المشبه في المشبه به حتى صار من جنسه فأصبحوا يعبرون عن السرور والفرح بالعيد « لأن العادة جرت في الأعياد بتوفير السرور عند الصغير والكبير ، فتضمن من معنى السرور ما لا تتضمّنه الحقيقة »[٣] فهو استعارة تصريحية أصلية .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾[٤] . نجد الداعين يستعيرون الكتابة للعطاء المحقق حصوله المجدد مرة بعد مرة ثم اشتق من الكتابة اكتب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. ومن قولهم هذا تظهر لنا رغبتهم الصادقة فيما عند الله « وأن يأتيهم الله الحسنة تلو الحسنة في أزمان حياتهم وفي يوم القيامة »[٥] .

---

(١) راجع التحرير والتنوير ٣ / ١٤٠ .

(٢) المائدة / ١١٤ .

(٣) الصناعتين للعسكري / ٢٧٤ .

(٤) الأعراف / ١٥٦ .

(٥) التحرير والتنوير ٩ / ١٢٨ (بتصرف) .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ[1] إِلَيْهِمْ ﴾[2] . فقد استعير الهوي للإسراع ثم اشتق من الهويُّ تهوي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وبهذا التعبير استطاع إبراهيم عليه السلام أن يعبر عن شوق الناس وتلهفهم إلى مكة والإسراع نحوها بالشيء الذي يهوي مسرعاً واختيار الفعل (تهوي) بالمضارع ليدل على تجدد هذا الميل والإسراع إليها مرة بعد مرة ، وهذا مناسب للحج الذي يأتي كل عام . فلا ينقطع الناس عن زيارتها أبداً يدفعهم الحب والشوق لهذا المكان .

فالاستعارة في الآيات السابقة استطاعت أن تؤدي المعنى أداءً واضحاً لا يخلو من الإيجاز .

أمَّا الاستعارة المكنية[3] وهي : « التي اختفى فيها لفظ المشبه به واكتفي بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه »[4] . فقد جاء منها في الدعاء القرآني قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾[5] . حيث شبهوا « الصبر بماء تشبيه المعقول بالمحسوس وحذفوا المشبه به وذكروا لازماً من لوازمه وهو الإفراغ على سبيل الاستعارة المكنية ثم شبهوا خلقه في نفوسهم بإفراغ الماء من الإناء على طريقة التخيلية[6] – فإن الإفراغ صب جميع ما في

---

(١) (تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً) ، الكشاف ٢ / ٥٣٧ .
(٢) إبراهيم / ٣٧ .
(٣) وتُسمى كذلك الاستعارة بالكناية .
(٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها / ١٤٥ .
(٥) البقرة / ٢٥٠ ، وفي الأعراف / ١٢٦ ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .
(٦) وهي أن يستعار لفظ دال على حقيقة خيالية تقدر في الوهم ثم تردف بذكر المستعار له إيضاحاً لها وتعريفاً لحالها . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١ / ١٥١ .

الإناء ، والمقصود من ذلك الكناية عن قوة الصبر لأن إفراغ الإناء يستلزم أنه لم يبق فيه شيء مما حواه . فاشتملت هذه الجملة على مكنية وتخييلية وكناية »[١] .

وقيل : « استعير الإفراغ هنا للكثرة مع التعميم والإحاطة وتثبيت الأقدام استعارة لعدم الفرار ، شبه الفرار والخوف بزلق القدم ، فشبه عدمه بثبات القدم في المأزق »[٢] .

ففي الآية السابقة « معنى بديع واستعارة لطيفة ونكتة بليغة لأنه جعل الصبر بمنزلة الماء المنصب عليهم لثلج صدورهم وإغنائهم عن الماء الذي منعوا منه »[٣] .

فهذه الاستعارة جعلت صورة المعركة حية ماثلة أمامنا نراهم وهم في أمس الحاجة إلى العون والصبر الذي جعلوه ماءً ينزل عليهم من السماء يعمهم فلا يترك واحداً منهم إلاَّ وشمله هذا الفيض الإلهي ، فتمتلئ قلوبهم صبراً وجلداً لمواجهة الأعداء دون خوف أو جزع .

ومما جاء منها في الدعاء القرآني قوله تعالى : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴾[٤] . حيث شبَّه حبسة لسانه وعجزه عن الإبانة بالعقدة في الحبل أو الخيط وذلك لأنها تمنع سرعة استعماله ، « والعقدة : موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه ... أطلقت على عسر

---

(١) التحرير والتنوير (بتصرف) ٥ / ٥٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٢ / ٤٩٩ ، وانظر حاشية الشهاب ٤ / ٢٠٦ .

(٣) حاشية الشهاب ٢ / ٣٣١ .

(٤) طه / ٢٧ / ٢٨ .

النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة ... فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام ، واستعار لازالتها فعل الحل المناسب للعقدة على طريقة الاستعارة المكنية »[1] . فمن خلال الاستعارة السابقة شعرنا بمدى حاجة موسى عليه السلام للإفصاح والإبانة وكيف أنه لم يعبر عن ذلك مباشرة بل سلك طريقاً أوجز ، وقعه أبلغ ذلك هو طريق الاستعارة فإنك ترى « بها الجماد حيًّا ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جليَّة »[2] .

(١) التحرير والتنوير ١٦ / ٢١١ .

(٢) أسرار البلاغة / ٤٣ .

القسم الثاني من أقسام المجاز : المجاز العقلي (الحكمي) .

وهو : « إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو لـه بتـأويل »[(١)] .
وقد جاء المجاز العقلي في الدعاء القرآني في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السـلام : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[(٢)] .
حيث أسند عليه السلام في دعائه السابق القيام إلى الحساب ، وهو ليس فاعله الحقيقي لأن الذي يقوم للحساب الناس ، وإنما عـدل إلى (يقـوم الحسـاب) بدلاً من (يقوم الناس للحساب) لبيان شدة ذلك اليوم وعظمته حتى لكأنـه قائم بذاته من شدة الجزع ، وعظم المشـهد ، وفيـه أيضـاً اسـتحضار لصورة ذلك اليوم ، وما فيه من هول بأقصر طريـق . ومنـه قولـه تعـالى علـى لسـان أيوب عليه السـلام : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[(٣)] . فقـد أسند عليه السلام المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان ، وجاءت أقوال كثيرة في تعليل هذا الإسناد مبنية كلها على جعـل البـاء في (بنصـب) إمَّـا للتعدية وإمَّا للعلة . وما ارتضاه الطـاهر ابـن عاشـور : « أن تحمـل البـاء علـى معنـى السببية بجعل النَّصب والعذاب مسببين لمس الشيطان إياه . أي مسني بوسواس سببه نصب وعذاب ، فجعـل الشيطان يوسـوس إلى أيـوب بتعظيـم النصـب والعذاب عنده ويلقي إليه أنه لم يكن مستحقاً لذلك العذاب ليلقـى في نفـس أيوب سوء الظن بالله أو السخط من ذلك . أو تحمل البـاء علـى المصاحبـة ،

---

(١) الإيضاح ١ / ٨٢ .
(٢) إبراهيم / ٤١ .
(٣) ص / ٤١ .

أي مسني بوسوسة مصاحبة لضرٍّ وعذاب »[1] . فيظهر أدبه عليه السلام بعدم إسناده الشر إليه . ومثله قوله تعالى على لسان أيوب كذلك : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2] . فإسناد المس إلى الضر مجاز عقلي لأن الفاعل الحقيقي هو الله عز وجل وليس الضر ولكن أسنده إليه تأدباً مع الله .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ... ﴾[3] . فقد ذهب بعض المفسرين إلى جعل (المنادي) القرآن فيكون في الآية مجازاً عقلياً علاقته السببية ذلك أنَّ كل المؤمنين لم يلقوا الرسول . فإسناد النداء إلى القرآن جاء على المجاز .

ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4] . فقوله (يزكيهم) أي « يطهرهم من أرجاس الشرك وأنجاس الشك وقاذورات المعاصي »[5] . ففي إسناد فعل التزكية إلى الرسول مجاز عقلي علاقته السببية. ذلك أن التطهير هو نتيجة إيمانهم بالله عز وجل ، ولكن لأن الرسول هو المبلغ لهذا الدين الموصل إلى الإيمان والنجاة ، أي أنه هو السبب بعد الله في إيمانهم وطهارتهم ذكره مسنداً الفعل إليه .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٧٠ .

(٢) الأنبياء / ٨٣ .

(٣) آل عمران / ١٩٤ .

(٤) البقرة / ١٢٩ .

(٥) روح المعاني ١ / ٣٨٧ .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[1] نرى في إسناد الانبغاء إلى الملك مجاز عقلي . حيث أن الفعل (ينبغي) مطاوع بغاه .

يقال : بغاه فانبغى له ، وليس للملك اختيار وانبغاء ، وإنما الله هو المعطي والميسر . فالحقيقة هو انبغاء سببه - أي الملك - وهذا من التأدّب في دعائه عليه السلام إذ لم يقل لا تعطه أحداً من بعدي[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[3] نرى مجازاً عقلياً في النسبة الإضافية ، حيث نسب الصدق إلى اللسان وإنما الذي يوصف بالصدق صاحبه ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[4] . فنسب الصدق كذلك إلى مكان الدخول والخروج ، وإنما هو وصف لمن يدخل أو يخرج . ولكن لشدة تلهفه للخروج من مكة لأنها لم تكن حينئذ مكاناً ملائماً لنشر الدعوة وشوقه إلى المدينة موطن نصرته المنتظر . نراه ينسب إليها هذا الصدق ويضيفه إليها لتخصيصهما . فيكون خروجه خروجاً مخصوصاً متصفاً بالصدق وكذلك دخوله .

---

(١) ص / ٣٥ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٣ / ٢٦٢ .

(٣) الشعراء / ٨٤ .

(٤) الإسراء / ٨٠ .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[١] . فالنار ليست هي التي تعذب ولكنها مكان التعذيب يحل فيها الكافرون . ولكن نظراً لأن الداعين حريصون على طلب الوقاية من هذا العذاب الذي تملك الخوف منه شغاف قلوبهم نراهم ينسبونه إلى النار مباشرة لما فيه من تهويل لأمر هذا العذاب وإظهار شدة خوفهم من الوقوع فيه ومثله قوله تعالى : ﴿ ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾[٢] .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[٣] . فالمجاز هنا في قوله (الأليم) لأن في إسناد الأليم وإضافته إلى العذاب مجاز عقلي لأن المراد الأليم أثره . أو العذاب المؤلم فالعلاقة هنا الفاعلية .

---

(١) البقرة / ٢٠١ - آل عمران / ١٦ - ١٩١ .

(٢) الفرقان / ٦٥ .

(٣) يونس / ٨٨ .

جـ - الكناية :

الكناية « لفظ أريد بـه لازم معناه ، مع جواز إرادة معناه »[١] وقيل : « هي ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم ليُنتقل منه إلى الملزوم كما يقال : فلان طويل النجاد . أي طويل القامة وسميت كناية لما فيها من إخفاء وجه التصريح بالعَلم »[٢] .

والكناية من فنون البيان التي يشعر معها الشخص بجمال الأسلوب و(خصوبة العبارة التي لم تدل على المعنى دلالة مباشرة وإنما تلوح ، وتومئ وتشير ، وتترك تحديد المراد ، والنص عليه للقوى والملكات البيانية تشقق فيما وراء الحجب صنوفاً من المعاني وضروباً من الإشارات)[٣] ومما يميز كنايات الدعاء القرآني أنها واضحة قريبة وغالباً ما تكون كنايات عن صفة . وتمتاز كذلك (بنظمها البديع ، وتأليفها الفريد ، فمعناها لا يؤدى بغير لفظها ، ولفظها لا يصلح إلاّ لمعناها ، حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما فلا يدرى أيهما التابع ؟ وأيهما المتبوع ؟ وهي من هذه الناحية ، تعد من مظاهر الإعجاز في القرآن »[٤] . وهي غالباً ما تأتي مصاحبة لصور المجاز .

ومن كنايات القرآن قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً

---

(١) اللإيضاح ٥ / ١٥٨ .

(٢) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان / ٢٦١ .

(٣) التصوير البياني / ٣٧٦ .

(٤) الأسلوب الكنائي (نشأته – تطوره – بلاغته)/ محمود السيد شيخون / ط١ ، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، مكتبة الكليات الأزهرية / ص ١٠٦ .

إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[١] . وقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[٢] فقد جاءت الكناية في قوله : ﴿ لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ كناية عن الاستجابة والقبول لهذا الدعاء وهي كما ترى كناية واضحة قريبة لأن سماع الدعاء أدعى لإجابته غالباً .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[٣] . ففي تثنية (ضعفين) كناية عن شدة العذاب[٤] وقسوته على هؤلاء المضلين وهو نظير ما في الأعراف من قوله تعالى : ﴿ فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ ﴾[٥] . ونرى شدة حقد هؤلاء الأتباع على من أضلهم وذلك عندما يطلبون من ربهم أن يريهم المضلين من الجن والإنس في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[٦] . فطلب رؤية المضلين كناية عن إرادة الانتقام[٧] منهم وقوله : ليكونا من الأسفلين فيه كناية عن المهانة والذل والحقارة .

---

(١) آل عمران / ٣٨ .

(٢) إبراهيم / ٣٩ .

(٣) الأحزاب / ٦٨ .

(٤) راجع التحرير والتنوير ٢٢ / ١١٩ .

(٥) الأعراف / ٣٨ .

(٦) فصلت / ٢٩ .

(٧) راجع التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٨١ .

ونجدها كذلك في قوله تعالى لسان يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[1] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2] . فالميل إليهن كناية عن قبول ما قلن . وقيل : كناية عن المؤاتاة عند من قال : إن النسوة دعونه إليهن كذلك[3] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[4] . فالكتابة هنا كناية عن صفة الثبات على الإيمان في الخاتمة والظاهر أن المراد اجعل ذلك وقدّره لنا .. أو أدخلنا في عداد أتباعهم[5] فهو كناية عن الانضمام إلى الصالحين . وفي اختيار الفعل (اكتب) دلالة على شدة حرصهم أن يكونوا في عداد الصالحين ومن جملتهم وذلك بتثبيت أسمائهم معهم عن طريق الكتابة لأنها وسيلة التوثيق في العهود والمكاتبات .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[6] . جاء التعبير بقوله: (مقيم الصلاة) من باب الكناية ، أي اجعلني مؤدياً لها على أكمل وجه ، تامة الركوع والسجود لا يعتريها النقص و« وفقني لتوفية شرائطها »[7] .

---

(١) أصبُ إليهن : أمِلْ إليهن .

(٢) يوسف / ٣٣ .

(٣) راجع حاشية الشهاب ٥ / ١٧٦ .

(٤) آل عمران / ٥٣ - المائدة / ٨٣ .

(٥) راجع حاشية الشهاب ٣ / ٣٠ .

(٦) إبراهيم / ٤٠ .

(٧) مفردات الراغب / ٤١٨ .

ثانياً : صور البديع

يظهر للمتأمل في آيات الدعاء، أنه لم يرد من صور البديع - والله أعلم - سوى الطباق ورد العجز على الصدر أو ما يعرف بالإرصاد والتسهيم وكذلك الجمع والتقسيم ومراعاة النظير[١] .

فالداعي يقف بين يدي ربٍّ عليم ، يدعوه عباده فيجيبهم ، فيكون حرص الداعي حينها على الإلحاح في الدعاء وعرض حاجته بطريق مباشر ، قارعاً أبواب السماء منتظراً الإجابة لذا ظهر الدعاء القرآني بعددٍ قليل من محسنات القول .

والمحسنات البديعية الواردة في الدعاء ، نراها زادت المعنى جمالاً ، بل كانت منسجمة مع النظم تكاد تنطق بها الآيات ، وهي مع بساطتها دلَّت على معانٍ مستفادة من السياق ذاته .

١ - الطباق :

فن بديعي يعمد إلى « الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة »[٢] . و« الطباق يجمع المعاني المتقابلة ، والألفاظ المتضادة في ربقة واحدة ، تعطي الأسلوب قوة وحيوية ، فيجمع أموراً لا تجتمع في العادة ويجعلها مقترنة متلاصقة . فيرينا الحياة مع الموت ، والنور مع الظلام ،

---

(١) الجمع والتقسيم كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ المائدة / ١١٤ حيث جمع في قوله : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ ثم قسّم بقوله : ﴿ لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ .
أمّا مراعاة النظير ففي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ فصلت / ٢٩ .

(٢) الإيضاح ٦ / ٧ .

والصحة مع المرض ، والفقر مع الغنى .. وهذا الجمع يحدث الائتلاف بين المختلفات ، ويحقق العناق بين المتنافرات ، وذلك مكمن الإبداع في العربية »[١] .

وجاء الطباق في الدعاء القرآني واضحاً ، قريباً سهل المأخذ ، جمع بين الأضداد في توافق وحُسن انسجام ، متنوعاً بين لفظين إمَّا من نوع واحد (كاسمين أو فعلين) وإمَّا من نوعين مختلفين (اسم وفعل) ولم يأت بين حرفين إلاَّ في سياق الدعاء كما في سورة البقرة ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[٢] .

أولاً : بين لفظين من جنس واحد (اسمين) .

١ – المطابقة بين الدنيا والآخرة :

جاء الطباق بين الدنيا والآخرة في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٣] . فقد جمع الداعون الخير في دعائهم هذا ، فعبروا عن طلبهم الدنيوي موصولاً بالأخروي ، مظهرين حاجتهم لتلك الحسنة ليس في الدنيا فقط بل في الآخرة وخاصة عند الوقوف بين يدي الله ، الذي بيده أن يهبهم الحسنة (الجنة) تفضلاً منه ورحمة وكرماً. ونظيرها ما جاء في الأعراف من قوله تعالى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا

---

(١) بلاغة الدعاء في الحديث النبوي / ٣٨٢ .

(٢) البقرة / ٢٨٦ .

(٣) البقرة / ٢٠١ .

فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾[١] . وجاءت كذلك في قوله تعالى : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢] . فيوسف عليه السلام يؤكد ولاية الله له في الدنيا والآخرة فهو وليه سبحانه والقادر على تحقيق ما يطلبه منه .

٢ – المطابقة بين أولنا وآخرنا :

جاءت تلك على لسان عيسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ﴾[٣] . واختلفوا في المراد بأولنا وآخرنا إلى عدة أقوال منها : إنه يراد بهم المتقدمون والمتأخرون منهم ، وقيل : أولهم وآخرهم ، وقيل : الرؤساء والأتباع[٤] . وأيًّا كان المراد ، فإن في ذلك دلالة على حرصه عليه السلام على شمول هذا السرور والفرح الجميع بنزول تلك المائدة ، فلا يفوت أحداً منهم من الأولين أو الآخرين . فيجعلنا نشعر بالآكلين من هذه المائدة يلحق آخرهم بأولهم . لا يفصل بينهم فاصل ، مجتمعون في مكان واحد .

٣ – المطابقة بين الجن والإنس :

جاءت تلك المطابقة على لسان المعذبين في النار في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ

---

(١) الأعراف / ١٥٦ .

(٢) يوسف / ١٠١ .

(٣) المائدة / ١١٤ .

(٤) راجع تفسير أبي السعود ٣ / ٩٨ .

أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[1] . حيث أظهرت أن الإضلال لا يقع من الجن وحدهم بل إنَّ من الإنس من يعمل على الغواية والإضلال لغيره . لذا فالأتباع يطلبون رؤيتهم للانتقام منهم .

٤ – المطابقة بين السموات والأرض :

جاءت تلك على لسان يوسف عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾[2] . فقد جمع عليه السلام بين السماء والأرض في دعائه وخصهما بالذكر لما في خلقهما من الإبداع والدلالة على القدرة المطلقة . فأظهر لنا السماء بعلوها والأرض بانخفاضها ليس بينهما مسافة سوى رفع البصر إلى السماء ورده إلى الأرض .

ثانياً : بين لفظين من جنس واحد (فعلين) .

١ – المطابقة بين (أمتنا وأحييتنا) :

جاءت في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[3] . فقد طابق بين الإحياء والإماتة مبيناً أنهما من أحوال الإنسان التي لا مفر منها مظهراً أنهما كذلك من خصائص قدرة الله عز وجل وصفاته التي لا يشاركه فيها أحد ، بيده القدرة التامة على البعث والإيجاد من العدم .

(١) فصلت / ٢٩ .

(٢) يوسف / ١٠١ .

(٣) غافر / ١١ .

٢ - المطابقة بين (تضل وتهدي) :

جاءت في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾[١] . فجمع بذلك بين الضلال والهداية ليبين أنهما بيد الله يصرفها بين عباده كيف يشاء .

٣ - المطابقة بين (يُصَدِّقني ويكذبون) :

جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[٢] . فبين الصدق والكذب طباق أظهرت الآية حرص موسى عليه السلام على تبليغ الدعوة واستعمال كل ما من شأنه إبلاغها على الوجه المطلوب ، مظهراً خوفه الشديد من تكذيبهم إيّاه لذلك فهو في حاجة إلى من يصدقه فيما يقول ويكون عضداً له في مواجهة هؤلاء المكذبين .

٤ - المطابقة بين (أدخلني وأخرجني) :

جاءت في قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾[٣] . وهنالك أقوال[٤] عديدة في المراد بالإدخال والإخراج في هذه الآية . وأيّاً كان المراد فإن الآية أظهرت

---

(١) الأعراف / ١٥٥ .

(٢) القصص / ٣٤ .

(٣) الإسراء / ٨٠ .

(٤) راجع تفسير أبي السعود ٥ / ١٩٠ .

لنا الدخول والخروج معاً في وقتٍ واحدٍ ، وأشعرتنا بقصر المسافة بين هذا الدخول وذلك الخروج ، واصفةً إيَّاهما بالصدق ؛ لتتم البركة فيهما فلا تشوبهما شائبة تمنع حصولهما .

ثالثاً : بين لفظين ليسا من جنس واحد (اسم وفعل) .

١ – المطابقة بين (مغلوب وانتصر) :

جاءت في قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[١] . فجمع بين الغلبة والنصر مظهراً أنه قد غلب على أمره فلا مجيب لدعوته لذلك طلب النصرة من الله عز وجل .

٢ – الإرصاد[٢] :

« وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي »[٣] . وهو كثير جداً في آيات الدعاء وقد أشرنا إليه عند دراستنا لمبحث فواصل آيات الدعاء ، ومنه على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[٤] . فقد ذكر لفظ (هب) وهو مناسب للفظ (الوهاب) .

ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ

---

(١) القمر / ١٠ .

(٢) ويسمى كذلك التسهيم أو رد العجز على الصدر .

(٣) الإيضاح ٦ / ٢٥ .

(٤) آل عمران / ٨ .

ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[1] . فالأرصاد فيه قوله (افتح) .

ومما سبق يمكن القول :

١ - إنَّ صور البيان والبديع جاءت قليلة للأسباب التي ذكرناها ولكنها مع قلتها وبساطتها لم تخلُ من البلاغة المعجزة والدلالة الأسلوبية الرائعة .

٢ - إنَّ أكثر صور الاستعارة كانت من باب (الاستعارة التصريحية) .

٣ - إنَّ أكثر كنايات الدعاء القرآني هي كنايات عن صفة .

٤ - إنَّ الكناية في الدعاء القرآني تدخل ضمن أساليب مجازية غالباً « وذلك بأن يكون المجاز داخلاً في طبيعة صياغتها ؛ أو يكون طريقاً لها »[2].

---

(١) الأعراف / ٨٩ .

(٢) بلاغة الدعاء في الحديث النبوي / ٣٦٩ .

الخاتمة

وبعد أن عشنا مع القرآن دراسة وتحليلاً ، عرضاً وتفصيلاً ، يمكننا أن نوجز أهم النتائج التي توصل إليها البحث في النقاط الآتية :

١ - إن مقام الدعاء من أصدق المقامات الخطابية ، وأبعدها عن التكلف وبهرجة القول .

٢ - قيام الدعاء على جملة من المشاعر النفسية كالخوف والرجاء والتذلل والخضوع والأمل والحياء .

٣ - غزارة مادة (دعا) وثراء دلالاتها ، وانفراد القرآن بمعانٍ لم ترد في كلام الناس كالدعاء بمعنى العبادة والسؤال والقول والحث على الشيء والطلب والاستعجال ونداء الهلاك وهي في معظم تلك المعاني تخرج إلى المجاز.

٤ - كثرة النداء بصفة الربوبية ، وقلته بصفة الألوهية لما في الربوبية من معاني التربية والإنعام والتفضل واللجوء إلى مصدر الخير أملاً في الإجابة .

٥ - خروج بعض الصور من الدعاء لفقدها شرط التذلل والخضوع كدعاء إبليس ومشركي مكة .

٦ - كثرة صدور الدعاء الدنيوي على ألسنة المؤمنين والأنبياء خاصة . أما الدعاء في الآخرة فصدر معظمه من المعذبين .

٧ - دقة القرآن في التعبير بالاسم والفعل ومراعاة الفروق الدقيقة في بعض الأفعال متقاربة الدلالة كما في (أعطى وآتى) و (كفِّر - واغفر) و (مس وأصاب) .

٨ - كثرة القصر في الدعاء القرآني بأسلوب التقديم .

٩ - السياق القرآني هو المحرك والباعث على كثير من الدلالات ، كما في الجمع والإفراد والتقديم لبعض المفردات ، وكذلك هو الذي يُظهر لنا المعاني الخفية والمناسبات الدقيقة التي تربط الجمل ببعضها وتفصلها عن بعض، غير ما قرره علماء البلاغة من أسباب الفصل والوصل المعروفة .

١٠ - كثرة الوصل في آيات الدعاء وذلك لحاجة الداعي ولهفته لتحقيق مراده لذا نراه يحاول وصل كلامه حتى لا يفوته ذكر شيء من تلك الحاجات. وكان أكثر صور الوصل (التوسط بين الكمالين) لأن الدعاء في الأساس هو صورة من صور الأمر أو النهي .

١١ - كان التقديم بين أركان الجملة غالباً ما يكون للعناية والاهتمام والقصر .

١٢ - إن التأكيد في الدعاء القرآني تحركه بواعث نفسية ، وقد كثر التأكيد في الحقائق المتعلقة بالله . فيبثها الداعي مؤكدة حسب قوتها في نفسه. واستخدم لذلك الآداة (إنَّ) لخفتها وسرعتها ولأنها أم الباب .

١٣ - كثرة التعريف بالإضمار والإضافة خاصة الإضافة للفظي (رب - خير) .

١٤ - أكثر دلالات التنكير شيوعاً دلالة التعظيم ؛ لرغبة الداعين في تعظيم ما يطلبون .

١٥ - إن ترتيب الجمل في الدعاء القرآني جاء موافقاً للترتيب الخارجي للأحداث وقد يخالف مراعاةً لأمور يقتضيها السياق . ويدعو البحث إلى

بذل مزيد من الجهود في دراسة ترتيب الجمل لما فيه من اللطائف والأسرار البلاغية .

١٦ – السمة المميزة للدعاء القرآني إيجازه ، وقد يأتي ببعض صور الإطناب .

١٧ – إن فواصل آيات الدعاء قد ضمَّت ألواناً من الدرس البلاغي كالتقديم والتأخير والحذف ، وهي لا تزال في حاجة إلى جهود الباحثين لبحث دقائقها وعرض بلاغتها وإعجازها .

١٨ – قلة صور البيان والبديع في آيات الدعاء ؛ وذلك لبساطته فهو يصدر غالباً من نفسيات أضنتها الفاقة وأرهقتها الشدة . فنرى الداعي يعرض كلامه بطريق مباشر – وحتى الصور الواردة منهما تُعد بسيطة ومع ذلك لم تخلُ من الإعجاز والدلالة الأسلوبية الرائعة .

١٩ – إنَّ أكثر استعارات الدعاء من باب الاستعارة التصريحية ربما لبساطة الدعاء وبعده عن الغموض .

٢٠ – كثرة الكنايات عن صفة في الدعاء القرآني .

ونسأل الله الكريم أن يكون ما كتبناه في هذا البحث حجة لنا لا علينا وأن ينفع به ويجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه على ذلك لقدير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



فهرس الآيات

السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
هود	٣٣	١٨٠
	٣٦	٧١
	٣٧	١٥٤
	٤٥	١١٥، ١١٦، ١٥٧، ٢٤٢
	٤٧	٦٥، ٨٠، ١١٩
يوسف	٣٣	٥٠، ٣١٤
	٣٤	٥٠
	٨٥	١٠٣
	٨٦	١٧٥
	١٠١	٣٤، ٨٤، ٩٨، ١٥٠، ٢٢٣، ٣١٨، ٣١٩
الرعد	٧	١٧٦
إبراهيم	٧	٧٢
	٣٥	٤٩، ٦٣، ١٣٣، ٢٢٧، ٢٥٩
	٣٦	١١٦، ٢٢٧
	٣٧	٦٣، ١٣٣، ١٤٤، ٢٠٤، ٢٢٧، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٩٨، ٣٠٥
	٣٨	١١٨، ٢٢٧
	٣٩	٩٩، ١١٥، ١٣٥، ١٣٩، ٢٢٧، ٣١٣
	٤٠	١٢٤، ١٥٠، ٢٢٧، ٢٤٣، ٢٥٢، ٣١٤
	٤١	٨٠، ٢٢٧، ٢٥٠، ٢٥٩، ٣٠٨
	٤٤	٧٤
	٤٥	٢٨٠

السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الحجر	١٥	١٠٢
	٣٦	٢٣
	٣٩	٣٢
النحل	١٨	٢٠٠
	٤٠	١٧٦
	١١٥	١٧٩
	١٢٥	١١
الإسراء	١٥	٧٦، ١٧٧
	٢٤	٢٤٤، ٢٥٤، ٢٩٣
	٨٠	٣٤، ٦٨، ١٨٠، ١٢٤، ١٥٨، ٢٣٩، ٢٧٧، ٣١٠، ٣١٩
الكهف	١٠	٥٥، ٨١، ١٠٩- ١٤٣، ١٩٨، ٢١٣
	٢٥	٥٥
	٢٦	٥٥
	٤٦	٦٤
	١١٠	١٧٦
مريم	٢	٥٣
	٥	٥٣، ١١٠، ١٥١، ٢١٣، ٢٧٧، ٢٩٤
	٦	٥٣، ٢٩٤
	١٠	١٠٧، ١١٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٢
	١١	١٩٤
	٤٧	٤٨

السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
فاطر	٢٤	٧٥
	٢٨	٧٨
	٣٧	٣٤، ٦٠، ٨٩، ١٣٨، ١٦٨، ٢٥٤
يس	١٣	١١٢
	١٤	١١٢
	١٥	١١٢
	١٦	١١٢
الصافات	١٠٠	١٢٦، ٢٣٢، ٢٥٣
	١٠١	٦٤
ص	١٦	٨٨
	٣٤	٢٨٢
	٣٥	٥٢، ٧٠، ١١٦، ١٢٣، ١٢٤، ١٤٣، ٢٢١، ٢٨٢، ٣١٠، ٣١٥
	٤١	٧٨، ١٤٥، ١٧٠، ٢٧٨، ٣٠٨
	٦١	٩١، ١٤١، ٢١٥
	٧٩	٣٢
الزمر	٨	١٢
	٤١	١٧٧
غافر	٧	٥٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ٢٥٠
	٨	٥٩، ٨٦، ٩٩، ١٣٦، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٧٤
	٩	٥٩، ١٣٥، ١٤٢، ٢٠٧

السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
غافر	١١	٤٢، ٨٩، ٢٠٧، ٣٢٠
	١٤	٩
	٦٠	٩، ١٦، ٢٤، ٤٤، ١٥٤
	٧٠	٢١٢
فصلت	٦	١٧٧
	٢٩	١٠١، ٣١٣، ٣١٩
	٤٩	١٢
الزخرف	٨٨	١١٧، ١٤١، ٢٤٥.
الدخان	١٢	١١٨
	٢٢	١١٧، ١٤١، ٢١٧، ٢٥٥
	٢٥	
	٥٥	٧
الأحقاف	١٥	٣٧، ٥٨، ٦٥، ٧٢، ١١٨، ١٣١، ١٣٦، ١٦٤، ٢٠٠، ٢٤٩، ٢٥٤
الحجرات	١٠	١١٩، ١٧٨
القمر	١٠	٦٦، ١١٧، ١٥٣، ٢٤٤، ٢٩٥، ٣٢١
	٤٧	١٨٤
الرحمن	١	٧٧
	٤	٧٧
الحديد	١٢	٨٧
المجادلة	٧	٢٤٦
	١٠	١٧٨

السورة	رقم الآية	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الحشر	١٠	١١٦، ١٣٦، ١٤٥، ٢٧٥	المطففين	١	٢٢
الممتحنة	٤	١٠٣، ١٠٤، ٢٦٣، ٢٧٨	الانشقاق	١١	١١
	٥	٣٥، ١١٦، ٢٧٤	الغاشية	٢١	١٧٧
المنافقون	١٠	٧٤	العلق	٤	٧٧
التغابن	١٥	١٧٩		٥	٧٧
التحريم	٧	١٧٨	القارعة	٥	١٧٧
	٨	٦٠، ٨٢، ٨٦، ١١٦، ١٩٧، ٢٢١	التكاثر	١	٦٤
	١١	٥٦، ٦٩، ٨٥، ١١٠، ١٤٠، ١٦٥، ١٦٧، ٢٨٧	الهمزة	١	٢٢
الملك	٢٧	١١	المسد	١	٢٢
نوح	٥	٤٧			
	٦	٤٧			
	٧	٤٧			
	٨	٤٧			
	٩	٤٧			
	٢١	١١٧			
	٢٢	٣٠٣			
	٢٤	٤٧، ٧٠، ١٨٣، ٢١٦، ٣٠٣			
	٢٦	٤٧، ٧١، ١٢٦			
	٢٨	٤٧، ٧٠، ٨٠، ١٤٦، ١٨٣، ٢٥٩، ٢٦٤			
	٣٨	٢١٦			

ثبت المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

أولاً : المصادر القديمة :

(أ)

٢ - الإتقان في علوم القرآن .

جلال الدين السيوطي .

تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية : بيروت .

(١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) .

٣ - أسرار البلاغة .

عبد القاهر الجرجاني .

تعليق / محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة .

ط ١ ، (١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م) .

٤ - الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال بهامش حاشية الكشاف .

ناصر الدين أحمد بن محمد المنيِّر .

دار الكتب العلمية : بيروت .

ط ١ ، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

٥ – الإيضاح .

الخطيب القزويني .

شرح / محمد عبد المنعم خفاجي ، المكتبة الأزهرية للتراث بمصر .

ط ٣ ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) .

(ب)

٦ – البرهان في علوم القرآن .

بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي .

تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة : بيروت .

ط ٢ ، (د . ت) .

٧ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز .

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي .

تحقيق / محمد علي النجار ، المكتبة العلمية : بيروت .

(د . ت) .

٨ – البيان والتبيين .

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

تحقيق / عبد السلام هارون ، دار الجيل : بيروت .

(د . ت) .

(ت)

٩ – التبيان في علم المعاني والبديع والبيان .

شرف الدين حسين بن محمد الطيبي .

تحقيق د/ هادي عطية الهلالي ، عالم الكتب : بيروت .

ط ١ ، (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) .

١٠ – تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)

أبو السعود محمد بن محمد العمادي .

دار إحياء التراث العربي : بيروت .

ط ٤ ، (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) .

١١ – تفسير البحر المحيط .

محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي .

دار الفكر : بيروت .

(١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) .

١٢ – تفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل بهامش حاشية الشهاب .

القاضي البيضاوي .

دار إحياء التراث العربي : بيروت .

(د . ت) .

١٣ - تفسير الطبري : جامع البيان في تفسير آي القرآن .

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .

دار الفكر : بيروت .

(١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) .

١٤ - تفسير القرآن العظيم .

أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي .

دار الفكر : (د . م) .

(د . ت) .

١٥ - التلخيص في علوم البلاغة .

للخطيب القزويني .

شرح / عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي : بيروت .

(١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م) .

(ج)

١٦ - الجامع لأحكام القرآن .

أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

تحقيق / أحمد عبد العليم البردوني ، دار الكتاب العربي : القاهرة.

(١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .

١٧ - جامع الترمذي .

محمد بن عيسى بن سورة الترمذي .

تحقيق / أحمد شاكر وآخرون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة .

ط ١ ، (د . ت) .

١٨ - الجامع الصحيح المختصر .

محمد بن إسماعيل البخاري .

تحقيق د/ مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير : اليمامة ، بيروت .

ط ٣ ، (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) .

(ح)

١٩ - الحاكم في المستدرك على الصحيحين .

محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري .

تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية : بيروت .

ط ١ ، (١٤١١ هـ / ١٩٩٨ م) .

(د)

٢٠ - دلائل الإعجاز .

عبد القاهر الجرجاني .

تحقيق / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني : القاهرة ، دار المدني : جدة .

ط ٣ ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) .

٢١ - ديوان أبي نواس .

تحقيق / أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي : لبنان .

(د . ت) .

٢٢ - ديوان حسان بن ثابت الأنصاري .

دار صادر : بيروت ، (١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م) .

٢٣ - ديوان العباس بن الأحنف .

دار صادر : بيروت ، (١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) .

(ذ)

٢٤ - ذيل الأمالي والنوادر .

دار الكتب العلمية : بيروت .

ط ١ ، (١٤١٦ هـ) .

(ر)

٢٥ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .

شهاب الدين محمود الألوسي .

دار إحياء التراث العربي : بيروت .

ط ٤ ، (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) .

(س)

٢٦ – سنن أبي داود .

سليمان بن الأشعث السجستاني .

تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر : بيروت .

(د . ت) .

٢٧ – سنن الدارمي .

للإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي .

دار إحياء السنة النبوية .

(د . ت) .

(ش)

٢٨ – الشعر والشعراء .

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .

دار إحياء العلوم : بيروت .

ط ٤ ، (١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م) .

(ص)

٢٩ – صحيح مسلم .

أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري .

مؤسسة قرطبة .

ط ٢ ، (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) .

(ط)

٣٠ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز .

يحيى بن حمزة العلوي اليمني .

ضبط وتدقيق/ محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية: بيروت.

ط ١ ، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

(ع)

٣١ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للخطيب القزويني .

بهاء الدين السبكي .

طبع ضمن شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية .

(د . ت) .

٣٢ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .

أبو علي الحسين بن رشيق القيرواني .

دار الجيل : بيروت .

ط ٥ ، (١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) .

(ق)

٣٣ - قصص الأنبياء .

أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي .

تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، المكتبة الإسلامية : بيروت .

ط ٢ ، (١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) .

(ك)

٣٤ – كتاب الصناعتين .

أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري .

تحقيق / علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

المكتبة العصرية : بيروت .

(١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .

٣٥ – كشاف : عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .

جار الله محمود بن عمر الزمخشري .

ضبط وتصحيح / محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية : بيروت .

ط ١ ، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

٣٦ – الكليات .

أبو البقاء الكفوي .

تحقيق / عدنان درويش ، ومحمد المصري .

دار الكتاب الإسلامي : القاهرة .

ط ٢ ، (١٤١٣ هـ) .

(م)

٣٧ – مختصر السعد على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني .

سعد الدين التفتازاني .

طبع ضمن شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية : بيروت .

(د . ت) .

٣٨ – معجم أساس البلاغة .

جار الله محمود بن عمر الزمخشري .

دار الكتب المصرية : مصر .

(د . ت) .

٣٩ – معجم الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية .

إسماعيل بن حماد الجوهري .

تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين : لبنان .

(د . ت) .

٤٠ – معجم لسان العرب .

ابن منظور ، دار إحياء التراث العربي : بيروت .

ط ٣ ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) .

٤١ – معجم المفردات في غريب القرآن .

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني .

تحقيق / محمد سعيد كيلاني ، دار المعرفة : لبنان .

(د . ت) .

٤٢ – معجم مقاييس اللغة .

أبو الحسين أحمد بن فارس .

تحقيق / عبد السلام هارون ، دار الفكر .

(د . ت) .

٤٣ – ملاك التأويل : (القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل) .

أحمد بن إبراهيم الغرناطي .

تحقيق / سعيد الفلاَّح ، دار الغرب الإسلامي : (د . م) .

ط ١ ، (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) .

٤٤ – مواهب الفتاح .

ابن يعقوب المغربي .

طبع ضمن شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية : بيروت .

(د . ت) .

(ن)

٤٥ – نتائج الفكر في النحو .

أبو القاسم السهيلي .

تحقيق / د. محمد إبراهيم البنَّا ، دار الرياض .

(د . ت) .

٤٦ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور .

برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي .

تخريج / عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية : بيروت.

ط ١ ، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

ثانياً : الرسائل العلمية :

٤٧ – بلاغة الدعاء في الحديث النبوي .

سلامة جمعة علي داود ، إشراف / عبد الحميد العبيسي .

رسالة دكتوراه – كليـة اللغـة العربيـة – جامعـة الأزهـر (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م) .

٤٨ – الحوار في القرآن الكريم : خصائصه التركيبية وصوره البيانية .

محمد إبراهيم شادي .

رسالة دكتوراه – بحث مخطوط بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر .

٤٩ – نصوص الترغيب والترهيب في القرآن الحكيم من وجهة بلاغية .

يوسف عبد الله الأنصاري ، إشراف د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني .

رسـالة دكتـوراه – كليـة اللغـة العربيـة – جامعـة أم القـرى ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) .

ثالثاً : المطبوعات الحديثة :

(أ)

٥٠ – أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي .

أسامة عانوني ، منشورات المكتبة الأهلية : بيروت .

١٩٦٢ م .

٥١ – الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن .

د. صباح عبيد دراز ، مطبعة الأمانة بمصر .

ط ١ ، (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .

٥٢ – أساليب القصر .

د. صباح عبيد دراز ، مطبعة الأمانة بمصر .

ط ١ ، ١٤٠٦ هـ .

٥٣ – الأسلوب الكنائي : (نشأته – تطوره – بلاغته) .

محمود شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية .

ط ١ ، (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) .

٥٤ – الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ : دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن .

د / محمد الأمين الخضري ، مطبعة الحسين الإسلامية .

ط ١ ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) .

٥٥ – الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق .

عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، دار المعارف : القاهرة .

ط ٢ ، (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) .

٥٦ – الأعلام .

خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين : لبنان .

ط ١٠ ، ١٩٩٢ م .

(ت)

٥٧ – التصوير البياني : دراسة تحليلية لمسائل البيان .

د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة : القاهرة .

ط ٣ ، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) .

٥٧ – التصوير الفني في القرآن .

سيد قطب ، دار الشروق .

(١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

٥٨ – تفسير التحرير والتنوير .

محمد الطاهر بن عاشور .

(خ)

٥٩ – خصائص التراكيب .

د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة : القاهرة .

ط ٣ ، (د . ت) .

٦٠ – خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية .

د. عبد العظيم المطعني ، مكتبة وهبة : القاهرة .

ط ١ ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) .

(د)

٦١ – دراسات في علم الصرف .

د. عبد الله درويش ، مكتبة الطالب الجامعي : مكة المكرمة .

ط ٣ ، (١٤٠٨ هـ) .

٦٢ – دلالات التراكيب .

د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة : القاهرة .

ط ٢ ، (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م) .

(ع)

٦٣ – العصر الإسلامي .

د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر .

ط ٧ ، ١٩٦٣ م .

٦٤ – العصر الجاهلي .

د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر .

ط ٨ .

٦٥ – علم البيان وثراء المعاني في القرآن الكريم .

د. يوسف الأنصاري ، دار الأنصاري : مكة المكرمة .

ط ١ ، (١٤١٨ هـ) .

(ف)

٦٦ – الفاصلة في القرآن .

محمد الحسناوي ، دار الأصيل .

(١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) .

٦٧ – فتح القدير .

محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، عالم الكتب .

(د . ت) .

٦٨ – في ظلال القرآن .

سيد قطب ، دار الشروق : بيروت ، القاهرة .

ط ١٧ ، (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) .

(م)

٦٩ – معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم .

د. إسماعيل أحمد عمايره ، ود. عبد الحميد مصطفى السيد .

مؤسسة الرسالة : بيروت .

ط ١ ، (١٤٠٧ هـ) .

٧٠ – معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية .

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

ط ٢ ، (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .

٧١ - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها .

د. أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي .

(١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) .

٧٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

د. محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة : بيروت .

ط ٢ ، (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) .

٧٣ - المعجم الوسيط .

إبراهيم أنيس وآخرون ، المكتبة الإسلامية : استانبول .

ط ٢ ، (د . ت) .

٧٤ - من أسرار البلاغة في القرآن .

د. محمد السيد شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية : القاهرة .

ط ١ ، (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) .

٧٥ - من أسرار التركيب البلاغي .

السيد عبد الفتاح حجاب ، المكتبة التوفيقية .

ط ١ ، (١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م) .

٧٦ - من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني .

د. محمد الأمين الخضري ، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

ع ١١ ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) .

٧٧ – من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية .

د. محمد الأمين الخضري (د . م ، د . ن) .

(١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) .

٧٨ – من بلاغة القرآن .

أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر : القاهرة .

١٩٧٧ م .

٧٩ – من سمات التراكيب : دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني .

عبد الستار حسين زموط ، مطبعة الحسين الإسلامية : القاهرة .

ط ١ ، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) .

(ن)

٨٠ – النبأ العظيم .

د. محمد عبد الله دراز ، دار القلم : كويت .

ط ٤ ، (١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م) .

٨١ – النحو الوافي .

عباس حسن ، دار المعارف بمصر .

ط ٣ ، (١٩٧٤ م) .

٨٢ – نهج البلاغة .

لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

شرح الشيخ / محمد عبده ، دار الكتب العلمية : بيروت .

ط ١ ، (١٤١٠ هـ) .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**